إثبات الشفاعة

لصاحب المقام المحمود

والرد على الدكتور مصطفى محمود

أ. د / عبد المنعم فؤاد محمود عثمان

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد في كلية أصول الدين بأسيوط

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعـــــد :

فهذا بحث موجز بعنوان " إثبات الشفاعة لصاحب المقام المحمود والرد علـى الـدكتور مصطفى محمود" وقد دفعني إلى كتابته تلك المغالطات، والشبهات التي أثارها الدكتور مصـطفى محمود حول معتقد الشفاعة في الإسلام، وقد بدأها في أعداد من المقالات الصحفية التي كان يخطها في جريدة الأهرام ، وقد أثارت هذه المقالات سخط العلماء، والباحثين، في كل مكان لما فيها من جهل واضح بأمور الدين ، والتهجم على معتقد المسلمين في شفاعة خير الخلق أجمعين، النبي الأمين محمد عليه الصلاة وأتم السلام. وجاءت الردود باعتراف الكاتب من المتخصصين في علوم الدين، وفيها إرشاد وتوجيه إلى ذكر الصواب، ودعوة الكاتب إلى إعلانه على القراء ، حتى لا يقع الناس في لبس من الأمر، وتظهر أمامهم الصورة الحقيقية في هذا الشأن، إلا أن الكاتب استمر في مغالطاته ولم ينقطع عن نشر شبهاته، بل وصل به الأمر أن يخرج المقالات المذكورة في كتاب منشور عـن أكبر دار للنشر في مصر وهي: "مؤسسة أخبار اليوم". حتى يبقي ما كتبه على اعتبار أنه حقائق لا أباطيل، وثوابت لا تطير ، فتصفحت الكتاب فلم أر فيه حـذفاً، ولا تبـديلاً، ولا تغـييراً، ولا تصحيحاً، لما كتبه في الصحافة بعدما جاءه النصح، والتوجيه، بل هو كما هو ، بمعالمه الواضـحة والمتضمنة: إنكاراً للشفاعة، واستهزاءً بالمسلمين، على اعتبار أنهم اتكالية – على حد تعبيره – لا يعملون ، ولشفاعة رسول الله ينتظرون، ثم استهزاءً بالعلماء والمتخصصين، وتأويلاً باطلاً لآيـات الكتاب الحكيم، وإنكاراً للسنة الثابتة عن خير المرسلين في هذا الشأن، وتطاول على القمم مـن الرواة والمحدثين ، واتهاماً للإمام البخاري – رضي الله عنه – صاحب الجامع الصحيح بأنه مزيف، وملفق ومن الكاذبين ، ! أما كتابه الجامع الصحيح، فهو ليس عند الكاتب إلا جامع لدسائس بني إسرائيل، وما هو عنده بصحيح بل جله تلفيق وتزوير ، وسيحاسب الله البخاري – كمـا يـرى الكاتب – على تلفيقه في الدين[1].

ثم يدعي الكاتب بعدما رفض كل الأحاديث المتواترة في عقيدة الشفاعة عند المسـلمين، بأنه لم ينكر السنة، ولم ينكر الشفاعة، بل ما قاله هو الصحيح، والعلماء معه من أمثال ابن تيميـة وغيره من المؤيدين، ثم يختم كتابه بدعوة القراء إلى تحكيم العقل في الشفاعة لا الدين، وألا يرتضوا ما كتبه الرواة المزيفين ، – عنده – لأن كتابتهم كانت من أجل إرضاء السلاطين وليس لوجه الله رب العالمين.!

---

[1] سيأتي كلامه مفصلاً في ذلك – إن شاء الله تعالى – وسأنقله بأرقام صفحاته. – والله المستعان –

كل هذا وغيره تعرض له الكاتب في كتابه الذي أسماه " الشفاعة محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين" وهذه المحاولة توحي للقارىء بأن الباحث باحثٌ عن الحق وسيؤيده سواء وجده عن المؤيدين أو العارضين، إلا أن الملاحظ أن الكاتب من أول سطر في كتابه انحاز انحيازاً ظاهراً إلى جبهة المعارضين بلا حق ولا دليل إلا ادعاؤه أنه يريد تجديداً للفكر الإسلامي تجاه المسائل العقيدية ، والتجديد يعني كما نعلم الإتيان بشيء جديد مفيد إلا أن المتصفح لجميع صفحات الكتاب لا يرى أن هناك جديداً أضافه الكاتب في موضوع الشفاعة إلا وضع صورته هو على غلاف الكتاب فقط ، أما جل ما في الكتاب من أفكار فهي منقولة نقلاً كاملا بدون حذف أو تبديل من عند الخوارج والمعتزلة، ومن انتصر لهم في العصر الحديث من المستشرقين ، والحذافيين ، والعلمانيين وغيرهم، فلا جديد في البحث ولا تجديد ، بل هدم لمعتقدات المسلمين في أمور الآخرة ومنها معتقد الشفاعة. وجعل الرجل سلفه في ذلك هؤلاء واستخدم في الحكم على الشفاعة منهجهم العقلي البعيد عن كتاب الله وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – لذلك رأينا الرجل قد فضح نفسه وبين للناس أنه قصير القامة في التعرف على المسائل الدينية وكنا نود أن يقف في ظل آراء العلماء المتخصصين وأقوالهم ساعة أن يتعرض لهذه الأمور، حتى لا تأخذه ضربة شمس أو يصاب بإنفلونزا الفكر فيتعدى مرضه للآخرين، ويلحق الضرر بالبسطاء من المثقفين، أما وأن الرجل قد فعل فعلته وقدم كتابه ولم يحصن نفسه من الجراثيم الفكرية، وهو رجل معروف وله قراء ومعجبون بكلامه، وبه قد يتأثرون، فيقعون في شبهاته ومغالطاته، فقد استعنت بالله تعالى على أن أشارك الأخوة الناصحين له من الأساتذة والعلماء والباحثين في المناصحة والمكاشفة عن دلائل ثبوت معتقد الشفاعة لخير المرسلين عليه من الله أفضل صلاة وأتم تسليم، وأن أقدم الدلائل والبراهين للقراء على أن هذا المعتقد أجمعت عليه الأمة وتواترت في شأنه آيات الكتاب المبين وأحاديث الصادق الأمين وهو تشريف وتكريم لهذه الأمة ولخير المرسلين. فأخرجت هذا البحث بعون من الله تعالى في مقدمة وفصلين وقد جاء:

الفصل الأول : بعنوان الشفاعة وأدلة ثبوتها في الإسلام .

وقسمته إلى أربعة مباحث:

⇦ **المبحث الأول** : جاء عن مفهوم الشفاعة في اللغة والاصطلاح وإثبات لفظ الشفاعة في القرآن الكريم ضربت أمثلة عديدة لإثبات ذلك.

⇦ **المبحث الثاني** : عن الشفاعة في الأمور الدنيوية، وأنواعها، وأدلة ثبوتها في الكتاب والسنة والفرق بينها بين الشفاعة في الآخرة.

⇦ **المبحث الثالث** : تحدثت فيه عن الشفاعة في الآخرة، وأدلة ثبوتها .

وقسمته إلى ثلاثة مطالب.

المطلب الأول : عن الشفاعة الثابتة وضوابطها والفرق بينها وبين الشفاعة المنفية في الإسلام.

المطلب الثاني : أصحاب الشفاعات الثابتة، وأنواعها، وفيه حديث عن أول شفيع وهو رسول الله ﷺ وأنواع شفاعاته، ثم الشفاعات لغيررسول الله ﷺ .

المطلب الثالث : ففيه حديث عن أسباب حصول الشفاعات في الآخرة.

المبحث الرابع : فقد جاء عن مذهب الخوارج والمعتزلة في الشفاعة ومنهجهم في ذلك ورد أهل السنة عليهم.

أما الفصل الثاني : فعن موقف الدكتور مصطفى محمود من الشفاعة .

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول : عرض عام لأقوال الدكتور مصطفى محمود في إنكار الشفاعة وأدلته على ذلك .

المبحث الثاني : ففيه تفنيد للدلائل التي ساقها الدكتور مصطفى محمود في إنكار الشفاعة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تفنيد الدلائل النقلية، .

المطلب الثاني : في تفنيد الدلائل العقلية التي ظن أنها تؤيده.

أما المبحث الثالث : فعن موقف الدكتور مصطفى محمود من السنة المطهرة الصحيحة التي أكدت على ثبوت الشفاعة وإنكاره لها ومناقشته في ذلك.

وفيه تمهيد وخمسة مطالب :

أما التمهيد : فعن مفهوم السنة ومكانتها عند المسلمين

أما المطلب الأول: فعن مغالطة الدكتور حول عدم الأخذ بالأحاديث المتواترة في الشفاعة والرد عليها.

والمطلب الثاني : ففي زعمه تعارض السنة مع القرآن الكريم في مسألة الشفاعة ، ومناقشته في ذلك وتفنيد آراءه.

والمطلب الثالث: فعن زعمه عدم حفظ الله تبارك وتعالى للسنة، ووجوب الاعتماد على القرآن وحده، وتفنيد ما ذهب إليه في هذه المسألة.

☜ **أما المطلب الرابع** : فعن موقف الدكتور من كتابة السنة ، وتدوينها، وإثبات الحقائق التاريخية في هذا الشأن.

☜ **أما المطلب الخامس** : فقد كان رداً على زعم الدكتور مصطفى محمود بأنه لم ينكر الشفاعة ولا السنة وإثبات بطلان هذا الزعم من خلال أمثلة واضحة، وغير خفية.

⇦ **ثم جاء المبحث الرابع** : بعنوان موقف الدكتور مصطفى محمود من الإمام البخاري وقد فندت أقواله التي سخر من خلالها بأمير المؤمنين في السنة الإمام البخاري وفندت آراءه وبينت أقوال العلماء في الإمام البخاري ومنزلته عندهم ومكانة كتابه عند المسلمين.

⇦ **أما المبحث الخامس** : فقد كان رداً على دعوى الدكتور مصطفى محمود بأن علماء الأمة قد أيدوه فيما ذهب إليه، من أقوال، ووقفوا نفس موقفه، وقد فندت هذه الدعوى، وأتيت على أقواله وأثبت بالأدلة والبراهين أن علماء الأمة المعتبرين لم يقولوا قوله، ولم يذهبوا مذهبه على الإطلاق، ثم ختمت البحث بسرد لأقوال هؤلاء العلماء في إثبات الشفاعة، وبيان موقفهم ممن ينكرها.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم ، وأن يحشرنا في زمرة خير المرسلين، وأن يجعله شافعاً لنا يوم الدين، وأن يسقينا بيده الشريفة شربة ماء لا نظمأ بعدها أبداً يوم الزحام ، وأن يحشرنا مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، وأن يرد الدكتور مصطفى محمود إلى الحق، وكل الضالين، اللهم آمين ... وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّاب ﴾[1]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د/ عبد المنعم فؤاد محمود عثمان

[1] سورة آل عمران آية ٨

الفصل الأول
الشفاعة
وأدلة ثبوتها في الإسلام

الفصل الأول

الشفاعة وأدلة ثبوتها في الإسلام

قبل الدخول في مناقشة الدكتور مصطفى محمود في إنكاره للشفاعة يحسن أن نعرف بالشفاعة عند اللغويين، وفي اصطلاح الباحثين ثم نعطي فكرة عن ثبوت لفظ شفع وشفاعة في القرآن الكريم. ثم بيان أقسام الشفاعة في الإسلام وضوابطها حتى يكون القارئ على بينة من حقيقة معتقد المسلمين في الشفاعة ، وهاك تفصيل لما أقول:

المبحث الأول

أولاً: مفهوم الشفاعة عند اللغويين :

تقول كتب اللغة : الشفع ضد الوتر يقال كان وتراً فشفعه شفعا ... ويقال ناقة شفوع ، وهي التي تجمع بين محلبين – بفتح الميم والباء ـــ في حلبة واحدة. (وتشفع إلى فلان فشفعه فيه تشفيعاً)[1] .

ويذكر الأصفهاني أن الشفاعة هي : الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه ، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى منه حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى منه[2] .

وفي لسان العرب : شفع يشفع شفاعة إذا طلب، واستشفعه طلب منه الشفاعة – أي قال له كن لي شفيعا – فإن استجاب له سمي شافعاً[3] .

ثانيا الشفاعة في اصطلاح الباحثين :

الشفاعة في تعريفها الاصطلاحي عند الباحثين هي: سؤال الخير للغير.[4]، وقيل هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم[5] ، وقيل هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة[6].

ويبدو أن التعريف الأخير أوسع من سابقيه، وأجود إذ الأول يحصر طلب الشفاعة في جلب المصالح ، والثاني يحصره في درء المفاسد، بينما الثالث يشمل الأمرين معاً فتراه يتعلق بأحدهما تارة، وبالآخر تارة أخرى وهذا التوسط أو التشفع يكون في الإسلام في أمور الدنيا والآخرة.

(١ انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس جـ٣ صـ ٢١٠، ومختار الصحاح للجوهري صـ ١٢٣٨ .

(٢) المفردات في غريب القرآن صـ ٢٦٣ للراغب الأصفهاني .

(٣) انظر لسان العرب لابن منظور جـ ٨ صـ١٨٢ ، صـ١٨٣

(٤) انظر شرح العقيدة الإسفرانية جـ٢ صـ٢٠٤

(٥) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير جـ٢ صـ٤٨٥

(٦) لمعة الاعتقاد لابن المقدسي صـ١٢٨ شرح الشيخ محمد بن عثيمين .

ثالثا: ثبوت التشفع أو الشفاعة في سور القرآن الكريم :

هذا وقد ورد لفظ شفع، وما تصرف منه في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة، في ست وعشرين آية.(١)

منها آية واحدة كانت خاصة بذكر لفظ الشفاعة بين الناس في الدنيا فقط، وهي قوله تعالى من سورة النساء: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ .(٢)

آية واحدة لا صلة لها بموضوع الشفاعة لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهي آية سورة الفجر: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾.(٣)

ولكن ذكر لفظ الشفع في مقابل الوتر.(٤) وبقية الآيات جاءت عن الشفاعات في الآخرة ومنها:

آية واحدة تنفي الشفاعة مطلقا دون قيد أو استثناء وهي آية عامة تحمل على غيرها من آيات مقيدة كما سنوضح فيما بعد إن شاء الله تعالى – وهي قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .(٥)

ومنها آية واحدة تثبت الشفاعة لله عز وجل وحده دون أي استثناء وهي من سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٦)

ومنها ثلاث عشرة آية تنفي الشفاعة عن أقوام بعينهم وهم المشركون، والكافرون، واليهود، والنصارى، وبقية المجرمين وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء، ظانين أنهم يشفعون لهم عند الله عز وجل حيث قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾(٧) وهذه الآيات مبثوثة في

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم صـ٣٨٤

(٢) سورة النساء آية ٨٥ – وأنت تلحظ أن لفظ يشفع وشفاعة ذكر في الآية أربع مرات .

(٣) آية ٣ – من سورة الفجر .

(٤) حيث قيل الشفع الزوج، والوتر الله عز وجل، وقيل الوتر يوم عرفه، والشفع يوم النحر، وقيل الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. للمزيد راجع تفسير بن كثير جـ٤ صـ٥١٩، ٥٢٠ .

(٥) آية ٢٥٤ من سورة البقرة .

(٦) آية ٤٤ من سورة الزمر .

(٧) آية ٣ سورة الزمر .

كل من سور البقرة[1]، والأنعام، والأعراف[2]، ويونس[3]، والشعراء[4]، والروم[5]، والسجدة[6]، وياسين[7]، والزمر[8]، وغافر[9]، والمدثر[10]، وكلها تؤكد أن هؤلاء لا شفاعة لهم أصلا لأنهم ليسوا من أهل التوحيد، والإخلاص، فما تنفعهم شفاعة الشافعين[11]

ومنها تسع آيات تثبت الشفاعة بشروط وقيود واستثناءات ومنها قوله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ في سورة البقرة[12] وكذلك في كل من سور يونس[13]، ومريم[14]، وطه[15]، وسبأ[16]، والزخرف[17]، والنجم[18]، وغير ذلك مما سنوضحه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ولكن - بعد هذا الاستقصاء - يمكننا القول بأن موضوع الشفاعة في القرآن الكريم موضوع هام وقد احتفت به الآيات القرآنية -كما رأينا- وكذلك السنة المطهرة كما سيأتي.

وهو في الإسلام قسمان شفاعة دنيوية وشفاعة أخروية ولكل منهما أيضا أقسام وضوابط ومعايير كما رأينا في الآيات السابقة، وإن كان موضوعنا الرئيس هو الحديث عن الشفاعة في الآخرة والتي أنكرها الدكتور مصطفى محمود إلا أنه يحسن بنا أن نعطي لمحة سريعة عن القسم الأول وهو الشفاعة الدنيوية وأقسامها، ثم نوضح ونفصل القول عن الشفاعة في الآخرة حتى يتضح أمام الجميع أن الإسلام لم يترك شيئا من أمور الدنيا والآخرة إلا وفصل القول فيه ووضحه.

---

(١) آية ٨٤.
(٢) آية ٥٣
(٣) آية ١٨
(٤) آية ١٠٠
(٥) آية ١٣
(٦) آية ٤
(٧) آية ٢٣
(٨) آية ٤٣
(٩) آية ١٨
(١٠) آية ٤٨
(١١) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام بن تيمية جـ١ صـ ١٣٠
(١٢) آية ٢٥٥
(١٣) آية ٣
(١٤) آية ٨٧
(١٥) آية ١٠٩
(١٦) آية ٢٣
(١٧) آية ٨٦
(١٨) آية ٢٦

المبحث الثاني
الشفاعة في الأمور الدنيوية
وأدلة ثبوتها من الكتاب والسنة

المراد بالشفاعة في أمور الدنيا: التوسط لدى أصحاب الجاه والسلطان ونحوهم، والمقصد منه قضاء حوائج الآخرين سواء أكان ذلك بجلب مصلحة لهم، أو دفع مضرة عنهم، ونحو ذلك[1]، - كما علمنا آنفاً - وهذا مشهور، ومعروف بين الناس، ونراه صباحاً، ومساءً في شتى المصالح الدنيوية، والشفاعة في هذا الشأن في الإسلام نوعان : شفاعة حسنة، ومحمودة ، وشفاعة سيئة ومذمومة .

أما الشفاعة الحسنة المحمودة :

فهي أن يشفع شافع لشخص يستحق الشفاعة فيتحقق له أمراً مشروعاً له، وإن لم يكن له حقاً كما لو كان على المرء دين محدد بموعد، ولم يستطع سداده في وقته لظروف ألمت به خارجة عن إرادته كخسارة وقعت في تجارة أو أصابه سيل ذهب بماله أو جائحة اجتاحت بيته .... الخ ، وإن لم يسدد في الموعد وقعت عليه عقوبة الحبس أو الغرامة أو خلاف ذلك، وكان هذا الشخص معروفا بأمانته، وصدقه، وأخلاقه العالية فهنا تكون الشفاعة محمودة[2] وكذلك تكون حسنة ومحمودة إذا حاول الشافع أن يجمع لشخص ما عملاً شريفاً يساعده في معيشته، أو يدخل طالب علم في تخصص ما، يعلم الشافع أنه أهلا له، أو يثبت حقا لإنسان كاد أن يضيع منه ، ويدرأ عنه مظلمة كادت أن تلم به، فكل هذه الشفاعات تكون محمودة، ومقبولة، وحسنة لأنها لا يترتب عليها إقرار باطل، أو ضياع حقوق الآخرين، بل هي من باب التعاون على البر، والتقوى .

أما الشفاعة السيئة والمذمومة :

فهي التي يترتب عليها إقرار باطل، أو ضياع حقوق الآخرين من ذوي الكفاءة، والخبرة، وإحلال من لا يستحق مرتبتهم غيرهم، وتكون أيضا من شخص يحاول أن يسقط حداً من حدود الله عز وجل أو نحو ذلك فهذه شفاعة مذمومة، ومرذولة ولم يدع الإسلام إليها، بل دعا إلى الشفاعة الحسنة التي يرتضيها الخلائق وتثبت الحقوق، ولا تسيء إلى المجتمع.

---

(١) لمعة الاعتقاد لابن المقدسي صـــــ١٢٨

(٢) الشفاعة في الآخرة بين العقل والنقل صـــــ٦ د/يوسف القرضاوي

الأدلة من الكتاب ، والسنة على الشفاعة الدنيوية:

وعلى الوساطة أو الشفاعة الحسنة في الشئون الدنيوية. جاء في الكتاب العزيز قوله عز وجل: كما ذكرنا من قبل- من سورة النساء: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ (١)

وفي تفسير هذه الآية يقول الإمام بن كثير -رحمه الله-: من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها - أي : من يسعى في أمر يترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك ، (ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منه ا) أي: يكن عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه، ونيته. ويقول مجاهد: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض ... (وكان الله على كل شيء مقيتا) أي: حفيظاً، وفي رواية شهيداً ، وقيل: حسيبا لكل إنسان بحسب عمله. (٢)

ويؤكد الشيخ السعدي - رحمه الله - على صحة هذا التفسير قائلاً: المراد بالشفاعة - في الآية - المعاونة على أمر من الأمور فمن شفع غيره، وقام معه على أمر من أمور الخير، ومنه الشفاعة للمظلومين ... كان له نصيب من شفاعته بحسب سعيه، وعمله، ونفعه ... ومن عاون غيره على أمر الشر كان عليه كفلٌ أي نصيب من الإثم بحسب ما قام به. (٣)

وفي السنة المطهرة : تزاحمت الأحاديث للتدليل على الشفاعة الحسنة ، والنهي عن الشفاعة السيئة .

فعن الشفاعة الحسنة جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال: اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء (٤)

وعن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما- قال اشفعوا تؤجروا فإني لأريد الأمر فأؤخره كيما تشفعوا فتؤجروا، فإن رسول الله ﷺ قال: (اشفعوا تؤجروا) (٥) .

لذلك كانت الشفاعة الحسنة مصدر خير للشافع والمشفوع له لأن كليهما سيصيبه الخير إذ الشافع يأخذ أجراً بنص كلام النبي ﷺ، والمشفوع له ستقضى حاجته ويجني منها الخير فمن يشفع لينفع فله نصيبٌ، ليس هذا فحسب بل ثبت أن الدعاء بين المسلمين في الدنيا من الشفاعة الحسنة (٦) .

---

(١) آية ٨٥ سورة النساء

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام بن كثير جـ١ صـ٥٧١

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان صـ١١٩ عبد الرحمن السعدي

(٤) صحيح البخاري جـ٢ صـ١٨ ومسلم جـ٤ صـ٢٠٢٦ واللفظ للبخاري

(٥) رواه أبو داود جـ٥ صـ٥٨ وأحمد في مسنده جـ٥ صـ٤١٣

(٦) راجع الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي جـ٣ صـ١٨٦٥ تفسير الآية ٨٥ من سورة النساء

ورد ذلك عن رسول الله ﷺ حين قال: (ما من عبد يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل)[1]

ويعد هذا الدعاء من أسباب التآلف والتحاب بين المسلمين، لذلك على المسلم أن يدعو لأخيه برفع البلاء وكشف الضر، والشفاء، وهذا الدعاء شفاعة. ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يطلبون الدعاء من رسول الله ﷺ في حياته، أورد ذلك الإمام البخاري من حديث بن عباس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: (عرضت عليَّ الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر ... فنظرت فإذا سواد كثير قلت يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن أنظر إلى الأفق فإذا سواد كثير. قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عقاب، قلت ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم (فقال اللهم اجعله منهم) ثم قام إليه رجل آخر قال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال : (سبقك بها عكاشة)[2].

كذلك ورد حديث عن المرأة التي أتت النبي ﷺ قائلةً إني أُصرع ، وإني أتكشف فادع الله لي . قال : إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت أن يعافيك. فقالت: أصبر، ثم قالت: إني أتكشف فادع الله ألا أتكشف ، فدعا لها.[3] ليس هذا فحسب بل إن النبي ﷺ بكل قدره ، ومنزلته كان يطلب الدعاء من أصحابه ــ رضوان الله عليهم ــ فقد صح عنه ، عليه الصلاة ، والسلام أنه قال لعمر ــ رضي الله عنه ــ لما خرج معتمراً (لا تنسنا من دعائك يا أخي)[4] .

وهذا يعني أنه يصح أن يطلب الفاضل الدعاء من المفضول، بل إن ذلك لو فعله المسلمون بعضهم مع بعض لزادت المحبة بينهم، وترابطت قلوبهم، ولرفع الله عنهم البلاء والحزن لأن الدعاء إذا تقبله الله عز وجل من مسلم لأخيه المسلم لكان سببا في الشفاء ورفع الأمراض وهذا هو عين الشفاعة الحسنة أو جزء منها على الأقل. ولأحاديث في الشفاعة الحسنة كثيرة في السنة المطهرة فلا نطيل بإيرادها.

أما الشفاعة السيئة : وهي التي يترتب عليها إقرار باطل أو ضياع حق الخ، فما ورد فيها كثير أيضاً إذ هي تعاون على الإثم والعدوان وفيها ضرر بالأمم والأفراد، وقد منع النبي ﷺ هذه الشفاعة ودعا إلى اجتنابها، فها هي قريش ــ كما جاء في الصحيحين ــ يهمهما أمر المرأة المخزومية التي سرقت وحكم النبي ﷺ بإقامة الحد عليها، تطلب من أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، أن يشفع فيها أمام المصطفى ليسقط عنها الحد فكلمه أسامة ، فقال النبي الأكرم عليه الصلاة

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء باب فضل الدعاء بظهر الغيب.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق جـ٧ صـ١٩٨، ١٩٩ ومسلم في كتابه الإيمان رقم (٣٧٤)

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب جـ٧/٤ ومسلم في كتاب البر. والصلة والآداب رقم (٢٥٧٦)

(٤) انظر سنن أبي داود كتاب الوتر باب الدعاء جـ٢ صـ٨٠ برقم ١٤٩٨ وأحمد في المسند جـ١ صـ٢٩

والسلام : (أتشفع في حد من حدود الله ؟) ثم قام فخطب فقال : (يا أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[1] .

الله أكبر ، إنها العدالة في قمتها ، والنبوة في حقيقتها، لا محاباة ولا مجاملة ، ولا ضياع للحقوق ، ولا إسقاط للحدود ، فلو قبل النبي شفاعة أسامة لاهتزت أركان العدالة ، وسادت الفوضى وضاع الأمن والأمان ، ولكن رسول الحق يقسم ، ويرفع صوته بكلمة مدوية : وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، هل سمع الظالمون ذلك، هل فطن أصحاب الشفاعات السيئة إلى كلام البشير النذير صاحب الكرم والخلق العظيم الذي لا يقبل أن تضيع الحقوق بشفاعة يترتب عليها إثم عظيم.

إن هذا القول العظيم يجب أن يكتب بماء الذهب، ويصدر إلى أقطار الأرض كلها ليرى المتشدقون بالديمقراطية والحرية وبشعارات العدالة والمساواة الزائفة في العالم الآن. أين هي العدالة الصادقة؟ إنه نبي الإسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان هو وحده الذي دعا إليها بصدق، وأقسم أمام أهل مكة أنه أول من يطبقها حتى وإن كان ذلك يتضمن قطع يد الزهراء ابنته الطاهرة العفيفة إن سرقت، فلا محاباة ولا مجاملة، ولا شفاعات في غير الحق.

سيدي يا رسول الله :

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت ما لم تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادراً، ومقدرا	لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب	هذان في الدنيا هم الرحماء
وإذا غضبت فإنما هي غضبةٌ	للحق لا ضغن ولا بغضاء
وإذا قضيت فلا ارتياب كأنما	جاء الخصوم من السماء قضاء
يا أيها الأمي حسبك رتبة	في العلم أن ذانت بك العلماء[2]

إن هذا الحديث الكريم الذي قاله ذلك الأمي العظيم والذي أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما ليدل دلالة قاطعة إلى رفض الشفاعة التي يترتب عليها ضياع الحقوق، لأنها تعني طلب ما ليس بجائز حتى وإن طلبها أحد الوجهاء، أو أقرب الأقرباء، خاصة في الحدود إذا رفعت للسلطان أو من ينوب منابه ، ولهذا ترجم لبخاري – رحمه الله– لهذا الحديث بقوله: (باب كراهية الشفاعة في الحود إذا رفعت للسلطان).

---

(١) البخاري كتابه الحدود جـ٧ صـ١٦، وصحيح مسلم جـ٣ صـ١٣١٥ واللفظ للبخري.

(٢) الشوقيات لأمير الشعراء أحمد شوقي –الهمزية النبوية صـ٣٠ مراجعة. د/يوسف الشيخ البقاعي دار الكتاب العربي.

وهذا حق لأنه يلتقي مع قولـه تعـالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

أي من قبل أن تصل إلى الحاكم فإن وصل الأمر إليه فلا شفاعة، بل من يفعل ذلك فقد سعى فيما ليس بجائز.

وها هو الإمام مالك رحمه الله يورد عن الزبير بن العوام أنه لقي رجلاً قد أخذ سارقاً وهو يريد أن يذهب به إلى السلطان .. فشفع له الزبير حتى يرسله الرجل ، ويتركه – فقال الرجل : لا . حتى أبلغ السلطان . فقال الزبير : إذا بلغت السلطان فلعن الله الشافع والمشفع (٢) .

وفي رواية أخرى سئل الزبير ـــ رضي الله عنه ـــ بالقول: يا أبا عبد الله تشفع للسارق . قال نعم لا بأس به ما لم يؤت به الإمام فإذا أوتي به الإمام فلا عفا الله عنه إن عفا (٣) .

لذلك ذكر ابن حجر ـــ رحمه الله ـــ عن بن عبد البر ـــ رحمه الله ـــ أنه قال : لا أعلم خلافاً أن الشفاعة في ذوي الذنوب حسنة جميلة ، ما لم تبلغ السلطان ، وإن على السلطان أن يقيمها إذا بلغته (٤) .

وهذا لا يعني أن الشفاعة تجوز قبل أن يصل الأمر للسلطان لكل شخص ارتكب إثماً ، لا: بل لابد أن يفرق بين من عرف بأذى الناس، ومن لم يعرف ، فمن كان دأبه إيذاء الناس وأكل حقوقهم فلا يشفع له مطلقا كما يقول الإمام مالك ـــ رحمه الله ـــ سواء بلغ أمره الإمام أم لم يبلغ، وأما من لم يعرف بذلك فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام(٥).

على أن يفاوض صاحب الحق، ويقبل الشفاعة، كما رأينا مع الزبير ـــ رضي الله عنه ـــ كيف سعى في مفاوضة الرجل –صاحب الحق– قبل أن يذهب للسلطان، فإن قَبِلَ فلا بأس وشفاعته تكون حسنة ، وإلا فشفاعته تكون مذمومة ، وغير جائزة.

تلك هي نبذة سريعة ، ولمحة موجزة عن الشفاعة في الأمور الدنيوية وأنواعها ، وقد رأيت أن أقدم بها حتى لا تختلط الأمور بين الشفاعة في الدنيا ، والشفاعة في الآخرة ، وإلا فالمقصود هو الحديث عن الشفاعة وثبوتها في الآخرة وما قيل حولها وهو مقصد حديثنا في المبحث التالي إن شاء الله، والله الموفق.

---

(١) آية ٣٤ من سورة المائدة .
(٢) الموطأ جـ٣ صـ٤٩ وانظر تفسير بن كثير جـ٢ صـ٥٦ .
(٣) أخرجه البيهقي جـ٨ صـ٣٢٣ .
(٤) فتح الباري .. جـ١٢ صـ٩٥ .
(٥) انظر السابق جـ١٢ صـ٩٥ .

المبحث الثالث

ثبوت الشفاعة في الآخرة وضوابطها

الشفاعة في الآخرة أمر ثابت عن طريق الكتاب والسنة، وقد اتفق على ذلك أهل السنة والجماعة، ولا يعني ثبوتها أنها كلاً مباحاً يفعله كل من شاء متى شاء، وكيف شاء، ولكنها منضبطة بشروطها، ومجالها، وأهلها، وهذا ما يجب أن نؤكده حيث إن هناك من ينكر الشفاعة في الآخرة قياسا على وساطات وشفاعات الدنيا[1] التي لا ينضبط أصحابها بالضوابط الإسلامية فيطلبون ما ليس بجائز -كما أسلفنا الذكر- وهذا القياس غير حقيقي بالمرة إذ الإسلام بين شفاعات الدنيا والآخرة، والضوابط التي تجعل الشفاعة مقبولة - كما ذكرت في شأن الدنيا- وفي الآخرة أيضا ضوابط وعناصر يجب أن تتوفر في الشافع والمشفوع له، والمشفوع فيه.

المطلب الأول

شروط وضوابط الشفاعة في الآخرة

أ ـ فالشافع لابد أن يكون من أهل القبول عند الله عز وجل: وأن يرتضي قوله، ويعطيه الإذن بالشفاعة لمنزلته التي وضعها له سبحانه، وتعالى. لأنه هو مالك الشفاعة وحده ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾[2] فليس لأحد سلطان عليه -جل في علاه فهو صاحب السلطان، والأمر كله ((لله الأمر من قبل ومن بعد))[3] وهذا ثابت في كتاب الله القائل فيه سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾[4] وفي موضع آخر يقول سبحانه ((ما من شفيع إلا من بعد إذنه))[5] كما يقول جل شأنه ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ يقول عز جاهه ((وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى))[6] وعليه فكل شفاعة لابد أن يأذن بها الله عز وجل وأن يكون الشافع مقبولا، ومرضياً عنه، وهذا يكون

---

(١) كما فعل د/مصطفى محمود والذي سنتافي أقواله فيما بعد إن شاء الله

(٢) آية ٤٤ من سورة الزمر

(٣) سورة الروم

(٤) آية ١٠٩ من سورة طه

(٥) آية ٢٨ من سورة يونس

(٦) آية ٢٥٥ من سورة البقرة

للملائكة والأنبياء والصالحين، ولا يملك أحد أن يشفع لأحد بذاته أياً كان مقامه ملكاً أو نبيا إلا بأمر من الله الملك القهار فهو وحده صاحب الملك المطلق في ذلك اليوم ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1] .

ب ــ أن يرضى الله تعالى عن المشفوع له: فضابط الرضا من الحق سبحانه، أمر لابد منه إذ ليس كل امرئ قابلاً لأن يشفع له، وقد أكد على ذلك الحق سبحانه قال جل شأنه: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[2] ولا يرتضي الحق سبحانه الشفاعة إلا لمن يستحقها، وفق عدله سبحانه، ورحمته.

ج ــ أن يكون المرضي عنه ممن تشملهم دائرة الشفاعة: وهؤلاء هم أمة محمد ﷺ أهل التوحيد، فهم وحدهم الذين يدخلون في دائرة الشفاعة، وهذا معروف بطبيعة الحال، إذ لا يتصور من الملائكة الكرام، أو النبيين أو الشهداء أو الصالحين أن يطلبوا الشفاعة من الله سبحانه لأناس غير الموحدين الذين ارتضى لهم الإسلام دينا. فالموحدون هم الذين يجب أن يسعدوا بالشفاعة، قال ذلك رسول الله ﷺ حينما سأله أبوهريرة ــ رضي الله عنه ــ عن أسعد الناس يوم القيامة، فقال: كما جاء في صحيح البخاري: (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه)[3] . وفي صحيح مسلم يقول ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ : (لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً)[4] وفي موقع آخر من كتب السنن يعلن النبي ﷺ أمام سامعيه أن شفاعته عليه الصلاة والسلام لأهل التوحيد والإيمان ثابتة، ولا شك فيها، فيقول عليه الصلاة والسلام: (فإني أشهد من حضر أن شفاعتي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتي)[5] وفي رواية أخرى (قلنا يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا من أهلها قال هي لكل مسلم)[6] .

---

(١) آية ١٦ من سورة غافر

(٢) آية ٢٨ من سورة الأنبياء

(٣) باب الحرص على الحديث – من كتاب العلم مختصر صحيح البخاري صـ٣٥

(٤) صحيح مسلم جـ١ صـ١٨٩

(٥) سنن الترمذي جـ١ صـ٦٢٧، ومسند الإمام أحمد جـ٦ صـ٢٨ وانظر الأخرى في كتاب الشريعة صـ٣٤٢، وابن أبي عاصم في السنة جـ٢ صـ٣٨٩ والحاكم في المستدرك جـ١ صـ٦٧ .

(٦) أخرجه بن ماجة في سننه جـ٢ صـ١٤٤٤ كتاب الزهد والاجرى في الشريعة صـ٣٤٣ ، والحاكم في المستدرك جـ١ صـ١٥ وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

وعلى ضوء ذلك يتبين أمامنا أن الشفاعة ثابتة في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لأهل التوحيد المسلمين الذين صدقوا بالنبي الكريم ويشترط لمن يقوم بها أن يؤذن له الله عز وجل، ويرضى عنه، كما يُشترط الرضا عن المشفوع فيه، فيكون أصحابها من أهل الإيمان والتوحيد وإن كانوا قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فعسى الله أن يعفو عنهم، ويشفع فيهم خير الخلق وحبيب الحق علية الصلاة وأتم السلام.

الشفاعة المنفية :

أما غيرهم من أهل الكفر والجحود، والظالمين والمجرمين فالشفاعة عنهم يوم القيامة منفية، إذ الحق سبحانه لا يأذن للجاحدين أو من يعبد من دونه بالشفاعة.

قال سبحانه: ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾[1] .

قال المفسرون: في هذه الآية إثبات للشفاعة لكن لغير الكافرين – فهؤلاء ليس لهم من يشفع لهم ويؤذن له بذلك كما للمؤمنين.

فلا يأخذ الإذن بالشفاعة إلا من كان له عهد عند الله تبارك وتعالى. والعهد كما قال علي بن أبي طلحة عن بن عباس هو: شهادة أن لا إله إلا الله[2] .

وهؤلاء لا يقولون بهذه الشهادة بل يتخذون شركاء لهم من دون الله– يظنون أنهم شفعاء يقربونهم إلى الله عز وجل.

لذلك يستهزئ الله بهم يوم القيامة، وبشركائهم فيقول سبحانه: ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[3] .

وفي هذا إعلام بأن أحداً لا يشفع لأحد إلا بإذن الله فكيف بمن يطلب شفاعة الأصنام التي لا تعقل ولا تنفع ولا تضر في الدنيا، وهي كذلك يوم القيامة![4] .

---

(١) آية ١٦ من سورة مريم

(٢) راجع تفسير الإمام القرطبي جـ٥ صـ٣١٦١ وابن كثير جـ٣ صـ١٣٨

(٣) آية ٩٤ من سورة الأنعام

(٤) راجع القرطبي جـ٤ صـ٢٤٧٩

والمجرمون هم الذين يطلبون هذه الشفاعة وطلبهم مرفوض لأنهم يطلبونها من غير أهلها وهم أنفسهم ليسوا أهلها -ولا يدخلون في دائرتها لإجرامهم وإعراضهم عن دين الله عز وجل لذلك نراهم في الآخرة يصطرخون في النار ويضربون وجوههم وأدبارهم ويتوقون إلى الشفيع الحقيقي المأذون له من الله تعالى فلا يجدونه، ويقولون بكل حسرة ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ ﴾[1] وأنى لهم ذلك، فلو كانوا من أهل الصلاة لجاءهم الشفيع لكنهم اعترفوا بأنفسهم وقالوا ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾[2] .

ولذلك قال تعالى في حقهم ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[3] أبعد كل هذا الإجرام والإعراض عن الصلاة، والزكاة، ومصاحبة أهل الزندقة والإلحاد، الخ. يودون أن يشفع لهم ويخرجوا منها !! لا والله، وما هم بخارجين من النار. وبذلك يتبين أن الشفاعة لابد لها من شروط وضوابط تختص بالشافع فيؤذن له، وبالمشفوع له -فيرضى الله عنه وأن يكون من أهل الإيمان لا من أهل الكفر والإجرام. فالشفاعة الثابتة للمؤمنين والمنفية هي عن الكافرين.

(١) آية ٥٣ من سورة الأعراف

(٢) آية ٤٣ : ٤٩ من سورة المدثر

(٣) آية ٥٠ من سورة المدثر

المطلب الثاني
الشفاعات أصحابها، وأنواعها يوم القيامة

إذا كنا تحدثنا عن الشفاعة الثابتة في القرآن والسنة والشفاعة المنفية يوم القيامة وشروط الشفاعة الثابتة فإن السؤال الذي يطرح نفسه من الذين يؤذن له بالشفاعة يوم القيامة ويرضى الله عنه، وما أنواع الشفاعة التي يقوم بها وما أسباب حصول الشفاعة للمشفوع فيه ، ولنبدأ الحديث عن هذه الشفاعات الثابتة وأول من يتقدم الشفعاء يوم القيامة

أولاً: رسول الله ﷺ أول الشفعاء :

ثبت فيما لا يدع مجالاً للشك أن أول شافع يؤذن له يوم القيامة بالشفاعة أمام أحكم الحاكمين هو رسول رب العالمين، صاحب الخلق الكريم سيد ولد آدم يوم الدين. أعلن ذلك عن نفسه النبي الأمين في حديث صحيح رواه مسلم قال فيه (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة:، وأول شافع وأول مشفّع)[1] .

وجاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، وذكر منها الشفاعة[2] .

وذكر ﷺ منزلته يوم القيامة بجوار النبيين فقال: (إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم، غير فخر)[3] .

عدد شفاعاته ﷺ وأنواعها :

وطبقا لإمامته ﷺ ومنزلته، ووجاهته عند الله ــ سبحانه وتعالى ــ يوم القيامة، تعددت شفاعاته المأذون له بها أمام إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، والملائكة الكرام الطيبين ــ عليه من الله أفضل صلاة وأتم تسليم– لدرجة أنه أذن له بشفاعات لم يؤذن لأحد غيره بها من إخوانه الأنبياء ثم تنوعت شفاعاته بعد ذلك –عليه الصلاة وأتم السلام– وأذن بمثلها لغيره من إخوانه النبيين، وما شاء الله من الملائكة والصديقين.

١) شفاعة النبي ﷺ العظمى أو المقام المحمود :

وأول هذه الشفاعات ــ الشفاعة العظمى والتي تسمى في القرآن الكريم بالمقام المحمود ــ وقد انفرد بها ﷺ دون إخوانه من النبيين ، فهو وحده الذي أذن له الله عز وجل بارتقاء هذا المقام الذي

---

(١) صحيح مسلم جـ٤ صـ١٧٨٢ كتاب الفضائل – باب الفضائل – باب تفضيل نبينا على جميع الخلائق

(٢) صحيح البخاري كتاب التميم جـ ١ صـ٨٦ وصحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة جـ ١ صـ٣٧١

(٣) بن ماجة – الزهد ٤٣١٤

أعطاه ربه إياه ووعده به في كتابه العزيز. قال جل شأنه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (١) .

قال المفسرون في أصح الأقوال هو مقام الشفاعة العامة العظمى لجميع أهل الموقف بمختلف أديانهم حتى يقضي بينهم من أجل أن يريحهم ﷺ من مقامهم ذلك(٢)

وقد دل على ذلك البخاري فيما رواه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ : ... إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد ﷺ فيشفع ليقضي بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم) (٣) .

وفي موضوع آخر يقول بن عمر رضي الله عنهما: (إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً ـ أي جموعاً ـ كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود) (٤)

وفي مسلم والبخاري أيضاً وغيرهما ـحديث طويل عن رسول الله ﷺ يصف فيه أهل الموقف أدق وصف حيث يشتد القلق بهم ويلجمهم العرق فيذهبون إلى آدم ونوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى وكلهم يقول نفسي نفسي إلى أن ينتهوا إلى نبينا ﷺ فيقول أنا لها فتكون هذه الشفاعة للإراحة من هول الموقف.) (٥)

فظهر بهذا أن النبي ﷺ أول من يؤذن له بالشفاعة يوم القيامة لأن الله عز وجل وعده بهذه المرتبة العالية، فيتقدم ويدعوا الله تبارك اسمه ليقضي بين خلقه جميعاً فعندها يفصل الله سبحانه بين الخلائق ويشرع في الحساب(٦) فتظهر مراتب الناس ويتبين أمام الجميع أهل الجنة وأهل النار، ثم تتوالى شفاعات المصطفى ﷺ.

---

(١) آية ٧٩ من سورة الإسراء

(٢) راجع تفسير القرطبي جـ١٠ صـ٣٠٩ وراجع ما قيل حول المقام المحمود في أصول الاعتقاد لإمام اللالكائي في جـ٦ صـ١١١٢ والتوحيد لابن خزيمة جـ٢ صـ ٧٢٤ ، وفتح الباري جـ١٣ صـ٢٥٠

(٣) صحيح البخاري كتاب الزكاة باب من سأل الناس تكثرا جـ٢ صـ١٣٠ وانظر الفتح ج٥ صـ ٢٢٨

(٤) صحيح البخاري كتاب التفسير باب عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا جـ٥ صـ٢٢٨

(٥) انظر صحيح مسلم جـ١ صـ١٨٤ كتاب الإيمان والبخاري جـ٥ صـ٢٢٥ كتاب التفسير باب ذرية من حملنا مع نوح

(٦) أنظر التذكرة للقرطبي صـ ٢٤٥ وفتح الباري جـ١١ وابن ماجة في كتاب الزهد باب الشفاعة

٢) شفاعته ﷺ في إدخال قوم الجنة بغير حساب :

والنبي ﷺ لمنزلته ومقامه عند ربه سبحانه يؤذن له بالتقدم إلى الجنة فيكون أول من يقرع بابها عليه الصلاة والسلام ففي صحيح مسلم قال عليه الصلاة والسلام : (أنا أكثر الأنبياء تبعاً، وأول من يقرع باب الجنة) [١] وفي موضوع آخر يقول ــ صلوات ربي وسلامه عليه ــ : (آت باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فيقول: محمد ، فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك) [٢] .

ولهذه المنزلة يطمع النبي ﷺ في فضل ربه سبحانه أكثر فيطلب من ربه أن يدخل قوم من أمته الجنة بفضله وكرمه بغير حساب فيستجيب له ربه جل في علاه فيعلن ذلك المصطفى ﷺ فرحاً ويقول: (وعدني ربي عز وجل أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم، ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ألفاً ..) [٣] .

وفي موضع آخر يثبت النبي ﷺ أن هذا الفضل في دخول هؤلاء الجنة بغير حساب عن طريق شفاعته ﷺ لم يشاركه أحد من النبيين فيه فهو خاص به وحده ﷺ دون غيره من إخوانه الأنبياء وأن هؤلاء الذين يشفع لهم ويرجو الله من أجلهم كانوا لسنته مطبقين ، وبأقواله عاملين ، وعلى ربهم من المتوكلين لذلك يدافع عنهم ويرجو ربه أن يسابقوا غيرهم من أهل أمته لدخول الجنة. ورد ذلك في الصحيحين عن بن عباس رضي الله عنهما. قال قال النبي ﷺ : (عرضت عليَّ الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة ، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده فنظرت فإذا سواد كثير قلت يا جبريل هؤلاء أمتي! قال لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير قال هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم، ولا عذاب، قلت: ولم ؟ قال كانوا لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال ادع الله أن يجعلني منهم فقال: اللهم اجعله منهم ثم قام إليه رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة)[٤] .

---

(١) مسلم كتاب الإيمان صـ١٨٦ .

(٢) مسلم كتاب الإيمان صـ١٩٧ .

(٣) سنن الترمذي جـ٤ صـ١٩٨ كتاب صفة القيامة ، والإمام أحمد في مسنده جـ٥ صـ٢٨٦ ، وقال الألباني اسناده صحيح. أنظر مشكاة المصابيح للتبريزي جـ٣ صـ١٥٤٢ نقلا عن كتاب الشفاعة عند أهل السنة هامش صـ٥١ د/ناصر الجديع .

(٤) أنظر كتاب الرقاق في صحيح البخاري جـ٧ صـ١٩٩ باب يدخل الجنة سبعون ألفا، وكتاب الإيمان في صحيح مسلم باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب عن أبي هريرة جـ١ صـ١٩٩ وعكاشة هو عكاشة بن محصن الأسدي بتخفيف الكاف وتشديدها الغتان مشهور تاث – أنظر هامش كتاب اكتساب المناعة في إثبات الشفاعة صـ١٧٩ .

نعم هؤلاء هم الذين وعده بهم ربه، فيرى ترجمة هذا الوعد إلى واقع منظور أمام نظره ﷺ فينشرح صدره، ويسر فؤاده لمكانته عند ربه سبحانه، ومكانة أمته، لدرجة أنه يصف لنا وجوه هؤلاء السبعين أجمل وصف، وأعظم تشبيه فيقول ﷺ : (هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر) [1] .

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله، ونسأل الله أن أكون، والقارئين منهم، أو ممن تشملهم شفاعتك يا خير الشفعاء ـ أمام رب العالمين ـ اللهم آمين فنحن المقصرين ولكن رجاءنا في عفو رب العالمين، ثم شفاعة خير المرسلين.

٣) شفاعته ﷺ في زيادة درجات أهل الجنة:

وهذا النوع من الشفاعة ثابت في الصحيحين من رواية أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ لما أصيب عمه أبا عمر في غزوة أوطاس بسهم في ركبته فطلب من ابن أخيه أن يسلم على رسول الله ﷺ ويطلب منه الدعاء والاستغفار لعمه.

فلما جاء أبو موسى لرسول الله ﷺ وأخبره بذلك توضأ النبي ﷺ ثم قال : (اللهم اغفر لعبيد أبي عامر ... اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك) [2] .

وعند مسلم من حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ دعا لأبي سلمة وقال: (اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، وأخلفه في عقبة الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه)[3] .

٤) شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب لمن يستحقه :

وهذه خاصة برسول الله ﷺ لعمه أبي طالب، وليس لغيره من الكفار، وقد ثبت ذلك من خلال الأحاديث الصحيحة المروية عن رسول الله ﷺ . فعن العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال للنبي ﷺ هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك فقال: نعم، هو في ضحضاح[4] من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار).[5]

---

(١) أنظر صحيح البخاري جـ٧ صـ١٩٩، وصحيح مسلم جـ١ صـ١٩٧

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي جـ٥ صـ١٠١ باب غزوة أوطاس وصحيح مسلم جـ٤ صـ١٩٤٣ باب فضائل أبي موسى .

(٣) مسلم جـ٢ صـ٦٣٤ كتاب الجنائز باب اغماض عين الميت والغايرين أي الباقين من ذريته انظر الشفاعة عند أهل السنة صـ١١٦ .

(٤) ضحضاح : مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين فاستعير للنار (النهاية ٣/٧٥) عن الشفاعة صـ٤٧ د/ الجديع

(٥) البخاري جـ٤ صـ٢٤٧ كتاب مناقب الأنصار، ومسلم جـ١ صـ١٩٥ كتاب الإيمان واللفظ لمسلم .

وفي صحيح مسلم عن بن عباس –رضي الله عنهما– أن رسول الله ﷺ قال: (أهون الناس عذاباً يوم القيامة أبا طالب ، وهو منتعل بنعلين، يغلي منهما دماغه)[1] ، وفي موضوع آخر لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار[2] .

ويجب أن نعلم أن هذه الشفاعة التي ينتفع بها عم النبي ﷺ هي شفاعة تخفيف للعذاب فقط، وليس شفاعة إخراج من النار، ولا تتعارض مع قوله تعالى في حق الكفار﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[3] لأن المراد في الآية الإخراج من النار.

وهذا لن يكون بسبب كفره، بينما في الحديث تخفيف للرجل لأنه بالغ في إكرام النبي ﷺ في الدنيا وذب عنه بيده ولسانه فجوزي بذلك.

وكما أشرت هذه عدها الباحثون من خصائص المصطفى ﷺ. وقد أذن له ربه بذلك ﷺ. تطيباً لقلب حبيبه ومصطفاه، وليس لأبي طالب. لأن أبا طالب صار بموته على كفره هباءً منثورا[4]

٥) الشفاعة في أهل الكبائر من أمته ﷺ :

هناك من أمته ﷺ من يدخل النار ، ويستحقها بسبب معصيته، وكبيرته، ولكن بعد استحقاقهم العذاب وكونهم مع ذلك من الموحدين، يؤذن لرسول الله ﷺ بأن يشفع فيهم ويخرجوا من النار ــ وإن كان هناك من ينكر ذلك كما سنذكر ــ إلا أن الأحاديث الصحيحة أثبتت هذا النوع من الشفاعة.

ففي صحيح البخاري عن عمر أن بن قصي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة، يسمون الجهنميين)[5]

وجاء عن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال : (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[6] .

وعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ خيرت بين الشفاعة، أو أن يدخل نصف أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، أترونها للمؤمنين المتقين ، لا. لكنها للمذنبين المتلوثين)[7] .

---

(١) جـ١ صـ١٩٦ كتاب الايمان

(٢) مسلم جـ١ صـ١٩٥ والبخاري جـ٤ صـ٢٤٧

(٣) آية ٤٨ من سورة المدثر

(٤) راجع فتح الباري جـ١١ صـ٤٣١ والفتاوى لابن تيمية جـ١ صـ١٤٤ وشرح الطحاوية صـ١٩٧، والشفاعة عند أهل السنة صـ٤٨

(٥) البخاري جـ٧ صـ٢٠٣ كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار

(٦) حديث صحيح بطرقه وشواهده رواه الإمام أحمد في مسنده جـ٣ صـ٢١٣ وأبو داود عن جابر حديث رقم ١٧٧٤ جـ٣ صـ٢٥٥ .

(٧) مسنج الإمام أحمد جـ٢ صـ٧٥ والبيهقي في كتاب الاعتقاد صـ٢٠٢ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة جـ٦ صـ١١٠٤

وفي موضع آخر يقول عليه الصلاة والسلام لجابر بن عبد الله: من لم يكن من أهل الكبائر فما له، وللشفاعة[1]

ومعلوم أن هذه الشفاعة ليست خاصة بالرسول ﷺ فقط بل هي عامة له ، ولغيره من الشفعاء الذين يؤذن لهم إلا أنه عليه الصلاة والسلام هو المقدم فيها، فلا يشفع أحد من خلق الله تعالى، في مثل ما يشفع فيه المصطفى ﷺ فهو يشفع في خلائق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى[2]، وقد رأينا بعض الأحاديث التي دلت على ذلك من قبل.

ثانيا: الشفاعات الثابتة لغير النبي ﷺ :

١) شفاعة الأنبياء والملائكة والمؤمنون :

ودليل ذلك ما ورد في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- مرفوعاً عن رسول الله ﷺ حين سئل في حديث طويل عن رؤية الرب سبحانه يوم القيامة، وفيه يقول الله عز وجل: (شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيرا قط...) [3]

٢) شفاعة الشهداء :

ورد في ذلك قول النبي ﷺ : (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته) [4] ، وقول آخر جاء فيه عنه ﷺ : (ثم يقال ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا) [5]

وحديث : (للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار ... ويشفع في سبعين من أقاربه) [6] .

٣) شفاعة القرآن الكريم :

ودليل ذلك الحديث الصحيح الذي يقول في ﷺ :اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرءوا الزهراويين: البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيابتان[7]، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما.

---

(١) مسند الطيالسي جـ٣ صـ٢٥٠ حديث رقم ١٧٧٤ وابن ماجة ٤٣١ وابن خزيمة في التوحيد صـ٢٧١

(٢) انظر الشفاعة عند أهل السنة .. صـ٥٦ وللمزيد راجع شرح العقيدة الطحاوية صـ٢٨٢ حيث ذكرت ثمانية أنواع من الشفاعة للنبي ﷺ في الفتاوى جـ٣ صـ١٤٧ ثلاثة أنواع نقلا عن القاضي عياض .

(٣) البخاري جـ ٨ صـ١٨٢ ومسلم جـ١ صـ١٧٠ .

(٤) سنن أبي داود باب الجهاد ٢٥٢٢ .

(٥) مسند أحمد جـ١ صـ٥ .

(٦) سنن الترمذي باب ثواب الشهيد جـ٤ صـ١٨٨ وقال حسن صحيح غريب وسنن بن ماجة جـ٢ صـ٩٣٦ .

(٧) الغيابة كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه – انظر هامش ٦٧ من كتاب الشفاعة عند أهل السنة .

اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة[1] أي : السحرة.

وفي حديث آخر يقول ﷺ : (من قرأ القرآن وحفظه أدخله الله الجنة، وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد استوجب النار)[2]

٤) شفاعة الصيام:

ومن فضل الله تعالى على الموحدين أن الصيام قرين للقرآن في الشفاعة ، يدل على ذلك قول الرسول ﷺ : (الصيام، والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة -يقول الصيام أي رب منعته الطعام ، والشهوات بالنهار ، فشفعني فيه ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعني فيه قال: فيشفعان)[3] .

٥) شفاعة العلماء:

وللعلماء منزلة عند الله عز وجل أيضاً ينتفع من خلالها أهل التوحيد حيث يؤذن لهم بالشفاعة، وذلك للحديث الشريف الذي جاء فيه: عن رسول الله ﷺ قوله: يشفع يوم القيامة ثلاثة: (الأنبياء ثم العلماء، ثم الشهداء)[4] .

٦) شفاعة الأولاد للآباء :

وذلك ثابت بقول رسول الله ﷺ: (إن الله عز وجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنى لي هذه، فيقول: باستغفار ولدك الصالح)[5] نسأله سبحانه أن يصلح لنا في ذريتنا إنه سميع الدعاء .

---

(١) صحيح مسلم جـ١ صـ٥٥٣

(٢) ابن ماجة في المقدمة صـ٢١٦

(٣) مسند الإمام أحمد جـ٢ صـ١٧٤ والحاكم في المستدرك جـ١ صـ٥٤٤ وقال حديث صحيح على شرط مسلم ورمز له السيوطي في الجامع مع الصغير جـ٢ صـ٥٢ بأنه صحيح .

(٤) ابن ماجة في الزهد ٤٣١٣

(٥) ابن ماجة في الأدب ٣٦٦ وأحمد في السند جـ٢ صـ٥٠٩

المطلب الثالث

أهم الأسباب التي رغب فيها الشارع لنيل الشفاعة

هذا وهناك بعض المؤهلات أو الأسباب التي رغب فيها الشارع لنيل الشفاعة من الرسول الكريم ﷺ ومن معه من الشفعاء، والفوز بالمغفرة من رب العالمين شريطة الإذن من الله تعالى للشفيع والرضا عن المشفوع لهم ويمكن تلخيص ذكر أهم هذه العوامل، والأسباب في النقاط التالية :

١) الدخول في الإسلام وإخلاص العبادة للرحمن:

ويتضمن ذلك توحيده تبارك وتعالى، ونفي الشريك عنه قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[1] فالموحدون والمخلصون في عبادة الواحد دون غيره تعالى هم أحق الناس برحمته سبحانه، وشفاعة نبيه ﷺ[2] كما أسلفنا الذكر.

٢) كثرة الدعاء والتذلل له سبحانه:

خاصة عند الآذان ، فقد ورد أن النبي ﷺ قال : (من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة ، والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة)[3] .

٣) كثرة تلاوة القرآن والصيام :

وقد ذكرنا – سابقا أحاديث عنه ﷺ تثبت : أن القرآن والصيام يشفعان للعبد يوم القيامة.)[4] خاصة إذا تدبر العبد ما يتلوه ، وعمل به[5] ، وأيضاً إذا جعل صومه إيماناً واحتساباً، لله تعالى. لا نفاقاً ولا رياءً أمام الناس.

٤) كثرة الصلاة على المصطفى ﷺ :

وذلك لما ورد عنه عليه الصلاة والسلام من قول جاء فيه: (أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة)[6] ، ولقوله ﷺ :(من صلى عليَّ حين يصبح عشراً، وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة)[7] .

---

(١) سورة البينة آية ٥ .
(٢) انظر جموع فتاوى بن تيمية جـ١٤ صـ ٤١٤ .
(٣) البخاري جـ١ صـ١٥٢ كتاب الأذان باب الدعاء عند النداء .
(٤) انظر الصفحة السابقة .
(٥) للمزيد راجع في علوم القرآن .. صـ١٥٧ د/أحمد حسن فرحات .
(٦) سنن الترمذي جـ٢ صـ٣٥٤ وصحيح بن حبان جـ٢ صـ١٣٣ .
(٧) مجمع الزوائد للهيثمي جـ١٠ صـ١٢٠ وانظر الجامع الصغير للسيوطي جـ٢ صـ١٧٥ .

٥) كثرة السجود :

والمقصود هو السجود في الصلاة فهو غاية التواضع والعبودية، ودليله ما كان يقوله المصطفى ﷺ للخادم ألك حاجة ... قال: يا رسول الله حاجتي أن تشفع لي يوم القيامة. قال: ومن دلك على هذا؟ قال ربي، قال فأعني بكثرة السجود[١] .

٦) الصلاة على الجنازة :

والمقصود أن يكون الميت من جماعة المسلمين فقد ثبت أن الرسول ﷺ قال: (ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه) [٢] .

وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام : (ما من ميت تصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه) [٣] .

تلك لمحة سريعة عن أهم الأسباب التي رغب فيها الشارع لنيل شفاعة المصطفى ﷺ وغيره من الشفعاء يوم القيامة.

وقد يتساءل البعض –كيف يوعد أصحاب هذه الأسباب – وغيرها –[٤]، وهي في جملتها أعمال صالحة، بالشفاعة؟

ويجاب عن هذا : بأن الشفاعات متنوعة يوم القيامة –كما تقدم– فمنها شفاعات للمذنبين الموحدين سواء أكانوا أهل كبائر أملا، بإخراجهم من النار، وإدخالهم الجنة، ومنها شفاعات للصالحين يرفع درجاتهم في الجنة، أو إدخالهم الجنة بلا حساب فيعطي كل أحد ما يناسبه[٥] ، والله تعالى أعلم.

وبعد : فهذه هي الشفاعات الأخروية التي يعتقد بها أهل السنة والجماعة وذلك لثبوت الأخبار، وترادف الآثار –كما يقول السفاريني –رحمه الله– على ذلك، وهي من الأمور الجائزة غير المستحيلة لذا يجب التصديق بها، والقول بموجبها لثبوت الأدلة[٦] .

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ٣ صـ٥٠٠ .

(٢) صحيح مسلم جـ٢ صـ٦٥٥ باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه. .

(٣) صحيح مسلم جـ٢ صـ٦٥٤ باب من صلى عليه مائة شفعوا فيه. .

(٤) هناك أسباب أخرى للمزيد راجع الشفاعة عند أهل السنة صـ٩٣، ٩٤ د/الجديع .

(٥) انظر شرح النووي لصحيح مسلم جـ٤ صـ٢٠٦ والشفاعة صـ٩٧ د/الجديع .

(٦)أنظر لوامع الأنوار البهية جـ٢ صـ٢٠٩ والشفاعة صـ٦٨ .

ويستفاد مما سبق :

أن هذه الأدلة تؤكد أن مقام الشفاعة مقام عبودته لله تعالى، وتذلل وليس مقام مناقشة أو مشاركة لله تعالى في شئونه. وهو وحده الذي يعطي الإذن لمن يشاء لما يرى التذلل، والخضوع أمامه سبحانه من أنبيائه، وملائكته وأولياءه الخ.

ألم يقل الرسول ﷺ في الأحاديث الصحيحة: (فأنطلق فآت تحت العرش فأقع ساجداً لربي ... ثم يقول يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعط ، واشفع تشفع – الحديث)[1] .

إنه رجاء ، وخشوع ، وخضوع ثم يعقبه استجابة من المعبود سبحانه ، وبهذا اعتقد جماعة أهل السنة بالشفاعة في الآخرة ، وحرصوا على إذاعة هذا على الناس أجمعين ، مستخدمين كل الأدلة ، والبراهين الثابتة في القرآن العظيم وعن الرسول الكريم ــ كما رأيناــ إلا أن هناك من أنكر وخالف ذلك وزعم في الشفاعة غير زعمهم كما سنرى فيما يلي :

(١) البخاري في التفسير ٤٧١٢ ومسلم في الايمان ١٩٤ وغيرها .

المبحث الرابع

مذهب الخوارج والمعتزلة في الشفاعة الأخروية

وبالرغم من كثرة الأدلة الشرعية على ثبوت الشفاعة في الآخرة، والتي أقامها أهل السنة، والجماعة -كما ذكرنا آنفاً - إلا أن للخوارج، والمعتزلة رأي مخالف في هذا الشأن خاصة في مسألة مرتكب الكبيرة الذي مات ولم يتب من ذنبه، من أمة محمد ﷺ تلك المسألة التي تعد أول قضية تثار في الفكر الإسلامي في عصر الصحابة، وفي عصر التابعين لهم بإحسان.

أولاً: الخوارج والشفاعة في مسألة مرتكب الكبيرة:

و هذه المسألة أثارها الخوارج أيام عليٍّ -رضي الله عنه- ورفضوا القول بالشفاعة، وحكموا على مرتكب الكبيرة- ولو كبيرة واحدة- أنه كافر، وأنه مخلد في جهنم مع فرعون، وهامان، وقارون، وأن الله لا يغفر لمرتكبي الكبائر ولا يخرجهم من النار، لا بشفاعة، ولا بغيرها[1]، فمن دخل جهنم يخلد فيها، بناءً على قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[2] ثم طبقوا ذلك على أمير المؤمنين عليّ -رضي الله عنه- واعتبروه قد ارتكب كبيرة بقبوله التحكيم -فكفر بذلك، واستحق الخلود في النار!!.

وقد جاءت الأحاديث الصحاح المستفيضة، تذم الخوارج وتبين أن آفاتهم ليست في ضمائرهم، وقلوبهم، بل في عقولهم، وأفهامهم، فهم عُبَّاد صُوَّام، قُوَّام، ومع هذا يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية[3]، وما كان مروقهم هذا إلا لأنهم ظنوا أنهم على الحق، وأن فهمهم السيئ للقرآن الكريم هو فهم حسن، وما نزلوا من كبريائهم في هذا الشأن، فرأيناهم، فهموا ما لم يدل عليه القرآن، وأنزلوا الآيات التي نزلت في الكفار، مثل: -الآية آنفة الذكر- فجعلوها على المؤمنين، وتمسكوا بظواهر النصوص، من غير اعتبار للآيات الأخرى، فكفَّروا مرتكب الكبيرة من غير اعتبار للآيات التي تعتبره مؤمنا، بل من غير اعتبار لعمل الرسول ﷺ .

والحقيقة أن مرتكب الكبيرة المسلم لو كان ، كافراً حقاً بسبب معصيته تلك، فلماذا أقام الرسول ﷺ الحدود على الزاني والزانية، وأخبر أنهما ينغمسان في الجنة - كما هو معروف[4] وعليه ففعل المعصية لا يقتضي الحكم بالكفر، والخلود في النار، بل قضاء ما عليه من حكم الله تعالى، ثم الخروج بالشفاعة لأنه موحد بالله عز وجل.

---

(١) راجع كتاب معارج القبول للحكمي جـ٢ صـ٢٥٦ ومجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١ صـ٣١٨ .

(٢) سورة البقرة آية ١٦٧ .

(٣) أنظر الأحاديث في ذم الخوارج في البخاري حديث (٣٣٤٤) ومسلم حديث (١٠٦٤) .

(٤) للمزيد في معرفة ذلك راجع تفسير (الزاني والزانية) من سورة النور آية /٢ جـ ٣ صـ٢٦٥ لابن كثير .

ولكن الخوارج كما يقول بن حزم ــ رحمه الله ــ كانوا أعراباً قرءوا القرآن ، ولم يتفقهوا في السنة ، ولذا نجدهم يكفر بعضهم بعضاً عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفُتيا ، وصغائرها[1] لذلك أرسل إليهم الخليفة علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ بن عمه عبد الله بن عباس ليحاجهم، ويناقشهم في دعاويهم ليعودوا إلى الحق ، ويبتعدوا عن إثارة الفتنة.

وقد استطاع بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن يقنع الكثير منهم فرجع منهم عدة آلاف، وأصر الآخرون على مواقفهم، فقاتلهم عليٌّ ــ رضي الله عنه ــ ومن معه من الصحابة[2]وخلاصة القول في أمر الخوارج أنهم ظهروا في عصر الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ وجعلوا من مبادئهم إنكار الشفاعة لأصحاب الكبائر بل وتكفيرهم، وأصروا على ذلك دون وجه حق ، واستكبروا استكباراً ، فكانوا آفة على المجتمع الإسلامي وما زال هذا المجتمع يئن منهم ، ومن مبادئهم، وأفكارهم إلى يوم الناس هذا ، والله المستعان.

ثانياً: المعتزلة وموقفهم من الشفاعة لمرتكب الكبيرة:

وهؤلاء قد جاءوا في عصر التابعين، وأثاروا هم أيضاً القضية ذاتها : حيث سأل سائل في مجلس الداعية الفقيه الحسن البصري ــ رضي الله عنه ــ عن مرتكب الكبيرة ، وكان واصل بن عطاء ، وهو أحد تلاميذ الحسن جالساً ، فقبل أن يجيب الحسن واصل : إن صاحب الكبيرة ليس بكافرٍ ولا مؤمن بل هو في منزلة بين المنزلتين ــ هذه حاله في الدنيا ــ وفي الآخرة مخلد في النار كالكافر.

ثم أخذ مكاناً في المسجد بعيداً عن الحسن، وأخذ يردد هذا القول وتبعه بعض التلاميذ، فقال الحسن اعتزلنا واصل ، وسمي أتباعه معتزلة ــ بسبب ذلك ــ على أشهر الأقوال ، وقيل أن هذا حدث مع أصحابه من بعده[3].

وبناءً على ذلك أنكر المعتزلة الشفاعة لأهل الكبائر في الآخرة ، والتقوا مع الخوارج في هذا الشأن إلا أنهم لم يقولوا إن أهل الكبائر كفاراً كما قال الخوارج بل هم عندهم مثل الكفار يخلدون في النار ، وما هم بخارجين منها. وصار القول بالمنزلة بين المنزلتين مبْدءاً هاماً من مبادئ المعتزلة الذي بنوا عليه إنكار الشفاعة.

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ٤ صـ١٥٦ لابن حزم الظاهري

(٢) انظر القصة: عبد الرازق في مصنفه (١٨٧٨) وأحمد في المستدرك (٢٦٥٦) وأخرجها البيهقي في السنن الكبرى جـ٨ صـ١٧٩ وحديث عبد الله بن شداد.

(٣) راجع الملل والنحل للشهرستاني صـ٧٢ وشرح الطحاوية صـ٤٦٨ والمعتزلة لزهدي حسن جار الله صـ١٢، وتاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة صـ١٢٤ والشفاعة في الآخرة صـ١٠ د/ القرضاوي.

غير أنه يجب أن نؤكد أن هناك شفاعتان لم ينكرهما المعتزلة وهما: الشفاعة العظمى للمصطفى ﷺ في أرض المحشر، وشفاعته عليه الصلاة والسلام في زيادة درجات أهل الجنة ولنعوِّل هنا على ما كتبه القاضي عبد الجبار بن أحمد وهو أحد كبار أئمة المعتزلة فهو يقرر مذهبهم قائلاً :

لا خلاف بين الأمة أن شفاعة النبي ﷺ ثابتة للأمة ، إنما الخلاف في أنها تثبت لمن ؟

فعندنا أن الشفاعة للتائبين من المؤمنين ، وعند المرجئة[1] أنها للفساق من أهل الصلاة.) [2].

وبالنسبة للشفاعة في زيادة الدرجات لأهل الجنة فإن الرجل يشير إلى أن هذا لا بأس به لأنها ستعود بالنفع إلى من يستحق فأهل الجنة يستحقون الشفاعة لرفع الدرجات ويضرب لذلك مثلاً قائلاً : (فإن الوزير مثلاً كما يشفع إلى السلطان ليزيل عن حاجب من حجابه الضرر، فقد يشفع ليخلع عليه ويميزه من الحجاب.) [3].

وعليه فليس دعوى إنكار المعتزلة للشفاعة على وجه العموم والإطلاق، كما رأينا في هاتين الشفاعتين إلا أنهم بعد ذلك ينكرون بقية الشفاعات –آنفة الذكر– والتي تثبت للنبي ﷺ والأنبياء، والملائكة، وصالحي الأمة، فمرتكب الكبيرة، الذي لم يتب، والفساق من المسلمين الموحدين إذا دخلوا النار –عندهم– فإن العقوبة تستحق لهم على طريق الدوام، وقد دلّلوا على ذلك بعدد من الآيات الكريمة –منها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ [4] .

وتساءلوا: كيف يخرج الفاسق من النار بشفاعة النبي ﷺ والآية صريحة هنا بعدم خروجه[5] ولو شفع النبي ﷺ لهم لوجب أن يكون منقذاً من النار، وقد نفى الله تعالى عنه ذلك[6].

وذكروا بعد ذلك آيات كثيرة لتقوية مدعاهم هذا ـ وسنفصل ذلك عند حديثنا عن الشفاعة عند الدكتور ـ مصطفى محمود ـ وهي استدلالات بعيدة عن الحق لأن جل الآيات التي ذكروها –خاصة بالمجرمين والكافرين،– كما سنوضح –

وقد أخطأوا في تأويلاتها خطئاً فاحشاً لأنهم بنوه على أصلهم، أو مبدأهم القائل: بالوعد والوعيد والحسن والقبح العقليين، وأرادوا نصرة هذا المبدأ بأي طريقة كانت حتى وإن تم فيها تأويل آيات كريمة تأويلاً شاذاً يرفضه الشرع الحكيم، يؤكد على ذلك كلام القاضي عبد الجبار

---

(١) يقصد أهل السنة والجماعة .

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار صـ٦٨٧، ٦٨٨ .

(٣) المصدر السابق صـ٦٨٩، ٦٩٠ .

(٤) آية ١٩ من سورة الزمر .

(٥) راجع شرح الأصول الخمسة صـ٦٨٩ .

(٦) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار صـ٥٩٢ .

الذي يرفض شفاعة المصطفى ﷺ قائلاً : (إذا شفع المصطفى ﷺ لصاحب الكبيرة فلا يجوز له ذلك لأننا قد دلّلنا على أن إثابة من لا يستحق الثواب قبيح، وأن المكلف لا يدخل الجنة تفضلاً)[1].

فالرجل يريد الانتصار لمذهبه بأي وسيلة كانت، ويستخدم الأدلة العقلية، ويقدمها على نصوص الشرع الصريحة. وتلك هي آفة المعتزلة التي أوقعتهم المهالك، فالعقل خادم للنصوص الشرعية، وليس العكس. إذ الشرع من عند الخالق سبحانه، والعقل مخلوق، ولا يحكم المخلوق على الخالق، ولا يتقدم أحكامه عز وجل، فالله سبحانه فعَّال لما يريد ولا يوجب أحد من خلقه عليه شيئاً فإذا جاءت النصوص صريحة بإثبات الشفاعة فلا اجتهاد مع النص ، ــ وقد أكدنا على إيراد هذه النصوص من قبل ــ وإذا أدخل الله سبحانه أحداً الجنة، فبفضل منه وتكرم وليس العمل هو المعيار في ذلك كما يظن المعتزلة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لن ينجي أحداً منكم عمله، قال رجلٌ، ولا إياك يا رسول الله ؟ قال: ولا إياي إلا أن يتغمدني الله منه برحمته، ولكن سددوا)[2] .

وهذا هو الحق ، ولكن المعتزلة ومن سار على منهجهم العقلي في العصر الحديث أنكروا الشفاعة الثابتة، والتفضل على العباد من رب العباد بدخول الجنة، مع أن هذا هو أملنا ورجاؤنا في الله عز وجل ، وهو رجاء محاط بالخوف من عدم قبولنا عنده سبحانه، ولكن قوله عز وجل ، (ورحمتي وسعت كل شئ)[3] يجعلنا نزداد اطمئناناً ونعمل كثيرا ، ولكن طمعاً في تفضله ، وتكرمه ، ولكن ليس العمل هو معيار قبولنا عنده عز وجل ، فهو الذي يهب الكثير ، ويجبر القلب الكسير ، ويغفر الزلات ، ويقول هل من تائب مستغفر أقضي له الحاجات ، ما أكرمه ما أحلمه ، ما أعظمه ، إن كانت ذنوب العبد لها حد وغاية فإن عفوه لا حد له ولا نهاية ، فلماذا نغلق باب عفوه ورحمته ، وننكر شفاعة نبيه ﷺ ، للموحدين من أمته ، كما يرى المعتزلة،ومن سار على نهجهم في العصر الحديث من أمثال الدكتور مصطفى محمود والذي سيكون لنا معه وقفات في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر شرح الأصول الخمسة صـ٦٨٩ .

(٢) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين باب لن يدخل الجنة أحد بعمله رقم ٢٨١٦، والحديث روى بألفاظ مختلفة لكنها متقاربة والسداد: الصواب أي اطلبوا السداد واعملوا به .

(٣) سورة الأعراف .

الفصل الثاني
موقف الدكتور مصطفى محمود
من معتَقدْ الشفاعة

الفصل الثانى

موقف الدكتور مصطفى محمود من معتقد الشفاعة

تمهيد :

وقبل أن نبين موقف الدكتور مصطفى محمود من الشفاعة، والتي تم إثباتها بالأدلة الشرعية عند أهل السنة ـ كما أسلفنا الذكر ـ فإننا نؤكد أن الدكتور لم يلزم نفسه بهذه الأدلة ولم يعط لها اعتباراً بل تأثر تماماً بأقوال المعتزلة والخوارج وأخرج إلى الناس كتابه الذي جمع فيه مقالاته، وأعطاه عنوان "الشفاعة محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين" .

ولم يحاول أن يحلل أو يقوِّم كلام وأدلة المؤيدين، والمعارضين كما هو مفهوم من العنوان، بل انحاز تماماً من أول الكتاب إلى آخره إلى جبهة المعارضة، والرفض!! بدون أن يقدم أدلة مقنعة للقارئ لكي يبرر له أسباب انحيازه وانتصاره لفكر ومعتقد المعارضين، وهذا من غير شك ضد الموضوعية، والمعايير العلمية التي يجب أن يلتزم بها الباحث، فمن انتصر لفكرة ما، أو مذهب ما، عليه أن يعتمد على حجج ساطعة، ومقنعة، ويقدمها بلا تردد ويدحض من خلالها آراء الآخرين، وحججهم وهذا ما افتقده الكاتب حقيقة، وهو يتعرض لمعتقد الشفاعة عند المسلمين، ولم يجد ما يقدمه في هذا الشأن إلا الإنكار لهذا المعتقد، والسخرية من المسلمين الذين يعتقدون بذلك وتشكيكه في السنة المطهرة، والأحاديث التي جاءت لتثبت الشفاعة. ثم استهزاؤه بالإمام البخاري –رضي الله عنه– وكذلك الرواة، الموثوق بهم، وادعاؤوه بعد ذلك بأن ما ورد من أحاديث في الشفاعة لا يقبلها العقل، وتتضارب مع آيات القرآن الحكيم!! وهاك عرض لأقواله من خلال كتابه المذكور ثم نتبعها بمناقشة ورد مدعم بالأدلة، والبراهين . .

المبحث الأول

عرض لأقوال الدكتور مصطفى محمود في الشفاعة

أولا: إنكاره للشفاعة ، وسخريته ممن يعتقد بذلك :

وفي ذلك يقول:

١ــ ولن ينجو من المذنبين إلا من تكرم عليه رب العزة وفتح له باب التوبة قبل الممات.[١] وهذا يعني عنده أن من مات على معصية، ولم يتب لن ينجو من العذاب يوم القيامة.

٢ــ ثم يقول: وأما الشفاعة بمعنى هدم الناموس، وإخراج المذنبين من النار، وإدخالهم الجنة، فهي فوضى الوسايط التي نعرفها في الدنيا، ولا وجود لها في الآخرة ... ولكن المسلمين الذين عُرفوا بالاتكالية، قد باتوا يفعلون كل منكر، ويرتكبون عظائم الذنوب، اتكالاً على نبيهم الذي سوف يخرجهم في حفنة واحدة من النار ويلقي بهم في الجنة بفضله، وكرمه، وهم الذين شكاهم إلى ربه في صريح قرآنه [٢] وجأر بشكواه قائلاً: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[٣].

٣ــ ثم يقول في موضع ثالث: وتدعي بأن النبي ﷺ سوف يخرج من النار كل من قال لا إله إلا الله، وما أسهل أن نقول، وما أهون أن ننطق بالكلام، ونحن أكثر الأمم كلاماً، وأقلها التزاماً، ويوم القيامة يوم عظيم ... ولا يمكن أن يكون محلاً لهذا التبسيط ولهذه الخفة في الفهم .

٤ــ ثم يزداد تهكماً ويقول في موضع رابع: والتحريض على التسيب والانحلال وفتح باب الجنة ((سبهللة)) للكل .. لأن الشفيع سجد عند قدم العرش وقال متوسلاً: لا أبرح حتى تدخل كل أمتي الجنة ... هل هذه لحظة يساوم فيها النبيُّ ربه لإخراج رجل من النار وإدخاله الجنة، وهو لم يفعل خيراً في حياته. ثم يقول: إن لم يكن هذا هو الهزل، فماذا يكون ؟![٤] .

٥ــ ثم يختم بقوله: والشفاعة فيها فتنة لأنها تزين للعبد مصلحة، ومن هنا يحلو للشيطان أن يستدرجنا من خلالها لنفعل ما نشاء ... ولا نشغل أنفسنا بتوبة فصاحب المقام المحمود سوف يخرجنا في النهاية من النار بإشارة من يده [٥] .

٦ــ ثم يقوم بتأويل الشفاعة التي وردت عن الملائكة وغيرهم بالبشارة، ويقول: هذه بشارة وليست شفاعة. وهي أقرب إلى التهنئة بالنجاة والقانون العام في ذلك اليوم أنه لا شفاعة.[٦]

---

(١) الشفاعة صـ١٨

(٢) الشفاعة صـ١٩

(٣) سورة الفرقان: آية ٣٠

(٤) الشفاعة صـ٢٤ ، ٢٥

(٥) نفسه صـ١٠٨ ، ١٠٩

(٦) نفسه صـ٣٦

٧ــ أما المقام المحمود: فلا يعترف به الدكتور مصطفى محمود بل يقول: لا أحد منا يعلم موجبات المقام المحمود، ولا حدوده .. ويذكر المفسرون أنه مقام الشفاعة العظمى، ولا نخوض معهم ... ولم تُذكر كلمة شفيع عن الرسول إطلاقاً! أقول ذلك اجتهاداً لأن الموضوع غيب .. ويوم الدين بأهواله وما يجري فيه غيب[١] .

تلك هي أقوال الدكتور مصطفى محمود في موضوع الشفاعة الذي ينكره ويعترف في النهاية أنه غيب.

ثانيا: موقف الدكتور مصطفى محمود من السنة المطهر:

وبالرغم من أن السنة المطهرة قد تواترت فيها الأحاديث الصحيحة التي تدلل على الشفاعة في الآخرة وثبوتها. إلا أن الدكتور محمود يشكك في هذه الأحاديث ويقوم بهجوم شرس على السنة المطهرة في هذا الشأن بالرغم من اعترافه بتواتر أحاديثها ، وهاك أقواله التي سطرها في كتابه :

١ــ تروي لنا الأحاديث النبوية بأن محمداً ﷺ يقف شفيعاً يوم القيامة للمذنبين ، ولأهل الكبائر من أمته، وأن الله يقبل شفاعته ، وتتواتر الأحاديث بهذا المعنى بصياغات مختلفة في البخاري وغيره ، ويقف المسلمون أمام الاختيار الصعب بين النفي القرآني ، وبين ما جاء في السنة ... والأحاديث في ذلك تخالف صريح القرآن[٢] .

٢ــ ثم يقول في موضع آخر: وكل ما جاء بهذا المعنى في الأحاديث النبوية مشكوك في سنده، ومصدره لأنه يخالف صريح القرآن ، ولا يعقل من نبي القرآن أن يطالب بهدم القرآن[٣].

٣ــ ثم يزداد في الهجوم في موضع ثالث ويقول: وللأسف الشديد نحن نقرأ كتب السيرة والأحاديث بتسليم مطلق ، وكأنها قرآن منزل ومحفوظ ، والله لم يقل لنا إنه تولى حفظ هذه الكتب ، وهو لم يحفظ إلا القرآن[٤].

٤ــ ثم يقول والإسرائيليات تملأ كتب السيرة ، وقد دسوا علينا أن الرسول سُحر ، وأن جبريل استخرج له لفافة السحر من البئر ... وهو كلام خطير يطعن في دور النبي ﷺ كمبلغ عن الله ، وكرسول ،،والقرآن صريح في التأكيد على عصمة النبي ﷺ[٥] .

٥ــ ويقول : وليس غريبا أن تمتلئ هذه الكتب بالمدسوس من أحاديث الشفاعة ... والهدف من أمثال هذه الأحاديث هو إفساد الدين[٦] .

---

(١) نفسه صـ٤٠ .
(٢) انظر صـ١١ ، ١٦ ، ١٧ الشفاعة .
(٣) نفسه صـ١٩ .
(٤) الشفاعة صـ٢٢ .
(٥) الشفاعة صـ ٢٣ .
(٦) الشفاعة صـ ٢٤ .

٦ــ ثم يستطرد قائلاً: ما كان للرسول أن يفعل .. إن هي إلا تخرصات وتقولات، وأقوال مدسوسة، ولو استطاعوا أن يجعلوا منه ابن لله لفعلوا.

٧ــ ويستطرد قائلاً: تفهموا الدين أحسن، ولا تستخفنكم الروايات والأحاديث التي تدخلكم الجنة بغير حساب لمجرد أنكم تلفظتم بكلمة التوحيد[١] .

٨ــ ثم يقول عن تدوين السنة: فقد جمعها ودونها بشر مثلنا غير معصومين في سلسلة من العنعنات عن بشر آخرين غير معصومين في سلسلة ــ أيضا ــ من العنعنات عبر عشرات السنين – وخاصة بعد زمن الخلفاء الراشدين على أيام سلاطين القصور ... والنبي نهى عن تدوين الأحاديث ... وكان سبب خوف الخلفاء من التدوين ــ يذكر اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ــ أن يحدث ما حدث لأهل الكتاب من تأليه الأنبياء وتقديس كلامهم .. وإذا كان هذا الشك والخوف عند الأكابر فمن الطبيعي أن يكون عندنا أضعاف هذا الخوف وأن لا نقبل من الأحاديث ما يناقض القرآن الكريم . ثم يقول ليس هذا إنكاراً للسنة ولكن غيرةً على السنة وخوفاً عليها من الوضاعين .[٢]

ثالثا: موقفه من الإمام البخاري خاصة ، والرواة عامة :

ثم يتعرض الدكتور مصطفى محمود للإمام البخاري بسخرية لاذعة، كنا نود من الدكتور العزيز أن يرقى بعيداً عن هذه السخرية التي لا تليق أن تصدر من مسلم فضلاً عن مفكر معروف ولكن تأتي الرياح ــ أحياناً ــ بما لا تشتهي السفنُ .. ، وهاك أقواله عن الإمام البخاري –رضي الله عنه:

١ــ والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي تولى رب العالمين حفظه .. ولم يقل لنا رب العالمين أنه حفظ كتاب البخاري وغيره من كتب السيرة ، وما يقوله البخاري مناقضاً للقرآن يُسأل عنه البخاري يوم الحساب ولا نُسأل نحن فيه[٣] .

٢ــ ويقول ولم يكن البخاري ــ رضي الله عنه ــ هو الوحيد الذي خاض في موضوع السيرة النبوية ولكن كُتَّاب السيرة كثيرون وقد تناقضوا ، واختلفوا بعضهم البعض[٤] .

٣ــ ثم يصف الفترة قبل البخاري بأنها من أزهى عصور الإسلام ثم يقول : كل هذا قبل البخاري ، وقبل الأحاديث المدونة وبالقرآن وحده ، وكان المسلمون يصلون ويحجون ... من قبل البخاري .. وكانت السنة حية نابضة ... من قبل أن يرويها البخاري وكُتَّاب الأحاديث[٥] .

---

(١) الشفاعة صـ٢٦ .

(٢) الشفاعة صـ٨٩ ، ٩٢ .

(٣) الشفاعة صـ٤١ .

(٤) الشفاعة صـ١٠٢ .

(٥) الشفاعة صـ ١٠٣ .

٤ــ ثم تهكم قائلا: لم يستطع البخاري وصحبه بأحاديثهم .. أن يصنعوا من المسلمين ما صنعه القرآن والمسألة لغز يستحق التأمل . إن ما صنعه البخاري بإخراج مذنبي المسلمين من النار بشفاعة الرسول ﷺ لم تأت بالمسلم الأفضل ، بل جاءت بالمسلم الأضعف المتواكل الذي يحلم بدخول الجنة بلا عمل[١] .

٥ــ ثم يقول: والمسلم الذي بلغ درجة التقوى في إسلامه عليه أن يأخذ أحاديث الشفاعة بمنتهى الحذر ، ونقف مع الحديث الذي رواه البخاري عن سيدنا موسى حينما قضى ربنا عليه الموت ليقبض روحه .. وأين كلام البخاري من كلام الله .. إن الحديث واضح الزيف ومثله كثير في البخاري[٢] .

٦ــ ثم يترك البخاري ويتهجم على الرواة جميعاً قائلاً: ومرويات كثيرة رواها أصحابها بلا عدد، وبلا حصر ظناً منهم أنهم يزيدون بها في تمجيد النبي ، ويرفعون مقامه عند ربه ، وينسون أنهم بكلامهم هذا يفسدون جلال المشهد ... وما يفعلونه تخرصات ، وأكاذيب وأقوال مدسوسة ولو استطاعوا أن يجعلوا منه ابناً لله لفعلوا[٣] .

٧ــ ويقول : والثوابت القرآنية تتناقض تماماً مع مرويات الأحاديث النبوية في كتب السيرة عن إخراج الرسول ﷺ لمن يشاء من أمته من النار مما يؤكد أن الأحاديث موضوعة ، وما صدرت عن النبي[٤] .

٨ــ ويقول : والآن وقد تراخى بنا الزمن وأصبحنا نقرأ عن وعن ، وعن إلى آخر العنعنات التي لا يعلم بها إلا الله واختلف أهل هذه العنعنات ... ولم يسلم رواة الحديث من هذا المزلق الخطير ، فهم بشر فيهم ضعف البشر وليسوا ملائكة، ومن هنا جاءت المشكلة[٥] .

وبهذا اختلق الدكتور مصطفى محمود مشكلة مع البخاري وبقية الرواة، وافتعل معركة في غير معترك بلا داعي .. اللهم إلا السير في ركب المخالفين دائماً، ولماذا؟ الحقيقة المسألة لغز يحتاج إلى حل ــ على حد تعبيره هو من قبل ــ .

رابعا : أدلة الدكتور مصطفى محمود التي ارتكز عليها في إنكار الشفاعة والتشكيك في السنة والرواة

والسؤال الذي يعرض نفسه: علام ارتكز الدكتور/ مصطفى محمود في إنكاره للشفاعة والتشكيك في السنة التي جاءت بها الأحاديث التي تؤكد على إثبات الشفاعة بكل أنواعها في

---

(١) الشفاعة صـ ١٠٦ ، ١٠٧

(٢) الشفاعة صـ

(٣) الشفاعة صـ ٢٤ ، ٢٥

(٤) الشفاعة صـ ٣٤

(٥) الشفاعة صـ ٦٨ ، ١٠٩

الآخرة –كما عرفنا عند أهل السنة– ولماذا يقوم الرجل بهذا الهجوم على الرواة الموثوق بهم في هذا الشأن؟!

الظاهر الإجابة على هذه التساؤلات، أن الرجل اعتمد على أمرين: أولهما: نقلي، وثانيهما: عقلي.

أولا: الدلائل النقلية:

وهي تشتمل عنده في أمرين أولهما: آيات تنفي الشفاعة وثانيهما: آيات تناقض فكرة الشفاعة، وتمنع الخروج من النار.

١ــ أما الآيات التي تنفي الشفاعة عند الدكتور مصطفى محمود فمنها:

⇦ قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ من سورة الزمر[١] حيث يرى الكاتب أن الله تعالى يجمع سلطة الشفاعة جمعية واحدة ويجعلها له وحده.[٢]

⇦ وقوله تعالى: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ من سورة يونس.[٣] حيث يعلق على الآية قائلاً: فماذا سوف تضيف شفاعة أي شفيع لعلم الله ... ومن الذي يجرؤ أن يعدل حكماً حكم به رب العالمين.[٤]

⇦ وقوله تعالى في سورة الكهف ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾[٥]

⇦ وفي سورة الأنعام[٦]: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ فآية الكهف يرى الكاتب أنها قطعية في أن الله لا يشرك في حكمه أحداً، وآية الأنعام فيها نفي صريح للشفاعة يوم القيامة. فلا وليٌّ ولا شفيع.[٧]

⇦ وأيضاً يدلل بقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[١] فهذه من الأيات المحكمة في نفي الشفاعة عنده.

---

(١) آية ١٤٥
(٢) الشفاعة صـ ٢٠
(٣) آية ٣
(٤) الشفاعة صـ ٢٠
(٥) آية ٢٦
(٦) آية ٥١
(٧) الشفاعة صـ ٢١

⇦ ومن سورة غافر[٢] : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ .

⇦ وفي السجدة قولـه تعـالى[٣]﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ ويعلق قائلاً ففي الآية حرف (من) وهو يؤدي إلى النفي القطع ي لأي نوع من الشفعاء.[٤]

٢ــ أما الآيات التي تناقض فكرة الشفاعة عنده :

فهي الآيات التي تنفي إمكانية الخروج من النار، ويرى الكاتب أنها كثيرة وعديدة منها:

⇦قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[٥] من سورة المائدة. ويقول إن هذه الآية في الكفار والمسلمين أيضاً.[٦]

⇦وقوله تعالى في سورة المؤمنون:﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[٧] .

⇦ وقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[٨] .

⇦ويقول تعالى عن قاتل الـنفس:﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾[٩] في سورة النساء.

⇦أما في سورة الزمر فيقول: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾[١٠] ويعلق قائلاً إن هذا كلام للرسول مباشرة في استفهام استنكاري، والله ينكر على رسوله أن يقول مثـل هذا الكلام على أهل النار ممن حقت عليه كلمة العذاب من كفار أو مسلمين. كما ينكر الخروج من النار على من كتب عليهم بدخولها، فكل من يدخل النار تتأبد إقامته فيها.[١١] .

---

(١) آية ٢٥٤
(٢) آية ١٨
(٣) آية ٤٥
(٤) الشفاعة صـــ٢١
(٥) آية ٣٧
(٦) الشفاعة صـــ٣١
(٧) آية ١٠٧ ، ١٠٨
(٨) آية ١٦٧
(٩) آية ٩٣
(١٠) آية ١٩
(١١) الشفاعة صـــ٣٣

⇦ والمذنبون من المسلمين في سورة يونس الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [1] فهؤلاء -عنده- أذنبوا ولم يتوبوا، وانغمسوا في ذنوبهم حتى أحاطت بهم فهم أهل الإصرار، والاستكبار والتفاخر بالذنوب. لا يمكن أن يخرجوا من النار، وما جاء من أحاديث في ذلك فهي عنده موضوعة.[2] وشفاعة الملائكة للبعض في القرآن أشبه بالبشارة وليست شفاعة وهي أقرب إلى التهنئة بالنجاة، وذلك لا يكون إلا بعد إذن الله[3].

ثانيا: الدلائل العقلية:

أما الدلائل العقلية التي ارتكز عليها الدكتور مصطفى محمود في إنكاره للشفاعة فهي تتمثل في رؤيته أن الشفاعة لا يمكن القبول بثبوتها لأنها عنده لون من المحاباة والمحسوبية، والوساطة فهي على حد تعبيره: (فوضى الوسايط التي نعرفها في الدنيا ولا وجود لها في الآخرة، وهذا ينافي العدل الإلهي المطلق في ذلك اليوم الذي تشيب لهوله الولدان)[4]

وهذا العدل لا يعرف المحاباة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[5]

ثم يقول: (وأرى من حق كل قارئ أن يختلف معي وأن يفهم القضية على طريقته فقد أرادنا الله أحراراً)[6].

وفي موضع آخر يقول ولا يعقل من نبي القرآن أن يطالب بهدم القرآن)[7] ثم يطالب باحتكام القراء جميعا في قضية الشفاعة إلى العقل وحده فيقول: (ولو احتكم القراء إلى العقل .. لما هاجوا .. فليختبر كل منكم الفهم الذي يروق لعقله من هذه الباقة)[9].

تلك هي المرتكزات النقلية، والعقلية التي قدمها الدكتور مصطفى محمود للقراء عبر الصحف اليومية، وكتابه الأخير عن قناعته بنفي الشفاعة وعدم ثبوتها وإنكار السنة التي روت أحاديث صحيحة لهذا الإثبات -كما قدمنا .

---

(١) سورة يونس آيات ٢٦ ، ٢٧
(٢) الشفاعة صـ٣٣ ، ٣٤
(٣) نفسه صـ٣٥ ، ٣٦
(٤) الشفاعة صـ١٩
(٥) الزلزلة آية ٧ ، ٨
(٦) الشفاعة صـ٧
(٧) الشفاعة صـ١٩
(٩) نفسه ص ٨٥

المبحث الثاني
تفنيد دلائل الدكتور مصطفى محمود في الشفاعة
المطلب الأول
تفنيد الدلائل النقلية في نفي الشفاعة

أولاً: الآيات التي ذكرها في نفي الشفاعة وتفسيرها الخاطئ:

إن الكاتب قد أخطأ الصواب في استدلاله النقلي في إنكار الشفاعة ونفيها فقد أتى بآيات ظن أنها تؤيد مدعاة، وفسرها تفسيراً بعيداً كل البعد عن المنهج العلمي المجمع عليه في التفسير، فلا يفسر القرآن بالعقول، والأهواء والتخيلات، بل هناك قواعد متعارف عليها عند أهل العلم والتخصص في هذا الفن لا يصح الحياد عنها.

قواعد التفسير لآيات القرآن الكريم :

ومن هذه القواعد في التفسير ما يلي :

أولا: أن يفسر القرآن بالقرآن: فما أُجمل في مكان قد بُيِّن في مكان آخر، وما اُختصر في موضع قد بُسِّط في موضع آخر[1]، وبهذا يفسر القرآن بعضه بعضاً، وهذه القاعدة مهمة عند المفسرين لسببٍ بسيط وهو أن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه.[2]

ثانيا: أن يفسر القرآن بالسنة المطهرة : إذا تعذر استعمال القاعدة الأولى، وذلك لأن السنة شارحة للقرآن ، وكل ما نطق به رسوله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن نصاً أو استنباطاً، أليس هو القائل ﷺ (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه) يعني السنة[3] ومن هنا فمن أهمل السنة في التفسير فقد أخطأ ـــ كما يقول الشاطبي[4] رحمه الله ـــ .

ثالثا: ثم يفسر القرآن بأقوال الصحابة : فهم الذين عاصروا الرسول ﷺ وعاصروا نزول القرآن فهم أفهم الخلق لهذا الكتاب العزيز لقربهم إلى عهد الرسالة.[5]

---

(١) مقدمة في أصول التفسير صـ٣٩ ، والتفسير والمفسرون للذهبي جـ١ صـ٤٠ .

(٢) أنظر قضية التأويل بين الشيعة وأهل السنة عرض وتقويم للمؤلف صـ ٣٦٦ .

(٣) رواه أبو داود في كتاب السنة باب في لزوم السنة بلفظ الكتاب بدل القرآن ، وانظر الباطنية وموقف الإسلام منهم صـ٩٣ د. جميل أبو العلا .. وابن تيمية وموقفه من قضية التأويل د. الجليند صـ١٧٥ .

(٤) الموافقات جـ ٤ صـ٦ .

(٥) ابن تيمية د. الجليند صـ١٧٧ .

رابعاً : ثم أقوال التابعين كمجاهد : فإنه كان آية في التفسير ، وسعيد بن جبير وعكرمة، والحسن البصري ، فإذا اتفق هؤلاء على رأي واحد فلا ريب حجيته، وإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض .

خامساً : ثم لابد للمفسر أيضاً أن يكون على علم بلغة القرآن : وطريقته في التفصيل والتوضيح ، ثم عموماً لغة العرب ، وعاداتهم في الخطاب[1] والمعاني التي تحملها أقوالهم فتفسر حسب السياق[2] .

سادساً: كذلك لابد لمن يفسر القرآن أن يكون على علم بأسباب النزول ليحمل كل آية على ما تقضيه قصة نزولها ، وأن يكون على معرفة أيضاً بالناسخ والمنسوخ ، وليعرف في ذلك الأخبار، والأقاصيص[3] فهذه الأمور تعين على فهم الآية، ومعرفة العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب

سابعاً : أن يكون المفسر على علم بأصول الفقه ، وقواعده : هذا العلم الذي أنشأه المسلمون ليضبطوا به الاستدلال ، ويضعوا به القواعد الحاكمة ، والضوابط الحاسمة ، والمعالم الهادية ، وأن يعرف المطلق والمقيد من الآيات[4] .

تلكم هي أبرز القواعد التي تعارف عليها المتخصصون في علم التفسير، فمن أراد أن يفسر آية فلا يصح أن يخرج عن التحلي بهذه القواعد والالتزام بها، ولا ينبغي له أن يطوع الآيات القرآنية للمفاهيم العقلية المحضة لأن العقل عاجز عن الإحاطة بالحقائق التي أوردها الدين ، ومن ثم فلن يجعل العقل رائداً في التفسير، وقائداً لفهم النصوص ، بل العقل مستنبط، ورابط بين الأقوال ، ومرجح للأدلة المقنعة، وخادم للنص، وليس قائداً له.

والسؤال الآن : هل الدكتور مصطفى محمود التزم بشيء من هذه القواعد، هل فسر آيات القرآن التي ساقها بالقرآن ، أم فسرها بالسنة ، أم بأقوال الصحابة والتابعين ، هل درس أقوال العرب ولغاتهم ، واطلع وهو يقدم استدلالاته القرآنية على أسباب النزول ، وفيمن نزلت الآيات التي ساقها ، وفهم الناسخ والمنسوخ ، وهل اطلع على علم أصول الفقه ليضبط لنا استدلالاته ، ويؤكد لنا على صحة أحكامه التي أوردها في نفي الشفاعة، ومدى مخالفة السنة الصحيحة لصريح القرآن كما يزعم في كل أحكامه ؟؟!!.

إن الدكتور العزيز لم يفعل شيئاً من ذلك، بل أعرض عن كل هذه القواعد، ولم يطبق قاعدة واحدة من قواعد المتخصصين في هذا الفن، بل أنشأ لنفسه تفسيراً خاصاً به يطوع من خلاله

---

(١) انظر الباطنية صـ٢٣٣ .

(٢) أنظر مقدمة في أصول التفسير صـ٤٣، ٤٤ .

(٣) انظر قضية التأويل صـ٣٦٩ .

(٤) انظر الشفاعة في الآخرة صـ٢٨ .

الآيات القرآنية لنصرة ما ذهب إليه تماماً كما فعل من قبله المعتزلة والباطنية والشيعة، ولم نره يستدعي كتاب تفسير واحد من الكتب المتعارف عليها عند أهل العلم ليحيلنا إليه حتى نرى صحة ما قال. وجعل عقله وحده رائده في علم التفسير لا غير، ومن ثم حكم بنفي الشفاعة وإنكارها، وبتأبيد الموحدين في النار، وهذا الذي ذهب إليه الكاتب مخالف لأبسط قواعد الفهم ـــ التي ذكرناها ـــ ذلك لأن الآيات التي استدل بها في نفي الشفاعة: يوجد في مقابلها آيات أخرى قيدتها أو خصصتها أو فسرتها فلابد لنا أن نفهم هذه في ضوء تلك حتى لا نضرب القرآن بعضه بعض ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (١)

فإذا كان الحق تعالى قد نفى في بعض الآيات أن يكون في يوم القيامة شفاعة ـــ وهذه الآيات هي التي اتكأ عليها الدكتور كما رأينا، فإنه نسي أن هناك آيات أخرى ذكرها الحق سبحانه تثبت أن في هذا اليوم شفاعة يشترط فيها الإذن ممن يملك الشفاعة وحده عز وجل، والرضا عن الشافع والمشفوع فيه، وأن يكون الذي سيشفع له أهلاً لهذه الشفاعة ـكما ذكرنا من قبل ـــ وهم أهل التوحيد : فليست الشفاعة لكل من هب ودب بل أو (سبهللة) على حد تعبير الكاتب، هي لمن مات ـعلى عقيدة لا إله إلا الله ـ حتى وإن لم يقبل ذلك الدكتور(٢) فالآيات القرآنية تنطق بغير منطوقه ، فالله تعالى يقول في شفاعة الملائكة :﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ (٣) أي لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله ، وهم الذين ماتوا على توحيده وعدم الإشراك به لأنه سبحانه يقول﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ (٤) ويقول عز وجل﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٥) لذا قال المفسرون: إن أحق الناس بالشفاعة يوم القيامة هم أهل التوحيد الذين عصوا وأذنبوا(٦) ولا يقال أهل التوحيد هم الصالحون فقط وليسوا العصاة والمذنبين. لأنا نقول : هؤلاء الصالحون لا يحتاجون إلى شفاعة لأنهم أطاعوا الله وأنابوا له في كل شيء. إنما الذي يحتاج إلى شفاعة هو المقصر ممن يضيع الواجبات، وارتكب بعض المحرمات وهو ممن ارتضاه الله في الجملة بسبب إيمانه، وانضمامه إلى الأمة المصطفاة. الأمة المصطفاة وأقسامها .

---

(١) آية ٨٢ من سورة النساء .

(٢) انظر الشفاعة صـــ١٧ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٨ .

(٤) سورة الزمر آية ٧ .

(٥) سورة آل عمران آية ٨٥ .

(٦) انظر دقائق التفسير جـــ٢ صـــ٢٨٤، ٢٨٥ وتفسير بن كثير جـــ٣ صـــ١٨٠ .

والأمة المصطفاة هي أمة محمد ﷺ : وهي تنقسم بنص القرآن الكريم إلى أقسام ثلاثة ذكرهم الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (١) .

فهؤلاء الثلاثة ضمن الأمة المصطفاة: فالظالم لنفسه -كما يقول بن كثير- هو:المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب المحرمات، والمقتصد هو: المؤدي للواجبات والتارك للمحرمات والسابق بالخيرات: هو الذي يزيد النوافل على الواجبات ويترك مع المحرمات الشبهات ، والمكروهات(٢) .

ولا عجب أن يحتاج الظالم لنفسه إلى الشفاعة، ولا عجب أن يشفع له بإذن الله تعالى ، محمد ﷺ والملائكة والأنبياء والصالحون لأنه مرتضى عنه في الجملة ــ كما قلنا ــ .

وعلى ذلك فالشفاعة المنفية : هي التي كان يعتقدها المشركون من العرب والمحرفون من أهل الكتاب تلك الشفاعة التي كانوا يعتبرونها واجبة لهم، وحدوا الله أم أشركوا، أذن الله أم لم يأذن، فالأصنام عند المشركين شفعاء ولا ترد شفاعتهم، وكذلك الأنبياء والقديسيون عند أهل الكتاب، لذا قال تعالى في نشأة المشركين عامة:﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (٣) .

وقال في شأن أهل الكتاب خاصة :﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٤) .

فقد ظن هؤلاء أن انتسابهم لموسى وعيسى عليهما السلام سيكون بمثابة شافع لهم، ومن خلاله يحملون صكاً للدخول إلى الجنة، وليس معهم برهان على ذلك إلا الافتراء والكذب، فهم لا يخلصون في توحيد الله، بل ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٥) .

لذلك لا تنفعهم شفاعة الشافعين: والسبب في ذلك بيِّن وواضح وهو إشراكهم بالله، فكل من أشرك بالله تعالى ومات على غير التوحيد تنفى عنه الشفاعة ولا تنفعه شفاعة الشافعين .

---

(١) سورة فاطر آية ٣٢، ٣٣ .

(٢) تفسير بن كثير جـ٣ صـ٥٥٧ .

(٣) سورة يونس آية ١٨ .

(٤) سورة البقرة آية ١١١ .

(٥) سورة التوبة آية ٣١ .

وشر من هؤلاء الملاحدة الجاحدون فهؤلاء لا يجدون من يشفع لهم، ولو فرض أن شفع لهم شفيع فلن يطاع، ولذلك يعانون ما يعانون، ويبكون ويصطرخون ويقولون ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ ﴾[1].

وعليه فمن لا تنفعهم شفاعة الشافعين هم هؤلاء المشركون الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وشر منهم الملاحدة الجاحدون فلن يجدوا من يشفع لهم ولو فرض أن شفع لهم شفيع، فلن يطاع وترفض شفاعته لأنه ليس من أهل التوحيد.

ومن هذا المنطلق ننظر في الآيات التي ساقها الدكتور :

⇦ فالآية التي ذكرها من سورة غافر: آية ١٨ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ وظن أنها تنطبق على الموحدين وغيرهم، وهو ظن في غير موضعه لأن المقصود بالظالمين هنا هم المشركون ويفهم هذا من خلال قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[2] فهؤلاء المشركون هم الذين ظلموا أنفسهم حين أشركوا بالله فليس لهم قريب ينفعهم ــ كما يقول بن كثير ــ ولا شفيع يشفع لهم بل تقطعت بهم الأسباب من كل خير.[3] بل إن الله تعالى يصف حالهم في موضع آخر من سورة المدثر وهم في سقر يُسألون لماذا ليس لكم شفيع فقالوا : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[4] فالاعتراف هنا صريح بالكفر لأنهم لا يصلون، ولا يعترفون بذلك، ولا يقرون بالإطعام ، والزكاة ولا يؤمنون بالغيب وبما فيه من يوم القيامة لذلك لا يمكن أن تكون لهم شفاعة ولا يشفع لهم شافع، فالشفاعة هنا غير مقبولة لأنهم من المشركين .

فكيف يحكم الدكتور على نفي الشفاعة ونفي الشفعاء يوم القيامة عن الموحدين الذين اعترفوا بالصلاة وأركان الدين وإن كانوا قد قصروا بعض الشيء في بعض الأمور، كيف يحكم عليهم بحكم حكم به الخالق سبحانه على من لم ينطق بالتوحيد، ولم يعترف كلية بأركان الدين!

إن مفهوم هذه الآية الأخيرة ــ كما يقول سعد الدين التفتازاني : أن غير المشركين وهم العصاة من المؤمنين ، تنفعهم شفاعة الشافعين لأن مثل هذا الكلام يساق حين تنفع الشفاعة غيرهم فيقصد تقبيح حال الكفرة ، وتخييب أملهم بأنهم ليسوا كذلك إذ لو لم تنفع الشفاعة أحداً ، لما

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٣

(٢) سورة لقمان آية ١٣

(٣) تفسير بن كثير جـ٤ صـ٧٦

(٤) سورة المدثر آيات ٤٣-٤٨

كان في تخصيصهم زيادة تخييب، وتوبيخ لهم[1] كذلك قوله عز وجل حكاية عن حال هؤلاء المشركين في النار حين يقولون لأصنامهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] فهذا التحسر من أهل النار، وهذا البكاء، والنحيب وهم يصطرخون فيها. يفيد أن هناك شفاعة ثابتة لغيرهم، وهم الموحدون، فهؤلاء لهم شفعاء ولهم أصدقاء ينفعونهم في ذلك اليوم بعد أن يأذن الله لهم بهذا.

قال قتادة: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع[3] فهل اطلع الدكتور على هذا القول أم عنه أعرض؟ ليته كان لهذا القول من القارئين.

⇦ أما ما ساقه الدكتور من تدليل على نفي الشفاعة مطلقاً في الآخرة من خلال قوله تعالى من سورة البقرة ((يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة، ولا شفاعة، والكافرون هم الظالمون)) آية ٢٥٤ – وقوله بأن هذه الآية من الآيات المحكمة والقطعية في نفي الشفاعة نهائياً في الآخرة – فلا ينتفع بشفاعة مسلم أو غيره – فهذا قول غير دقيق إذ الآية ختمت بقوله تعالى ((والكافرون هم الظالمون)) فهو مبتدأ محصور في خبره أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً، وقد روى بن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال والكافرون هم الظالمون، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون[4] لأن كل إنسان مسلم أو غيره متلبس بالظلم إلا أن الظلم العظيم هو الشرك والكفر ــ كما ذكرنا سابقاً ــ والآية هنا تنفي أن تكون هناك أنساب أو صداقات تفيد صاحب الظلم العظيم ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[5] وأي شفاعات لا تصل إلى أحد منهم على الإطلاق. وهذا الإطلاق في نفي الشفاعة في الآية الكريمة لا يشمل المسلم الموحد، ذلك لأن هذه الآية من الآيات العامة التي تحمل على غيرها من الآيات المقيدة ــ وهذا ما ذكرناه من قبل ــ ونبهنا الكاتب علي ٥، فمن يتعرض لتفسير آية من القرآن الكريم لابد أن يكون على علم بمسائل أصول الفقه لكي يعرف المطلق والمقيد من الآيات.

---

(١) نقلا عن الشفاعة في الآخرة صـ٣٢ د / القرضاوي .

(٢) الشعراء آيات ٩٧-١٠٢ .

(٣) تفسير بن كثير جـ٣ صـ٣٤٤ .

(٤) تفسير بن كثير جـ١ صـ٢٩٩ .

(٥) سورة المؤمنون آية ١٠١ .

تعريف المطلق والمقيد في علم أصول الفقه:

إذ المطلق : هو ما دل على فرد أو أفراد شائعة بدون قيد مثل رجل وطائر.

والمقيد : هو ما دل على فرد أو أفراد شائعة بقيد مستقل، فيقال رجل طويل، وطائر أبيض.

وعليه فإذا ما جاء في النصوص الشرعية لفظ مطلق في موضع وجاء اللفظ نفسه مقيد في موضع آخر فإنه حينئذ يحمل المطلق على المقيد .

وبالمثال يتضح المقال:

وإذا ما أردنا أن نقرب المسألة للفهم نضرب مثالاً توضيحياً في قوله تعالى:﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾[1] وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[2] فالدم في الآية الأولى ورد مطلقاً، وفي الثانية قُيد بكونه مسفوحاً[3] والحكم في الآيتين واحد، وهو: الضرر المترتب على تناول الدم، فحينئذ يحمل المطلق على المقيد، فلا يحرم إلا الدم المسفوح، وهو السائل عن مكانه، أما غير المسفوح وهو: ما يبقى في اللحم والعروق فإنه لا يحرم[4] .

لذلك رأينا عكرمة يقول في قوله تعالى ((أو دماً مسفوحاً)) لولا -هذا القيد- في الآية لتتبع الناس ما في العروق -من الدم- كما تتبعه اليهود...، وقال قتادة: (حرم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به)[5] انتهى، وقد يسأل سائل: لماذا يحمل المطلق على المقيد دون العكس؟

والجواب: لأن المطلق ساكت عن القيد، فيكون صادقاً بالمطلق والمقيد، وأما المقيد فهو ناطق بالقيد، ومعتد به فيكون صادقاً بالمقيد دون المطلق.

وبهذا يكون حمل المطلق على المقيد إلغاء لبعض المطلق فقط، وحمل المقيد على المطلق إلغاءُ للمقيد كله.

---

(١) سورة المائدة آية (٣) .

(٢) سورة الأنعام آية (١٤٥) .

(٣) المسفوح أي المهراق، يقال سفح الماء هراقة، وسفح دمه أي سفكه، ويقال رجل سفاح – انظر مختار الصحاح مادة سفح صـ٢٦٤ .

(٤) انظر أصول التشريع الإسلامي للشيخ علي حسب الله صـ٢٩٩ وعلم أصول الفقه لأحمد إبراهيم بك صـ ٦٩ ، ٧٠ .

(٥) انظر تفسير بن كثير جـ ٢ صـ١٩٢ .

ولا شك في أن التوفيق بين نصين متعارضين يحمل أحدهما على بعض ما يحتمله، ويصدق به، أولى من إلغاء أحدهما كلية وإبطال دلالاته[1].

وبعد هذا الفاصل التقعيدي من علم أصول الفقه نذهب لتطبيق القاعدة على الآيات الكريمة نعود إلى الآية الكريمة من سورة البقرة لنطبق عليها قاعدة المطلق والمقيد، فإذا كان النفي للشفاعة عاماً كما فهمه الدكتور من الآية فإن هناك غيرها من الآيات التي تقيدها بالشروط المعروفة للشفاعة كالإذن وغيره، فإذا تحققت الشروط تحققت الشفاعة وإذا كان الله تعالى نفى (الخلة) يوم القيامة، في هذه الآية وكذلك الشفاعة، فإنه أثبت الخلة في آية أخرى في قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

ومعنى الخلة المنفية هي خلة أهل لدنيا، الذين تقوم خلتهم ومودتهم على الأهواء والشهوات، والمصالح المادية، وليست خلة أهل التقوى الذين تقوم خلتهم وصحبتهم على محبة الله وطاعته، والولاء لدينه.

فالأولون لا خلة بينهم في الآخرة، بل يكفر بعضهم ببعض ويبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضاً !!

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[3]

والآخرون -أهل التقوى- يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وتظل خلتهم، ومحبتهم معهم حتى يدخلون بها الجنة ﴿ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾[4]

فهل يقول قائل بعد ذلك: إن نفي الخلة الذي ذكر في الآية من سورة البقرة يكون نهائياً، فلا خلة لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا خلة بين أهل التقوى ولا غير أهل التقوى. إذاً ما فائدة الاستثناء والتقيد الذي جاء في سورة الزخرف؟

وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يقول قائل إن الشفاعة المنفية في سورة البقرة نفيها جاء على الإطلاق وإلا فما فائدة الشروط والاستثناءات التي جاءت في آيات أخرى مثل قوله تعالى ﴿ إلا بإذنه ﴾ و ﴿ إلا لمن ارتضى ﴾ الخ ــ كما أسلفنا.

---

(١) أصول التشريع الإسلامي صـ٢٢٨، وانظر اكتساب المناعة صـ١٦٥.

(٢) سورة الزخرف آية ٦٦.

(٣) سورة الفرقان آية ٢٧-٢٩.

(٤) سورة الحجر آية ٤٧.

وبهذا نقول بملء أفواهنا: إن الشفاعة المنفية في هذه الآية لا تشمل جماعة الموحدين من أمة محمد ﷺ النبي الأمين ونسأل الله عز وجل أن يجعله شافعاً لنا.

⇦ ونأتي إلى الآية التي ذكرها الكاتب من سورة الزمر: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ آية (٤٤) حيث ظن أن الآية تؤيده في دعواه نفي الشفاعة!، وفي الحقيقة أن الآية لا يفهم منها نفي الشفاعة بدليل أن الله هو مالك للأمر كله، ولا يقدر أي شافع على الشفاعة إلا من بعد إذنه وهو سبحانه الذي يكرم الشفيع بالإذن له في الشفاعة، وعليه فلا تعارض بين هذه الآية التي تثبت الشفاعة لله جميعاً وبين الآيات التي تسمح بها بإذنه تعالى فمن يسمح بالإذن يملك المأذون فيه من باب أولى، ولذا قال بن القيم رحمه الله في نونيته المشهورة :

وله الشفاعة كلها وهو الذي ... في ذاك يأذن للشفيع الداني

لمن ارتضى ممن يوحد ولم ... يشرك كما جاء في القرآن

⇦ أن الدكتور له رأي آخر: إذ نراه يقف أمام قوله تعالى: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ ﴾ من سورة يونس آية ٣ ويقول معلقاً: فماذا تضيف شفاعة أي شفيع لعلم الله، ومن الذي يجرؤ أن يعدل حكماً حكم به رب العالمين!!؟

ولا أدري من أين أتى بهذا الفهم، فليس هناك إضافات لعلم الله سبحانه، ولا مزايدات على حكمه جل وعلا ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[1] وهو الذي حكم بالإذن للشافع بأن يشفع فماذا في ذلك؟!

⇦ والأغرب أنه يسوق قوله تعالى بعد ذلك من سورة الكهف ﴿ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ آية ٢٦ ويظن أن هذه الشفاعة قد تؤدي إلى إشراك الله في حكمه.

⇦ يعضد ذلك بآية سورة الأنعام: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ آية ٥١ .

ويرى أنها قطعية وصريحة في نفي الشفاعة يوم القيامة والحقيقة أنه لا هذه، ولا تلك تفيد ما أقر الكاتب. بل آية الكهف تؤكد أن الله تعالى له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، لأنه ليس له وزير ولا شريك ولا مشير تعالى وتقدس[2] .

وآية الأنعام تدعوا محمداً ﷺ أن ينذر بالقرآن لعل الناس يتقون، ويعملون أعمالاً صالحة ينجيهم الله بها يوم القيامة من عذابه لأنه ليس لهم قريب ولا شفيع يبعدهم عن عذاب الله تعالى لأن

---

(١) سورة يوسف آية ٤٠ .

(٢) تفسير بن كثير جـ٣ صـ٨٢ .

الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء[1] وذلك لا يعني نفي الشفاعة وعدم إيجادها في الآخرة كليةً، لأن صاحب الأمر من حقه أن يأمر بما يشاء كيف شاء، ومتى شاء، فإذا أذن بالشفاعة فهذا أمره، وبه تفضَّل، وإذا منع فهذا حكمه ، وبه عدل ، وهذا لا يقدح في ملكية الشفاعة لله عز وجل، لأن الله تعالى كما يقول بن تيمية –رحمه الله– (إذا أذن لشافع أن يشفع فشفع لم يكن مستقلاً بالشفاعة، بل يكون مطيعاً له، أي تابعاً له في الشفاعة وتكون شفاعته مقبولة ويكون الأمر كله للآمر المسئول وقد ثبت بنص القرآن في غير آية أن أحداً لا يشفع له بغير إذنه)[2] .

فهل فهم الدكتور الآن أن الإذن بالشفاعة لا يؤدي إلى إشراك أحد في حكم الله ، بل تنفيذه يعد طاعة لأمر الله عز وجل ، الذي له الحكم والأمر، وهل علم بعد السياق السابق من أقوال للمفسرين والعلماء أن نفي الشفاعة في بعض الآيات لا يعني عدم ثبوتها ، إذ الآيات الأخرى تؤكد هذا الثبوت، وتقيد ما كان مطلقاً ؟؟ نرجو ذلك له ولكل من قرأ كتابه، وتأثر بأقواله وإنكاره لمعتقد عظيم وهو الشفاعة. اللهم آمين.

ثانياً : آيات عدم الخروج من النار ، ومناقشة الدكتور مصطفى محمود فيها :

ونأتي إلى الآيات التي استدل بها د/مصطفى محمود في تأبيد من يدخل النار، وعدم الخروج منها، فهو يرى أن هذه الآيات منافية لأحاديث الشفاعة في خروج الموحدين من النار بعد استيفائهم جزاؤهم في نار جهنم وقد ذكر لنا:

⇦ من سورة المائدة ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ آية ٣٧ وزعم أنها تشمل المسلمين وغيرهم ممن دخل النار[3] بينما لو قرأ الدكتور الآية التي سبقتها لعلم أنها خاصة بالكافرين حيث يخبر الحق عن شناعة حالهم فيقول تعالى في آية ٣٦ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ الآية فكيف يحكم الدكتور على المسلمين الموحدين بحكم لم يحكم به الله عز وجل، ويزعم أنها نزلت فيهم وفي الكافرين. إن هذا لشيء عُجاب.

⇦ كذلك ذكر من سورة المؤمنون آية ١٠٧، ١٠٨ ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وادعى نفس الادعاء السابق أنها في الكفار والمسلمين أيضاً

(١) السابق جـ٢ صـ٨٢ وتيسير الكريم الرحمن صـ٢٥٧ عبد الرحمن السعدي .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ١ صـ١١٨ .

(٣) الشفاعة صـ٣١ .

وهذا الادعاء يكذبه السياق القرآني ذاته أيضاً إذ منطوق الآيات السابقة يتحدث عن الذين كذبوا بالآيات الكريمة وماتوا كفاراً فاستحقوا النار، وصور الحق حالهم في النار أبلغ تصوير، فقال تعالى: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[1] يقول بن كثير –رحمه الله– إن هذا جواب الله للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار[2] لكن يبدو أن الدكتور لم يقرأ تلك الآيات السابقة، ولا تفسيرها.

⇦ وكذلك فعل نفس الأمر مع آية سورة البقرة ١٦٧ ﴿ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ بينما الآية في الكافرين وهو يعترف بذلك أخيراً لكنه يعود ويقول إلا أن القرآن يعود ويقول نفس الكلام في المسلمين ويسوق آية النساء: ٩٣ ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ ومن سورة الزمر يقول لمحمد ﷺ في آية ١٩ ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ والكلام لرسول الله مباشرة في استفهام إنكاري إذ ينكر على رسوله أن يقول مثل هذا الكلام عن أهل النار ممن حقت عليهم كلمة العذاب من كفار أو مسلمين[3].

وأقول : إن آية سورة الزمر لا يدخل في سياقها أهل التوحيد ولا أحد من المسلمين بل هي تتحدث عمن لا حيلة في هدايته ووجب له العذاب بسبب كفره، تماماً كالآيات السابقة. وفي ذلك يقول بن عباس –رضي الله عنهما– ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي في علم الله أنه من أهل النار ، يريد أبا لهب وولده[4] فالآية كما يرى بن عباس نزلت في أبي لهب وابنه.

ويقول الشيخ السعدي : أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه، وعناده وكفره فإنه لا حيلة لك في هدايته[5] ويبدو أن الكاتب لم يطلع على سبب النزول، ولم يكن عنده وقت ليتمكن من كتاب تفسير واحد ليعرف ذلك.

⇦ أما آية سورة النساء (٩٣) ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ .

---

(١) الآيات ١٠٤-١٠٨ .

(٢) تفسير بن كثير جـ٣ صـ٢٦٤ .

(٣) الشفاعة صـ٣٢، ٣٣ .

(٤) انظر مختصر تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل جـ٢ صـ٨٠٨ .

(٥) تيسير الكريم الرحمن صـ٧٢٢ .

⇦ وكذلك آيات سورة يونس ٢٦، ٢٧، والتي فيها قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فهذه الآيات وإن كانت حقاً في المسلمين الذين أذنبوا. فليس حقاً الخلود هو: المكث الطويل فيها وعدم الخروج منها كما قال الكاتب صراحة[1] بل المقصود كما يقول المفسرون: المكث الطويل وليس الخلود المؤبد. فبعد استيفاء العذاب يخرج المؤمن الموحد من النار.

والسنة أفادت بذلك حيث تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان[2] إلا أنني أعلم أن الكاتب لا يعترف بالسنة كما رأينا من قبل ومن ثم يحسن أن نناقشه بما يعترف به، ونترك الحديث عن السنة ومناقشته فيما ذكر عنها فيما بعد إن شاء الله ــ ونلزمه بما اعترف به وهو القرآن الذي دائماً يستدل به وحده كما رأينا، بل يصرح ويقول: إن العمد المعتمد في جميع أمور الملة هو القرآن المجيد وما تناقض في كتب السيرة مع القرآن لا نأخذ به[3] ونحن نقر بما أقر به من غير شك، ولا ننكر السنة أيضاً.

وبالقرآن نحاوره ونناقشه ونقول : إن ادعاؤك أن من يدخل من المسلمين النار يخلد فيها، ولا يخرج بعد استحقاق ما عليه من العذاب هو استدلال منقوص من عدة أوجه :

أولاً : ليست الشفاعة كلها فيمن دخل النار مدة ثم أخرج منها، بل جُل الشفاعة فيمن استحقوا أن يدخلوا النار فترة من الزمن، ثم شفع الله فيهم الشافعين المقبولين، وقبل الله شفاعتهم ونجوا من الدخول في النار فماذا يقول الدكتور في هؤلاء، وهم لا تنطبق عليهم الآيات التي ذكرها.

ثانياً : أن الدكتور لو اطلع على كتاب الله جيداً لوجد أن هناك آيات تجيز الخروج من النار بمشيئة الله تعالى ــ مثاله : قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝

(١) انظر الشفاعة صـ٣٣، ٣٤ .

(٢) انظر تفسير بن كثير جـ ١ صـ٥٢٦ .

(٣) صـ٤٢ من كتاب الشفاعة .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

وقوله في سورة هود: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[2] وقوله تعالى في سورة النبأ: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾[3] والحقب على ما ذكره كثير من المفسرين ثمانون سنة، كل يوم فيه كألف سنة مما تعدون ومهما يطل أمد الأحقاب فإن لها نهاية[4].

وقد اتخذ الإمام بن القيم رحمه الله من هذه الآيات، ومن بعض الأخبار، والآثار الواردة أن النار يمكن أن تفنى وينتهي عذاب أهلها، كما بيَّن ذلك من عشرين وجهاً في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، وكما حقق ذلك في كتابه شفاء العليل في مسائل القدر، والحكمة، والتعليل وجمهور العلماء يحملون هذه الآيات والآثار على أهل التوحيد الذين يدخلون النار فترة ثم يخرجون منها.[5]

ثالثاً: إننا إن لم نجوز خروج العصاة من أهل الإيمان من النار لسوينا بين التوحيد، والشرك وبين الإيمان والكفر في النتيجة مع أن القرآن الكريم فرق بينهما تفريقاً حاسماً في آيتين من كتابه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[6] ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾[7].

---

(١) سورة الأنعام آية ٨، ١٢.
(٢) سورة هود آية ١٠٦-١٠٧
(٣) سورة النبأ آية ٢١-٢٣
(٤) انظر تفسير بن كثير جـ٤ صـ٤٧٤ وتيسير الكريم الرحمن صـ٩٠٧
(٥) انظر الشفاعة في الآخرة صـ٣٥ د/القرضاوي
(٦) سورة النساء آية ٤٨
(٧) سورة النساء آية ١١٦

فنفى سبحانه مغفرة الشرك بإطلاق، وجعل ما دونه من الذنوب بمشيئة الله تعالى كما أن القرآن فيه تأكيدات على أن حسنات الكفار مهددة في الآخرة بحيث لا يستحقون عليها دخول الجنة، لأنها فقدت أساس القبول، وهو: الإيمان بالله وحده قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾[1].

وقال عز وجل :﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾[2].

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾[3].

رابعاً : إن الذين يخرجون من النار ليدخلوا الجنة من الموحدين لا يخرجون من النار بالشفاعة وحدها فمنهم : من يخرج باستيفاء مدة الاستحقاق ، ومنهم : من يخرج منهم بشفاعة الشافعين، ومنهم : من يخرج بفضل الله تعالى، وعفوه، ورحمته.

وعليه فلا وجه لإنكار خروج من استوفى جزاؤه، ولا لمن لطف الله تعالى به بعفوه فهو العفو الغفور. ألم يقل سبحانه في الحديث القدسي الصحيح عن الله تعالى إن رحمتي سبقت غضبي[4].

وفي القرآن : ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾[5] ألم يفطن لذلك الدكتور العزيز، ويطلب من الله الرحمة والمغفرة ، وأن يكون من أهل الشفاعة. اللهم اغفر لي وله، وعد به إلى الحق يا رب العالمين، وثبتنا على هذا الدين القويم، وكل المسلمين.

---

(١) سورة النور آية ٣٩

(٢) سورة إبراهيم آية ١٨

(٣) سورة الفرقان آية ٢٣ .

(٤) أنظر الشفاعة في الآخرة صـ٣٥ ، ٣٦ .

(٥) سورة الأعراف آية ١٥٦ .

المطلب الثاني
مناقشة المنطق العقلي الذي استخدمه الدكتور مصطفى محمود في نفي الشفاعة وتقييده

بعد أن أخفق الدكتور مصطفى محمود في نفي الشفاعة عن طريق الآيات القرآنية، وتفسيرها الخاطيء – كما رأينا– لجأ إلى استخدام المنطق العقلي للوصول إلى ما يريد. فقرر: أن الشفاعة إذا سلمنا بثبوتها فإنها تنافي العدل الإلهي القائم على مجازاة كل إنسان بعمله ، وهذه عند الدكتور هي فوضى الوسايط التي نعرفها في الدنيا ، ولا وجود لها في الآخرة [1] وقال: لا يعقل من نبي القرآن أن يطالب بهدم القرآن [2] .

والمسلمون عنده : عرفوا بالاتكالية وباتوا يفعلون كل منكر ويرتكبون عظائم الأمور اتكالاً على نبيهم الذي سوف يخرجهم في حفنة واحدة من النار ويلقي بهم في الجنة[3] .

ثم طالب القراء أن يحتكموا إلى العقل في هذا المعتقد ، وليختار كل منهم الفهم الذي يروق لعقله ويبتعدوا عن الهياج[4] – يقصد الردود الغاضبة ضد منطقه في الشفاعة .

ونحن نرى : أن ما ذهب إليه الدكتور هنا منطق ضعيف ومذهب غريب، وعجيب، فهو يريد من القراء أن يحتكموا إلى العقل – في معتقد الشفاعة ، وأن يختار كل منهم ما يروق لعقله وفكره ، ولا ينظر إلى شيء آخر . ونسي أن يتحدث عن معتقد ثبت بالكتاب ، والسنة ! فالله عز وجل قد حكم بثبوت الشفاعة ، وتفضل بها على عباده في كتابه العزيز وارشد إلى ذلك نبيه ورسوله الكريم ﷺ بأحاديث صحيحه. وإذا حكم الله ورسوله وقضيا بأمر ما كان لأحد الخيرة من أمره ، واختيار ما يروق لعقله كما يظن الكاتب بل عليه التسليم والطاعة. وكل المسلمين كذلك – ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[5] .

وهذا لا يعني إلغاء العقل وعدم استخدامه فالعقل له مكانته في الإسلام ، ولكن وظيفته معلومة، وغير مجهولة فهو في الإسلام خادم للنص، وليس سيداً عليه كما يريد أن يجعله الدكتور . ولتوضيح هذه المسألة وإثبات أن ما ذهب إليه لا يقوم عل أساس متين يجب أن أوضح النقاط التالية.

---

[1] انظر الشفاعة ص١٩

[2] نفسه ص١٩

[3] نفسه ص ٤٣

[4] راجع ص ٨٤ ، ٨٥ – الشفاعة

[5] سورة البقرة آية ٢٨٥

أولاً: العقل في الإسلام وعلاقته بمسائل الغيب :

لم يهمل الإسلام العقل الذي أنعم الله به على الإنسان دون سائر الكائنات ، بل جعل له مكاناً ومكانة، وجعله أداة للتمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والكفر والإيمان. وبه يستدل على وجود الله عز وجل ، وإمكان الوحي ، ووقوعه.

وهناك حشد هائل من النصوص في كتاب الله عز وجل يثبت ذلك ، ويوضح مكانة العقل في الإسلام.

قال عز وجل : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ [1] .

وقال تبارك اسمه : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [2] .

وقال جل شأنه : ﴿ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [3] .

وقال تعالى وتقدس : ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [4] .

وقال جل جلاله : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ [5] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [6] .

إلى غير ذلك من الآيات التي عقلها العالمون ، واستدلوا بها على وحدانية الله سبحانه ، وقدرته ، بل قال العلماء أيضاً: (إنه بالعقل يستدل كذلك على إثبات المعجزة ، وصدق رسالة محمد ﷺ ، وأن القرآن العظيم وحي الله إليه). لكن بعد ذلك يعزل العقل نفسه ليتلقى عن الوحي تفاصيل العقيدة والشريعة ، فكل ما جاء به الوحي المعصوم من عقائد يجب على العقل أن يصدق بها – إيماناً بالغيب وإن لم يكن يعرف كُنهها ، ما دامت غير مستحيلة عقلاً.[7]

والشفاعة من أمور الغيب ، وأحوال الآخرة بإقرار الدكتور مصطفى محمود الذي قال بالنص – بعد أن أنكر الشفاعة بمنطقه العقلي : (أقول ذلك اجتهاداً ، والله أعلم فالموضوع غيب)[8] .

إذن هذا اعتراف أن الموضوع غيب ، والعقل له حدوده ولا يمكنه أن يحكم على أمر غيبي بالنفي وعدم الثبوت ، فكيف يسمح الدكتور لنفسه أن يجتهد في أمر غيبي – ألم يعلم أنه لا اجتهاد في أمور الغيب بل هي تعرف بالوحي والسماع ، وطالما أن الإنسان قد آمن بالله ورسله ،

---

[1] سورة الأنبياء آية ٢١

[2] سورة الرعد آية ١٣

[3] سورة النحل آية ١٦

[4] سورة الشعراء آية ٢٦

[5] سورة الأنفال آية ٨

[6] سورة العنكبوت آية ٢٩

[7] انظر الشفاعة في الآخرة ص ٣٦ ، ٣٧ د/ يوسف القرضاوي

[8] انظر كتابه الشفاعة ص ٤٠

وقال أنا مسلم فعليه أن يسلم بكل ما جاء ، والشفاعة جاء بإثباتها الوحي ، ولا يقطع بأنها من المستحيلات العقلية أو يترتب عليها مستحيل فعلينا أن نؤمن بها ، ولا نردها طالما أن هناك آيات تثبتها وأحاديث صحيحة توردها – كما أسلفنا الذكر – وهي شأن غيبي ، والإيمان بالغيب من أبرز صفات المسلم.

قال عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

فكان الأولى بالدكتور معرفة أمور الغيب ، أو الحكمة منها ، وإذا قصر عقل المسلم على إدراك سر الحكمة في شيء تفضل به الله تعالى على خلقه فالأولى أن يردد القول الذي قالته الملائكة حينما عجزت عن سر خلق الإنسان في الأرض فقالت : ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2]

وهذا هو شأن كل العقلاء الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً. وبالقرآن إماماً فإنهم يأخذون أمر الشفاعة التي تفضل بها الخالق باطمئنان ويعلمون أن لها حكمة تليق بكمال من منحها لمستحقيها، فضلاً من عنده ورحمة ولطفاً ، وإن لم يدركوا كل سرها فإنهم يبادرون إلى القول الملائكي السابق بلا تردد .

ثانياً : العقل يقر بأن الشفاعة لا تنافي العدل الإلهي :

ونأتي إلى ما ذهب إليه الكاتب من القول بأن ثبوت الشفاعة ينافي العدل الإلهي ! وهذا القول هو دليل تلبس الكاتب بفكر المعتزلة ، وأصولهم ، فهم الذين أوجبوا على الله عز وجل أموراً ، ردها علماء أهل السنة ، وأثبتوا أنه لا يجب على الله عز وجل شيء – وذلك معلوم في مواضعه – لكن الكاتب ردد هذا المبدأ الاعتزالي ، وأراد من خلاله نفي الشفاعة ، وادعى أن العدل الإلهي قائم على مجازاة كل إنسان بعمله ، والشفاعة لا تؤدي إلى ذلك بل تؤدي إلى فوضى الوسايط[3] ... إلخ.

ونسي أن الله تعالى لا يتعامل مع عباده بالعدل وحده ، بل بالعدل والفضل والرحمة معاً. وهذا التعامل يعم العباد في الدنيا والآخرة .

ففي الدنيا : لو عاملنا الحق بعدله وحده – كما يظن الدكتور – لهلك من في الأرض جميعاً : قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة آيات ٣ – ٥

(٢) سورة البقرة آية ٣٢ ، وانظر د/ القرضاوي الشفاعة في الآخرة ص ٣٧

(٣) ص ١٩ الشفاعة

(٤) سورة فاطر آية ٤٥

وقال تبارك وتعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١).

فلم يقل سبحانه ليذيقهم كل الذي عملوا ، بل قال بعض الذي عملوا ، ليؤكد أن ذلك ليس انتقاماً بل تنبيه لعلهم يرجعون وقال عز شأنه﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ (٢) فلولا عفوه عن كثير من ظلمنا لأنفسنا لأهلكنا بعدله سبحانه.

وفي الآخرة الحق سبحانه يعدل في السيئة ويتكرم بالفضل مع الحسنة : ودليله قوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) .

فنلحظ أن التعامل مع الحسنة كان بالفضل والزيادة بعشرة أمثالها والتعامل مع السيئة بالعدل بمثلها.

بل إن هذا الفضل يزداد سعة في موضوع آخر ، فلو أنفق المسلم نفقة لوجه الله خالصة لزادها الحق تبارك وتعالى إلى سبعمائة وأكثر ، وقد جاء التأكيد على ذلك في سورة البقرة قال سبحانه :﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

وأخرج البخاري ومسلم حديثاً عن رسول الله ﷺ جاء في : (إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله عز وجل)(٥) .

وروى أبو ذر – رضي الله عنه– حديثاً قدسياً عن رسول الله ﷺ جاء فيه أن الله تعالى يقول : (ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ... ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة)(٦) .

الله أكبر إنه لكرم عظيم ، من أكرم الأكرمين يتفضل به الحق على جماعة الموحدين ، المقرين بنبوة ورسالة خير العالمين ولا ينكره إلا مغالط فالخير على المسلم نازل لا ينقطع من قبل

---

(١) سورة الروم آية ٤١

(٢) سورة الشورى آية ٣٠

(٣) سورة الأنعام آية ١٦٠

(٤) سورة البقرة آية ٢٦١

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان باب حسن إسلام المرء ج١ ، ص١٠٠ ومسلم في الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت رقم ١٢٩ ط١ ص١١٨

(٦) انظر مختصر البغوي المسمى معالم التنزيل ج ٢ ، ص ٢٨٣

الرحمن لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يمكن أن تحبط حسنات المسلم إلا إذا ارتد ، ـــ والعياذ بالله ـــ فذلك هو الخسران العظيم . قال جل شأنه : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (١)

أما السيئة : فقد فتح الله تعالى لإزالتها والتطهر من آثارها أبواباً كثيرة تُعد بمثابة أنهار للمسلم يغتسل من خلالها ، منها: التوبة ، والاستغفار ، وعمل الصالحات ، من وضوء وصلاة ، وصيام وصدقة ، وحج ، وعمرة ، ودعاء ، وتلاوة قرآن ، وجهاد ، وبلايا ، ومصائب يصبر عليها المسلم، وسكرات موت. ومنها صلاة الجنازة والصدقات وغير ذلك فمن لم يطهره نهر ، طهره نهر آخر ، مغسلة بعد مغسلة ، وفرصة بعد أخرى حتى يلقى الله طاهراً إذا حالفه التوفيق .

وعليه يتضح أن فضل الله عز وجل فوق عدله ، ورحمته تشمل كل الموحدين ، وتكرمه يفتح أبواباً للخير والتطهر من الذنوب لا يخفى على مسلم عارف بدينه ، وعالم بكرم ربه.

بل إنه عز وجل يدعو عباده بأن ينشروا التكرم والفضل بينهم ، ولا يكتفوا في معاملاتهم بقانون العدل وحده وإن كان هذا من حقهم بل ينبغي أن يرتقوا إلى قانون الفضل ، فهو أفضل ، وأمثل ، قال تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ (٢) .

وقال جل ذكره : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٣) .

فمعاقبة السيئة بمثلها هو ما يدعو إليه قانون العدل، أما العفو عن السيئة فهو ما يدعو إليه قانون الفضل ، والمؤمنون مندوبون إليه.(٤)

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٥) .

حقاً إنه توجيه عظيم يدفع بالنفس دفعاً إلى أن ترتقي إلى درجات الفضل ولا تقف عند جانب العدل فحسب. والموجه لذلك هو الرب عز وجل ، فكيف به سبحانه يوجهنا إلى أن نتعامل فيما بيننا بالفضل ، ولا يفعل هو ذلك ، وهو القادر عليه، وهو أهل لكل فضل وكمال.

وقد تفضل علينا بالشفاعة وجعلها من الجوانب التبشيرية التي يسر بها قلب المسلم حين يسمع الحديث عنها في كل وقت وحين.

---

(١) سورة المائدة آية ٥

(٢) سورة الشورى

(٣) سورة النحل آية ١٢٦

(٤) الشفاعة في الآخرة ص ٤٠ ، ٤١

(٥) سورة فصلت آية ٣٤

وثبوتها لا ينافي أبداً العدل الإلهي كما ظن الدكتور مصطفى محمود ، وظنه هذا – بعد ما قدمنا من أدلة – لا يغني من الحق شيئاً ، ولا يمكن أن يهدم معتقد المسلمين في الشفاعة.

ثالثاً: العقل لا يجعل الشفاعة من المستحيلات بل هي أشبه بلجان الرأفة:

إن المحكم للعقل في مسألة الشفاعة بعد أن يرى توكيد آيات القرآن الكريم ، ونصوص السنة المطهرة على ذلك . يتبين أمامه أن ثبوتها ليس مستحيلاً ، وهي غير شبيهة بفوضى الوسايط في الدنيا لكل من هب ودب بل هي لمن يستحقها يوم الحساب ، إذا أذن الله عز وجل بذلك، وهذا الأمر لا غرابة فيه ، فالشفاعة التي يرجوها النبي الكريم – كما يقول الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – (إنما تدرك صنفاً من الناس تأرجحت موازين الحق والباطل في أعماله فهو بين السقوط والنجاح.

ونحن في حياتنا اليومية، ننظر إلى التلاميذ في لجان الامتحان فنرى منهم من يقترب من النجاح ويحتاج على درجة ، أو نصف درجة ، فننظر إليه نظرة رأفة ونعقد له – لجنة تسمى لجنة الرأفة – فتجبر نقصهم وتوصلهم إلى النجاح ، أما الذين يبتعدوا عن المستوى الأدنى للنجاح مسافة بعيدة فإننا نحكم بسقوطهم فوراً ولا يمكن لأحد أن يطلب نجاحهم)[1] .

وهذا الذي ذكره الشيخ الغزالي – رحمه الله – يقرب أمامنا مبدأ الشفاعة ، وأنها ليست مستحيلة – كما ظن الدكتور محمود. فهي ليست للعتاة الذين أقروا بذلك وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، واحتاجوا إلى لجنة رأفة ، أو قل لجنة شفاعة في الآخرة رئيسها محمد بن عبد الله ﷺ فلا مانع أن يشفع لهم هذا النبي الكريم ، وبقية الشفعاء من بعده ، بإذن من خالقهم ، وراحمهم أرحم الرحمين.

فكما أن لجنة الرأفة في الدنيا أعطت الطلاب درجات جُبر بها نقصهم ، وارتفعت من خلالها علاماتهم ، وأنقذوا من الرسوب والسقوط بذلك ، وإن كان الجبر ، والارتفاع للدرجات هذا ليس من مستحقاتهم بموجب العدل الصارم.

إلا أنهم أخذوا ذلك بموجب الرحمة، والرأفة من لجنة الرأفة ، ولم يعب أحد على ذلك بل أقره الجميع.

فكذلك بموجب الرحمة والرأفة من الرحيم يوم القيامة سينال هؤلاء شفاعة النبي الكريم ، وكل من أذن له بذلك رب العالمين.

رابعاً: العقل يدرك أن الشفاعة تنويه بمكانة الشافع ولا غرابة في ذلك:

والعقل السليم أيضاً الذي يتخذه المسلم خادماً للنصوص وليس سيداً عليها – كما يفعل الدكتور– يدرك أن الشفاعة بمثابة إشادة بمنزلة الشافع وتنويه بمكانه عند ربه ، والنبي ﷺ الذي يستغرب شفاعته الدكتور مصطفى محمود – ويقول في إحدى صفحات كتابه : (لا يعقل أن

(١) انظر عقيدة المسلم ص ٢٦٨ الشيخ محمد الغزالي

يساوم النبي ربه ويطلب الشفاعة لمن دخل النار ، وما كان له أن يفعل هذا إن هي إلا تخرصات وأكاذيب)[1] .

هذا النبي هو حبيب الله ، ومن خيرة خلقه ، وخاتم أنبيائه، وفي الدنيا ما ودعه ربه ولا قلاه وأعطاه كل ما ترضى به نفسه وأقسم باسمه ﷺ في كتابه :﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[2] وجعله قائداً لتعليم مكارم الأخلاق ، ووصفه بأنه صاحب الخلق العظيم :﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[3] .

وأعطاه صفوة آدم ، وعظمة نوح ، وعلم داوود ، وهيبة سليمان، ووقار إلياس وحكمة لقمان، وجمال يوسف، وصبر أيوب ، وشأن الخضر، إن صاحب هذه المنازل كلها من المكارم والصفات الراقية ، لا يقبل صاحب عقل سليم وإيمان قويم ، القول فيه بأنه يساوم ربه يوم القيامة ! وهل من أعطاه ربه كل صفات الخير هذه يحتاج أن يساوم ربه في مثل أمر كالشفاعة ، وهل الحبيب يا دكتور محمود يحتاج إلى مساومة مع من أحبه.

إن الذي أحبه هو الله عز وجل، ومن أحب يعطي للمحبوب كل ما يريد، فالله إذا أعطى نبيه ﷺ حق الشفاعة لأمته – فهذا الأمر ليس من باب التخرصات والأكاذيب كما تظن ، بل من الحقائق الثابتة بالكتاب والسنة ، وإجماع الأمة وتحليلات العقلاء ، فكل عاقل يعلم أن إعطاء هذه الشفاعة لهذا النبي يوم القيامة إشادة بمنزلته ، وتكريماً لشخصيته ، وكذلك إعطائها للملائكة ، والأنبياء والصالحين فلا غرابة أن يمنح هذا النبي الكريم ، وبقية الشفعاء حق هذه الشفاعة في بعض العباد من الله الكريم ، لأن الملك ملكه ، والخلق خلقه ، وهو فعَّال لما يريد، فإذا أخرج قوماً من النار بالشفاعة فلا تستغرب أيها الدكتور ، ولا تظن أن مبدأ العدل قد سقط ، وأن ناموس المساواة قد خُدش ، وأن الأوراق قد اختلطت ، والحقوق قد ضاعت ، كل ذلك لم يكن.

ألم تسمع في مجتمعاتنا، أو في تلك المناسبات الخاصة التي تقام فيها – كعيد الفطر أو الأضحى أو مناسبة الأوقات التي تصادف أوقات ميلاد الحاكم أو جلوسه على عرش الحكم ، أو غير ذلك. أن هذا الحاكم سواء أكان ملكاً، أو رئيساً، يفرج عن بعض المسجونين ممن قضوا أغلب المدد المحكوم عليهم بها ، ويراد إشعارهم بفضل المناسبة التي ستسوق لهم العفو والحرية .

وهذه الحرية الممنوحة بالعفو العام لا يمكن أن تخدش أصل العقوبة التي قررت من قبل القضاة ، ولا يفهم منها أنه لا ضرورة لسن القوانين ، وبناء المحاكم وتعيين القضاة[4] – كما تريد أن تفهمنا من أنه لا ضرورة للعدالة طالما هناك شفاعة. !!

---

(١) راجع ص ٢٥ من كتاب الشفاعة

(٢) سورة الحجر آية ٧٢

(٣) سورة القلم آية ٤

(٤) انظر عقيدة المسلم ص ٢٦٨ ، ٢٦٩

فالعدالة قائمة وثابتة ، والفضل من الله تعالى بتجاوزها – كما أشرنا – فإذا وقف الشافع يتضرع إلى الله ، يوم الزحام ليخرج الناس من حر الموقف أو يخرج من أدى ما عليه من العذاب في النار ، ولا يمكث فيها خالداً مخلداً ويجثوا أمام ربه بهذا فلا بأس في ذلك ولا يمكن أن يكون هذا التضرع مساومة – كم سميت – ولا يمكن كذلك أن يكون النبي الشافع قد فرض رأيه على ربه ، وقلب موازين العدالة في ذلك اليوم – كما سطرت هذه النتيجة في أكثر من موضع في كتابك.[1]

فهذا لا يمكن أن يقنع القارئ المسلم، لأنه قد علم أنه لا كلام يوم القيامة إلا بإذن ، ولا شفاعة إلا بحق ولا قول إلا بصواب، ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾[2] .

فمرد الأمر كله لله وحده ، وأردد ما قاله الدكتور – القرضاوي في هذا الشأن من أنه ليس بمستغرب على عقل المؤمن أن يشفع النبي ﷺ بإذن من الله لأهل الكبائر من أمته، ولا غرابة أن يشفع بعض الربانيين من أمته في بعض العصاة الذين ماتوا على التوحيد، وأي غرابة أن يشفع الشهداء لعدد كذا ، وكذا من أمته مكافأة لهم على استشهادهم، وبذلهم لأرواحهم في سبيل الله.

إن العقل – السليم – يجد عند التدبر أن ذلك مقتضى الكمال الإلهي الأعلى ، ومقتضى الرحمة التي وسعت كل شيء، ومقتضى الفضل الإلهي الذي يعطي من يشاء بغير حساب[3] ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[4] .

فليحدثنا الدكتور محمود بعد ذلك بأي عقل هو يفكر ويتدبر، ويستغرب، ممن يعتقدون بثبوت الشفاعة ؟!!! إنا للإجابة لمنتظرون.

خامساً: التركيز على العقل وحده في مسائل الشرع يؤدي لشطحات :

وهذا هو ما وقع فيه الكاتب ساعة أن اعتمد على العقل وحده في مسألة الشفاعة، ودعا القراء إلى أن يحتكموا إلى العقل في هذا المعتقد ، ويبتعدوا عن الهياج – على حد تعبيره[5]... إلخ.

واستخدام العقل وحده دون أن يرد إلى مسلمات العقيدة، ويضبط بمحكمات الشريعة ، وقواطع الأصول ، فيه من الخطر ما فيه ، فهو بالرغم من عدم إهماله في الإسلام – كما أسلفنا –

(١) انظر نص هذه الأقوال في ص ٤٤ ، ٤٥ من كتابه الشفاعة

(٢) سورة النبأ آية ٣٨

(٣) انظر الشفاعة في الآخرة ص ٤٢ د/ القرضاوي

(٤) سورة آل عمران آية ٧٣ ، ٧٤

(٥) انظر ص ٨٥ ، ٨٥ من كتابه الشفاعة

إلا أن الاعتماد عليه وحده يجعل صاحبه يشرد عن الحق ، ويضل لأنه لم يهتد بمنارات الطريق ، والعواصم من القواصم، والله تعالى يقول:﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

والدكتور مصطفى محمود لما بعد عن جعل الشرع رائداً للعقل، وهادياً له في مسألة الشفاعة شرد عن الجادة كثيراً لدرجة أنه فاق أساتذته (العقلانيين) الذين تأثر بهم كثيراً في هذا الأمر – أقصد المعتزلة .

وهاك أمثلة على شطحاته:

⇦ زعمه أن الشفاعة المذكورة في القرآن الكريم ليست هي شفاعة النبي ﷺ بل هي المغفرة من الله تعالى وهذا نص قوله : (فهو وحده الذي يتكرم بهذه المغفرة ، وهو وحده المفوض إليه في كل الأمور وهذا معنىَ الآية ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾[2] .

وأقول للدكتور: إن هذا التأويل لم يذكره أي مفسر من قبلك حتى المعتزلة، ذلك لأن مسمى الشفاعة جاء ضد الوتر فهو يدل على دخول طرف ثان بإذن الله جل جلاله – كما تقدم في تعريف الشفاعة لغوياً . ولو كان ما ذهب إليه الدكتور بعقله هو الصواب في الآية لقال الله تعالى: قل لله العفو جميعاً، أو المغفرة جميعاً، ولم يذكر اسم الشفاعة. وهذا يعني أن ما ذهب هو عين الخطأ.

⇦ تخيله أن شفاعة الملائكة في القرآن هي بشارة: ومن شطحات الدكتور أيضاً تخيله أن شفاعة الملائكة للبعض والتي وردت في سورة الأنبياء ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[3] هي بمثابة بشارة أو تشبه تهنئة النجاح. فيقول ما نصه (وشفاعة الملائكة للبعض في القرآن لا تأتي أبداً سابقة للحكم الإلهي بالعفو... فالحكم يأتي أولاً وتكون شفاعة الملائكة أشبه بالبشارة[4]، ... إذن فهي بشارة وليست شفاعة وهي أقرب إلى التهنئة بالنجاح)[5].

ولننظر كيف أن الله عز وجل يقول ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ ويسميها الحق شفاعة ، والدكتور يصر على أنها بشارة وليست شفاعة، ولم أر باحثاً واحداً، أو مفسراً معتبراً قال بمثل ما قال الكاتب حول الآية الكريمة– إنه يفسر بعقله وهواه ويصر على رأيه الذي يخالف به كل المعاجم اللغوية، وكل كتب التفسير ، ونسي قول النبي ﷺ القائل فيه : (من قال في القرآن بغير

---

[4] سورة آل عمران آية ١٠١

[5] سورة الزمر آية ٤٤ وانظر كتابه الشفاعة ص ٣٩

[1] سورة الأنبياء آية ٢٨

[2] ص ٣٥ من كتابه الشفاعة

[3] ص ٣٦ من كتابه الشفاعة

علم فليتبوأ مقعده من النار)[1] وقد ذم السلف تفسير كتاب الله بالرأي الذي لا يستند إلى دليل كما ذموا الرأي المخالف للنصوص ، والرأي يعتمد على الخرص والظن.[2]

وجل ما ذهب إليه المفسرون في هذه الآية أنها إذن بشفاعة الملائكة لأهل التوحيد في الآخرة ويستغفرون لهم في الدنيا كما نص على ذلك التنزيل[3] .

⇦ الدكتور مصطفى محمود ينكر بعقله المقام المحمود: ثم يتمادى الدكتور مصطفى محمود في التفسير بالرأي، والشطحات العقلية تتوالى في ذلك فتراه ينتقل إلى موضوع المقام المحمود الذي ذكر في القرآن الكريم في سورة الإسراء ﴿ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[4] فيقول: (ويبقى السؤال عن المقام المحمود ما هو، ومن يكون الموعود به في القرآن الكريم، ومن كان المخاطب بذلك في السورة)[5] ؟!!

وهذا مدخل لإنكاره للمقام المحمود الذي يعرفه كل المسلمين من أنه هو مقام الشفاعة !! لكن الدكتور ما زال يسأل عنه !! ثم يقول: (ومن الموعود به والمخاطب به)[6] ؟؟!!

فهل يا ترى حقاً لا يعرف من هو المخاطي بهذا المقام المحمود ؟

لكن نفاجأ أنه يقرر أن المخاطب هو النبي ﷺ فيقول: (والمخاطب هو محمد – عليه الصلاة والسلام – وحده لا سواه بلا شك)[7] .

وهنا نقدم الحمد لله أن الدكتور عرف وعلم أن المخاطب هو محمد عليه الصلاة والسلام فنشكر الله على ذلك. لأنه سيترتب عليه اهتداء الكاتب أنه عليه الصلاة والسلام هو صاحب المقام المحمود، وهو الشفيع لأن المقام عند كل المفسرين هو مقام الشفاعة[8] – والمسلمون جميعاً يعلمون ذلك.

لكن الرجل يقول: (ولا أحد منا يعلم موجبات المقام المحمود ولا حدوده فهو سر من أسرار الله، والجدل فيه جدل بغير علم ولا نخوض فيه ، ونرى أن التفويض أسلم)[9] .

---

(١) رواه الترمزي في كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه وقال حديث حسنٌ صحيح وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنه

(٢) أنظر أعلام الموقعين ج ١– ص ٩٦،٩٧ لابن القيم الجوزية .

(٣) راجع تفسير القرطبي ج١١ ص ٢٤٨ وابن كثير ج٣ ص ١٨٠ وج٤ ص ٢٥٨

(٤) سورة الإسراء آية ٧٩

(٥) الشفاعة ص ٣٩

(٦) الشفاعة ص ٣٩

(٧) الشفاعة ص ٤٠

(٨) انظر تفسير ابن كثير ج٣ ص ٥٦، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠

(٩) الشفاعة ص ٣٩ ، ٤٠

ثم يقول : (ويذكر المفسرون أنه مقام الشفاعة العظمى ، ولا نخوض معهم.... لأن الله هو أرحم الرحمين وليس له منافس في هذا، ولا يجوز أن يكون له منافس ولم تذكر كلمة شفيع عن الرسول إطلاقاً – أقول ذلك: اجتهاداً. والله أعلم فالموضوع غيب)[1] .

وهكذا نرى أن فكر الرجل في هذا الأمر ما زال شارداً ، أو على الأقل هو يريد أن يفهمنا أنه كذلك ويتخبط بقلمه يمنة ويسرة، فمرة يقول: المخاطب هو رسول الله ﷺ بالمقام المحمود، ثم يقول: لكنه ليس هو الشفع لأنه لم يذكر في القرآن إطلاقاً أنه شفيع، ومرة يقول: أنا لا أفسر بل أفوض الأمر ، ويعيب على المفسرين أنهم فسروا المقام المحمود بالشفاعة والشفيع هو الرسول !!

ثم يدعى أنه يفوض ولا يحكم بشيء لكنه يحكم ويفسر بخلاف ما قال المفسرون ويقول: إن صاحب المقام ليس هو المصطفى ﷺ ولا نراه يفوض، ويدعي في النهاية أنه قال: ذلك (اجتهاداً) لأن الأمر غيب وهو يعلم أنه لا اجتهاد مع الغيب ،!!

فهو في النهاية خاض ، وفسر ، وحكم ، وأنكر ، أن الرسول ﷺ هو صاحب الشفاعة ظاناً أنه لو قال ذلك فسيبني عليه: أن الله تعالى له شريك ، ومنافس ، ولا يصح أن يكون له منافس.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل هذا كلام باحث عاقل قرأ القرآن والتزم به ، وعرف بما فيه.

إن الدكتور يقول في نفس الصفحة: (أنا ألتزم بالقرآن ولا أخوض مع المفسرين)[2] ، وإذا كان الأمر كذلك حقاً، أما علم أن في القرآن الكريم إذن من الله بالشفاعة لمن يشاء ، ويرضى فالقرآن فيه إذن بالشفاعة ، والمأذون له لا يكون أبداً شريكاً ومنافساً للذي أذن له، فلو فوض الدكتور رجلاً في شيء ما قائلاً له: افعل ما تشاء من الخير – إكراماً لك – فهل لو فعل يكون منافساً لك يا دكتور ، وشريكاً لك؟.

وعليه – ولله المثل الأعلى – فلو أعطى الله تعالى مقام الشفاعة العظمى لحبيبه ، ومصطفاه، ليظهر منزلته عنده أمام الخلائق كافة يوم الزحام، ويتفضل عليه بم وعده، وهو: وقوفه في هذا المقام شفيعاً، ووقف الرسول ﷺ خاشعاً متضرعاً راجياً أن يخرج الناس من هول هذا الموقف إلى ما يشاء سبحانه، فهل يكن ذلك في تخيلك منافسة وتضاد. وهل المتضرع الراجي يكون منافساً للمرجو؟! حقيقة لا أدري بأي عقلية ينظر إلينا الدكتور، ولا بأي منطق يخاطبنا.

ثم هو فوق ذلك يعيب على المفسرين أنهم فسروا وقرروا بالأدلة والأحاديث الصحيحة التي ذكرنا طرفاً منها من قبل – أن المقام هو مقام الشفاعة العظمى.

---

(١) الشفاعة ص ٤٠

(٢) ص ٤٠ من الكتاب السابق

وأن المقصود هو الرسول ﷺ في الآية والسورة مع أنه هو الذي أقر كما في ص ٣٩ من كتابه أن المخاطب هنا هو الرسول ﷺ ثم يقول للمفسرين: أنتم أخطأتم لما قلتم: إن محمداً ﷺ الشفيع، فيقول لكنه ليس هو الشفيع.

ونقول له: فمن يكون إذن إذا لم يكن محمد هو الشفيع من يكون يا دكتور – هل هو بولس الرسول عند النصارى أم يوحنا التلميذ، أم ماذا؟ أخبرنا يا رجل ؟!!

ثم أنت تعيب على كبار المفسرين وتخالفهم بدون حجة إلا الظن والاجتهاد العقلي، وهل الظن يوصلك للحق في أمور الغيب؟ أما علم الدكتور أن هؤلاء أقرب لفهم القرآن، وأكثر معايشة للقرآن منا ، إنهم نقلوا لنا عمن هو أقرب عهداً بالنبي ﷺ وهم كبار الصحابة من أمثال ابن عباس وابن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وأبي هريرة ومن التابعين من أمثال عكرمة ، وقتادة ، وغير هؤلاء كثير ممن نقل عنهم المفسرون ، أتعيب على هؤلاء التفسير، ثم تفسر أنت برأيك وعقلك وتقول: ليس الشفيع يوم الزحام في هذا لمقام هو خير الأنام عليه الصلاة، وأتم السلام، فماذا لو أخبرناك بأن المفسرين – عند أهل السنة – ليسوا وحدهم الذين قالوا وأقروا بعكس ما قلت، بل كبار أساتذة الكاتب من العقلانيين وهم (المعتزلة) ، فهم بالرغم من شطحاتهم لم ينكروا ما أنكر الكاتب ، ولم يؤولوا ما تأوله، وإن كانوا أنكروا شفاعات أخرى[1] إلا أنهم لم ينكروا مقام الشفاعة المحمود الذي ينكره الدكتور مصطفى محمود.

فها هو القاضي عبد الجبار يقول : (لا خلاف بين الأئمة في أن شفاعة النبي ثابتة للأمة إنما الخلاف في أنها تثبت لمن ؟ فعندنا أن الشفاعة للتائبين من المؤمنين ، وعند المرجئة أنها للفساق من أهل الصلاة)[2] .

وكما قلنا من قبل: المعتزلة بنوا ذلك على نظريتهم في الوعد والوعيد والصلاح والأصلح، والتي ناقشهم فيها أهل السنة وردوها[3]. إلا أنهم لم ينكروا المقام المحمود وهو الشفاعة العظمى.

والدكتور هو الوحيد فيما أعلم الذي خالف ما أجمعت عليه الأمة في مسألة المقام المحمود، وشطح بعقله بعيداً وإن كان المعتزلة هم قدوته في ذلك، إلا أنه فاقهم في هذه المسألة بدون وجه حق، وأقول في النهاية للدكتور ولأمثاله وأقرانه من معتزلة العصر أو من يسايرهم : لا يصح تغليب العقل على النقل فيما أوحى الله عز وجل .

(١) مثل الشفاعة في مرتكب الكبيرة وغيرها كم تقدم

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٦٨٨ للقاضي عبد الجبار

(٣) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ج١ ص ٣٨١ ، وتفسير القرطبي ج١ ص ٣٢٣

فلابد في مسائل الشرع من وضع الأمور في نصابها ، ولابد من التوازن والاعتدال فمن يؤول بدون اتباع قواعد التأويل المحمود كما وضعها العلماء الأجلاء[1]، ويجعل العقل رائده في هذا الشأن فقد أتى بهتاناً وإثماً مبيناً.

وإن كان المعتزلة قديماً. ما أنكروا المقام المحمود – كما أنكر الدكتور إلا أن لهم شطحات عقلية – كانت ذات تأثير في الدكتور وغيره ، وقد تمثلت هذه الشطحات في تقديمهم العقل على النقل فبعدوا عن الصراط المستقيم صراط التوازن والاعتدال ، فتأولوا في الشفاعات الأخرى، وأنكروها ، وتأولوا في الصراط ، والميزان ، ورؤية الله في الجنة وإنكارهم ذلك[2] .

وكذلك تفاصيل الثواب والعقاب، إذ تأولوا في ذلك تأويلات كثيرة فيها تكلف لا ينشرح به صدر اللغة ، ولا يستريح إليه أهل الشرع . وردوا كثيراً من صحاح الأحاديث لمجرد الاستبعاد، ومن المعلوم أن الغرور بالعقل وحده – كما يقول الدكتور القرضاوي[3] – دون الاهتداء بالشرع – خطر على الإنسان ، فلقد غلب المعتزلة العقل على النقل، والعدل على الرحمة والوعيد على الوعد ولو أن هؤلاء أعملوا – ومعهم أخونا الدكتور – العقل في ضوء النقل، وضموا إلى قانون العدل – قانون الرحمة والفضل ، وجمعوا بين الوعد والوعيد ، لتجلى لهم الكمال الإلهي على حقيقته ، وبدا لهم التوازن في الأمور دون شطحات، وهذا التوازن واضح في الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] وفي قوله تعالى :﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾.[5] ، وفي قوله عز وجل:﴿ وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.[6]

---

(١) راجع للتعرف على ذلك بتفصيل كتابانا قضية التأويل بين الشيعة وأهل السنة عرض وتقديم ص ٣٦٥ طبعة دار المنار بمصر وتوزيع مكتبة الرشد بالسعودية

(٢) للمزيد راجع بحثنا – رؤية الله بين المعتزلة وأهل السنة – الثقافة الدينية – مصر – طبعة ٢٠٠٥م

(٣) انظر الشفاعة في الآخرة ص ٤٣ ، ٤٤

(٤) سورة المائدة آية ٩٨

(٥) سورة الحجر آية ٤٩ ، ٥٠

(٦) سورة الحديد آية ٢٠

ونلحظ في هذه الآيات الكريمة أن المغفرة والرحمة من أسماء الله تعالى وصفاته، وأن العذاب من أفعاله، وما أعظم الفرق بين الأمرين.

فالرحمة والمغفرة هما أمل الإنسان المؤمن المقصر في كثير من الأمور – فيخاف من عذاب الله عز وجل إلا أنه يجد أملاً في فضل الله ورحمته. فنجده دائماً يجمع بين الخوف من العذاب والرجاء في هذا الفضل العظيم قال تعالى:﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1].

والشفاعة هي من الفضائل التي تفضل بها الله على هذه الأمة تكريماً للنبي الكريم، ونطق بها الكتاب العظيم وتواترت بها السنة المطهرة ، وهذا سيقودنا في المبحث إلى مناقشة موقف الدكتور مصطفى محمود من هذه السنة التي نطقت أحاديثها الصحيحة بالشفاعة التي تفضل بها الله عز وجل لكن الدكتور أنكرها بلا دليل.

[1] سورة يونس آية ٥٨

المبحث الثالث
مناقشة موقف الدكتور مصطفى محمود
من السنة المطهرة التي أكدت على ثبوت الشفاعة

تمهيد :

قبل مناقشة الدكتور في موقفه من السنة المطهرة يحسن أن أقدم تعريفاً موجزاً عن مفهوم السنة لغة واصطلاحاً ، ومكانتها في الإسلام ، وما هو الواجب على المسلم تجاه السنة.

مفهوم السنة ومكانتها في الإسلام:

١- السنة في اللغة : تعني الطريقة، يقال استقام فلان على سنة واحدة ، أي طريق واحد ، وسنة واحدة أي طريقة واحدة[١] وفي القرآن الكريم ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[٢] أي الطريقة أو العادة التي جرى عليها حكم الله سبحانه وتعالى في المكذبين المخالفين فسنة الله فيهم أن يعاقبهم أو يأخذهم بالعذاب لما خالفوا الرسل[٣].

وفي الحديث: (لتتبعن سنن من كان قبلكم)[٤] أي طرق من كان قبلكم من الأمم. وقد تطلق ويراد بها الطريقة المحمودة المستقيمة[٥].

٢- السنة في اصطلاح علماء الشرع : تطلق السنة في اصطلاح علماء الشرع من محدثين وأصوليين وفقهاء ويراد بها: كل ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.[٦]

ويذكر ابن تيمية (أن السنة طريقة رسول الله ﷺ والتسنن بسلوكها وإصابتها، وهي عنده ثلاثة أقسام أقوال ، وأعمال ، وعقائد).[٧]

ويوسع الشاطبي الدائرة أكثر فيضيف أن (لفظ السنة – في الإسلام – يطلق أيضاً على ما عمل عليه الصحابة ، وجد ذلك في الكتاب والسنة أو لم يوجد، لكونه اتباعاً لسنة ثبتت عندهم لم تنقل إلينا، أو اجتهاداً مجتمعاً عليه منهم ، أو من خلفائهم فإن إجماعهم إجماع ... إلخ.)[٨] إذن فالمفهوم الاصطلاحي للسنة هو اتباع ما ثبت عن النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ، والتصديق به.

---

(١) انظر مختار الصحاح مادة سنن ص ٢٧٨

(٢) سورة فاطر آية ٤٣

(٣) مكانة السنة في الإسلام د/ صالح الفوزان ص ٦

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ج٣ / ١٢٧٤ج / ٣٢٦٩ مسلم ج٤ / ٢٠٥٤ / ج ٢٦٦٩

(٥) انظر المصباح المنير ص ٢٩٢ ، ولسان العرب د ١٧ ص ٩٠

(٦) انظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٥٣ د/ مصطفى السباعي

(٧) نقض المنطق ١٢٧

(٨) الموافقات للشاطبي ج٤ ص ٣،٤ ، وللمزيد انظر كتابنا قضية التأويل بين الشيعة وأهل السنة ص ٣٤١

٣- أهمية السنة ، ومكانتها في الإسلام : للسنة مكانة عظيمة ، ومنزلة جليلة في الإسلام، فهي: المصدر الثاني بعد القرآن الكريم للمسلمين، إذ القرآن العظيم هو الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام ، من عقائد وعبادات، وأخلاق، ومعاملات ، وآداب.

والسنة هي : البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن الكريم في ذلك كله.[١] ومن هنا تتجلى أهمية السنة حيث إنها تفسير للقرآن وتبيين له كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٢].

فالله تعالى انزل القرآن ، ووكل بيانه إلى رسوله ﷺ وهذا البيان هو السنة. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[٣]. فيبين للأمة – كيفية الإخلاص في الاعتقاد وعبادة الواحد سبحانه، وابتعاد الناس عن الشركيات، ويبين لهم أمور الآخرة، وما يجري فيها. كما يبين أمور العبادات، والزكاة والحج ، وما يتعلق بكل ذلك... إلخ[٤]

٤- الواجب على المسلم تجاه السنة: وإذا كانت السنة مبينة للكتاب العزيز فالواجب على المسلم اتباعها ، والعمل بما جاءت به من أحكام، وتوجيهات وطاعة الرسول فيها واجبة ، تماماً كما يطاع فيما بلغه من آيات القرآن ، وقد دل على ذلك القرآن الكريم ، ودلت على ذلك السنة نفسها، ودل على ذلك إجماع الأمة صحابة وتابعين وعلماء وهاك تفصيل:

أما طاعة الرسول من خلال القرآن العظيم : فقد ثبت ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾[٥]. فطاعة الرسول بجوار طاعة الله تعالى واجبة. وقوله تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله).[٦] فيه أن طاعته طاعة لله سبحانه ، وهذه الطاعة تظهر ثمرة طيبة ، وثمرها الهداية. قال سبحانه:﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾[٧].

وأمر المؤمنين بالاستجابة لدعوته، وأقواله، ففي ذلك الحياة الطيبة دنيا وآخرة: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[٨]. وأوجب الرجوع إليه

---

(١) انظر المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة ، ضوابط ومحاذير في الفهم والتفسير ص ٦٣ د/ يوسف القرضاوي مكتبة وهبة

(٢) سورة النحل آية ٤٤

(٣) سورة إبراهيم آية ٤

(٤) انظر مكانة السنة في الإسلام ص ٨-١٠ د/ الفوزان

(٥) سورة النساء آية ٥٩

(٦) سورة النساء آية ٨

(٧) سورة النور آية ٥٤

(٨) سورة الأنفال آية ٢٤

عند التنازع والاختلاف قال سبحانه: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾[1].

وإذا حكم الرسول ﷺ فلا خيار في قبول حكمه لأن حكمه من حكم الله تعالى: قال عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ ﴾[2]. وحذر سبحانه من مخالفة أمر رسوله عيه الصلاة والسلام ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3]. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي توجب على المسلم طاعة الرسول في كل أقواله وأفعاله وتقريراته، وتحث على الاقتداء به ﷺ.

☜ أدلة طاعة الرسول ﷺ من السنة: وهذه الأدلة لا تخفى على المطلع لكتب السنة، فهناك حشد هائل من الأحاديث الكريمة توجه المسلم على وجوب طاعة الرسول الكريم، عليه من الله أفضل صلاة وأتم تسليم منها : حديث : (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي)[5]. وحديث: (عليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ...)[6].

كما أن هناك أحاديث توجب وتحث عل نشر السنة وإذاعتها على الناس جميعاً منها حديث: (نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه)[7]. وبلفظ آخر: (نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع، فرب مبلّغ أوعى من سامع)[8].

وفي حجة الوداع قال عليه الصلاة والسلام: (ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه)[9]. إلى غير ذلك من الأحاديث التي تبين أهمية السنة، ومكانتها، وضرورة حفظها ، والعمل بها، ونشرها باعتبارها: المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في الإسلام.

☜ إجماع الأمة على الأخذ بالسنة : لقد ثبت منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم أن الأخذ بالسنة أمر عليه الإجماع ، فلا حكم إلا بالقرآن والسنة ، وإرجاع كل الأحكام إليهما، وذلك

---

(١) سورة النساء آية ٥٩

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٦

(٣) سورة النور آية ٦٣

(٤) رواه الإمام مالك في الموطأ ج٢ / ٨٩٩ ، ح ١٥٩٤

(٥) رواه أبو داوود في السنن ج٤ ح / ٤٦٠٧ ، والترمزي في الجامع ٥ / ٤٤ / ح ٢٦٧٦ وأحمد في المسند ١٢٦/٤

(٦) رواه الترمزي من حديث زيد بن ثابت رقم ٢٦٥٨

(٧) رواه الترمزي من حديث عبد الله بن مسعود ٢٦٥٩

(٨) رواه البخاري من حديث أبي بكره ج١ / ٢٤

استجابة لأوامر الله، تعالى ورسوله الكريم، فالسنة قرينة للقرآن، وأصل من أصول الشريعة الإسلامية، ولا غنى للمسلمين عنها في أي وقت من الأوقات.

ففي عهد الصحابة الكرام لم يتخلف أحدهم من الرجوع إليها، ومضى على ذلك الخلفاء الراشدون (فها هو أبو بكر – رضي الله عنه– جاءته إحدى الجدات في خلافاته بعد موت حفيدها تطلب نصيبها من تركته فقال لها: ما أجد لكي في كتاب الله شيئاً، وما علمت رسول الله ﷺ ذكر لكي شيئاً ، ثم سأل الناس فقام المغيرة بن شعبة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال: هل معك أحد فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه أبو بكر رضى الله عنه)[1] .

وهنا نلحظ مدى دقة الصدِّيق – رضوان الله عليه– في الحكم ومدى بحثه عن التثبت فيما ورد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ولما ثبت له فعل النبي وقوله – نفذه على عجل بدون تردد، وهكذا كان عمر، وعثمان، وعلي وبقية الصحابة رضوان الله عليهم يرجعون إلى السنة بعد القرآن لمعرفة ما تعبد الله به عباده من الحلال والحرام، وسائر الأحكام[2]. واستمر هذا بعدهم في عصر التابعين وعند فقهاء الأمصار وأئمة المذاهب، وأصحابهم، وتلاميذهم ، وغدت السنة للجميع المصدر الغني الخصب في كل أبواب العلوم. وفي ذلك يقول الدكتور القرضاوي مشيراً إلى إجماع الأمة حول الأخذ بالسنة: (إن الأمة طوال تاريخها اعتمدت على السنة ، وجعلتها المصدر الثاني لفقهها، وتشريعها، ولتوجيهها، وتثقيفها، وقد لمسنا ذلك عند الفقهاء، والأصوليين، والدعاة، والمربيين ، والمحدثين، والمفسرين، والمتكلمين ، والصوفيين كلهم جعلوا السنة بعد القرآن عمدتهم).[3]

إذن الأخذ بالسنة أمر ثابت عند كل أطياف الأمة من بدء الرسالة العظيمة إلى يومنا هذا، بل إلى يوم القيامة بإذن الله رب العالمين. ولا يخالف في ذلك عاقل.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن بعد هذا الحديث الموجز عن السنة، وضرورة الأخذ بها هل الدكتور مصطفى محمود يأخذ بالسنة في القضية التي آثارها – الشفاعة – أم ينكرها بناء على أن عقله لا يقبل قبول الاعتقاد بالشفاعة ، وهل الرجل يعترف بالإنكار للسنة أم لا يعترف ، وهل الدكتور على مبدأ ثابت في كل ما يقول أم أنه متذبذب وليس له مبدءاً مستقراً في هذا الشأن؟؟؟ كل هذه الأسئلة تظهر أجوبتها في مناقشتنا لموقفه من السنة فيما يلي:

---

(١) انظر المرجعية العليا في الإسلام ... ص٦٨

(٢) انظر المصدر السابق ص ٦٨ ، ٦٩

(٣) راجع الشفاعة في الآخرة ص ٥٠ ، ٥١ ، والمرجعية العليا في الإسلام ص ٧٠ : ٨١

مناقشة الدكتور مصطفى محمود في أغاليطه حول السنة التي تؤكد ثبوت الشفاعة

: لقد نقلت من قبل أقوال الدكتور مصطفى محمود في السنة، والآن سأفصل الحديث عنها ، وأقوم بمناقشتها ، بعد أن أحدد أهم النقاط التي حملتها أقواله السابقة، والتي سنستدعيها أثناء المناقشة:

ويمكن تحديد أبرز المزاعم أو الدعاوى التي أطلقها الدكتور تجاه السنة في النقاط التالية :

- زعمه أن الأحاديث المتواترة في الشفاعة لا يؤخذ بها.
- زعمه أن الأحاديث أو السنة التي تتحدث عن الشفاعة تعارض القرآن الكريم.
- زعمه أن الله عز وجل لم يحفظ السنة بل حفظ لنا القرآن فقط، وهو وحده الذي يجب اعتماد المسلمين عليه.
- قوله إن السنة لم يأمر الرسول ﷺ بتدوينها، بل نهى عن ذلك ، وأنها لم تدون إلا في عهد السلاطين وأصحاب القصور لأغراض في نفوسهم.
- زعمه أن هناك أحاديث دخلت في كتب السنة عن طريق اليهود، وأن الرسول لا علاقة له بها كحديث سحر النبي ﷺ ، وغيره، إلخ. ولذا لا ثقة في السنة على الإطلاق عند الرجل.

تلك هي أبرز المزاعم التي أقاضي فيها الدكتور في هذا البحث – وليكن بيننا الأدلة والبراهين من كتاب الله وسنة نبيه ، وإجماع الأمة ، وكذلك لا نغفل المنطق العقلي السليم الذي يتوافق مع الكتاب والسنة ولنبدأ النقاش :

المطلب الأول: مغالطة الدكتور حول عدم الأخذ بالأحاديث المتواترة في الشفاعة :

هذه أولى السقطات الفكرية للدكتور إذ يقول ما نصه : (تروي لنا الأحاديث النبوية: بأن محمداً ﷺ يقف شفيعاً يوم القيامة للمذنبين، ولأهل الكبائر من أمته وأن الله يقبل شفاعته، وتتواتر الأحاديث في هذا المعنى بصيغات مختلفة في البخاري وغيره، ويقف المسلمون أمام الاختيار الصعب بين النفي القرآني، وبين ما جاء في السنة. والأحاديث بذلك تخالف صحيح القرآن.[1] ثم يقول: وكل ما جاء بهذا المعنى مشكوك في سنده... إلخ.[2]

الرد :

إن كلام الكاتب يدل على جهل فاضح بعدم علمه لدرجات الحديث وعدم معرفته متى يقبل الحديث ومتى يرفض، والأولى بمن عنده هذه الصفة ألا يشكك في السند أو المسند.

فالرجل يقول : وتتواتر الأحاديث بهذا المعنى – للشفاعة – ثم يقول : كل ما جاء بهذا المعنى مشكوك في سنده فهو ينكر إذاً هذه الأحاديث المتواترة. علماً بأن الأحاديث المتواترة عند

---

(١) انظر الشفاعة ص ١١ ، ١٦ ، ١٧

(٢) انظر الشفاعة ص ١٩

المتخصصين في هذا الفن تفيد العلم الضروري الذي لا شك فيه ، لذلك قالوا في أقسام الحديث أنها قسمان (متواتر وآحاد).

ـ أما المتواتر فهو: ما رواه جماعة عن جماعة إلى رسول الله ﷺ يستحيل عادة تواطئهم على الكذب، ورواياتهم تفيد العلم اليقيني بالإجماع، وهذا ثابت لكل خبر متواتر دينياً كان أو دنيوياً.

وقد اختلف العلماء في عدد التواتر ما هو؟ هل هو أربعة أم إثنى عشر إلى أربعين، إلى سبعين ، إلى ثلاثمائة، إلى ألف وخمسمائة، إلى ألف وسبعمائة ، إلى مجموع الأمة.

والحق الذي عليه الأكثرية، أنه لا يوجد دليل على تحديد معين، والمدار هو: حصول الطمأنينة بأن مثل هؤلاء تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ، ولابد أن ينتهي الخبر إلى أمر حسي كالرؤية ، أو سماعي ، لا عقلي يعرف بطريق النظر ، والاستنباط. ولابد أن يستمر التواتر في كل حلقات السند، من مبدئه إلى منتهاه، وإلا ما حكم عليه بالتواتر.[1]

إذن فالحديث المتواتر يزيد المؤمن اطمئناناً فيما يحمله لكن الدكتور يزيده شكاً، وهو بهذا يخالف ما عرف عند العلماء ، بل إن ابن حزم – الأندلسي – رحمه الله – يقول عن الخبر المتواتر : (وهذا خبر لم يختلف مسلمان في وجوب الأخذ به ، وفي أنه حق مقطوع على غيبه)[2].

لكن الملاحظ أن الكاتب ، لم يأخذ به ، ولا هو حجة عنده ، لا لدليل يحمله في ذلك بل لمجرد الانتصار لفكرته حول الشفاعة، حتى وإن خالف في ذلك كل الدلائل والحقائق، وهذا هو ما يفهم حقاً من موقفه الذي نراه الآن، مستعيناً في هذا الشأن بالظنون والأوهام العقلية، تجاه الأمور السمعية، ولو تأمل حقاً في موقف المعتزلة ، الذين يسير على خطاهم في الاستنباطات العقلية ، لوجدهم يفارقونه في هذه الرواية تجاه المتواتر من الأحاديث.

فها هو شيخهم القاضي عبد الجبار يقول في تقسيمه للأخبار (إن منها ما يعلم صدقه اضطراراً كالأخبار المتواترة)[3].

لكن يبدوا أن الدكتور على جهل بذلك أيضاً، ولم يقف حتى على ما كتبه أساتذته في المدرسة العقلية السابقة، وادعى أن المتواتر لا يفيد الصدق، وسؤالنا: إذا كان المتواتر لا يفيد الصدق ومشكوك فيه، فأي شيء يفيد الصدق والثبوت، ويقطع بضرورة ذلك يا دكتور؟.

وإلى أن يجيب الدكتور ، إن وجد عنده جواب وهو بالقطع غير موجود أنقل إليه ما كتبه علماؤنا الأجلاء وأجمع عليه كل العقلاء من أبناء الأمة، من قول جاء فيه : (إنه لا خلاف في أن السنة المتواترة ، وبعبارة أخرى الحديث المتواتر تثبت به العقيدة عند جميع المتكلمين ، والأصوليين،

---

(١) انظر أحكام الأصول في علم الأصول، للقاضي أبي الوليد الباجي ص ٣٥٢ – ٣٦١، تحقيق عبد الله الجبوري، انظر المرجعية العليا في الإسلام ص ١١٢ ـ ١١٣ ، وكتاب مكانة السنة في الإسلام ص ٢٤

(٢) انظر الإحكام – لابن حزم ج١ ص ١٠٤

(٣) انظر شرح الأصول الخمسة ص ٧٧٨

وخصوصاً من أهل السنة ، سواء تعلقت هذه العقيدة بالإلهيات ، أم بالنبوات أم بالسمعيات . وأمور الآخرة.[1] والشفاعة أمر سمعي لا يصح رد الأحاديث التي أثبتتها.[2]

المطلب الثاني : دعوى تعارض السنة مع القرآن الكريم في الشفاعة :

وهذه الدعوى ادعاها الدكتور مصطفى محمود في أكثر من موضوع في كتابه ، وزعم أن الأحاديث التي سيقت في الشفاعة وتواترت بها كتب السنة مثل الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في البخاري والقائل فيه (إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)[3]. وحديث (لكل نبي دعوة فأريد إن شاء الله أن أخبئ دعوتي شفاعة لأمتي)[4]. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة والتي ذكرنا طرفاً منها من قبل وهي مجملة عنده تعارض الآيات المحكمات التي جاءت في نفي الشفاعة. وأن القرآن من وجهة نظره قطع بذلك[5].

واستشهد بالحديث الوارد عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ والذي فيه أن كل من قال لا لإله إلا الله سيخرج من النار رغم أنف أبي ذر وقال: (هكذا يقول الحديث وهو ما يخالف صريح القرآن.. الذي يقول في محكم آياته ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[6] .

كذلك استشهد على دعواه بقوله تعالى :﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[7] .

وقال: النبي يشكو أمته في القرآن ولا يتوسط لمذنبيها ، وهي شكوي صريحة، وكلام مناقض لأي شفاعة[8]. فلا تستخفنكم الأحاديث التي تدخلكم الجنة بغير حساب لمجرد أن تلفظتم بكلمة التوحيد[9] فكلها تتعارض مع القرآن عنده.

---

(١) انظر المرجعية العليا في الإسلام ص ١١٦

(٢) يجب أن يعلم أن أحاديث الآحاد وهي القسم الثاني من أقسام الحديث يعمل بها أيضاً طالما ثبت صحتها، وقد رد علماء أهل السنة بأدلة قوية على من رفض ذلك، للمزيد راجع مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الإصلاح تحقيق د/ عائشة عبد الرحمن ص ١٠٠ وما بعدها . والباعث الحثيث للشيخ شاكر ص ١١٨ / ١٢٥٠، والمرجع السابق ص ١١٦ : ١٢٤

(٣) صحيح البخاري كتاب الرفاق بيان صفة الجنة والنار ص ٩٦٧

(٤) عن أبي هريرة في كتاب اللؤلؤ والمرجان ص ١٢١

(٥) انظر كتابه الشفاعة ص ١٦ ، ٢٢

(٦) سورة النساء آية ١٤٥

(٧) سورة الفرقان آية ٣٠

(٨) انظر الشفاعة ص ١٦ ، ١٧ ، ١٨

(٩) انظر الشفاعة ص ٢٦

وأرد على هذه الادعاءات وأقول : إن آفة الدكتور مصطفى محمود قائمة على التسرع في الأحكام بدون دليل ولا علم. فالرجل يطلق أحكامه، ويتصرف في كتاب الله تعالى وسنة نبيه بدون مبالاة لكي يصل إلى البرهنة على ما يريد دون أن يرجع إلى المتخصصين، والثقاة في هذا الشأن. والدليل على تسرعه وجهله بما يقول ما يلي :

أولاً: دعواه أن القرآن الكريم قطع في آياته المحكمات بنفي الشفاعة قول غير صحيح ، وقدر رددنا عليه من قبل وأثبتنا بالأدلة على أن القرآن لم ينف مطلق الشفاعة كما زعم الدكتور بل الشفاعة المنفية هي: التي ادعاها المشركون، والمنحرفون، والتي كانت من أسباب فساد أهل الأديان الأخرى الذين اقترفوا الموبقات، واتكلوا على أن شفعاءهم، ووسطائهم سيرفعون عنهم العقوبة لا محالة – كما يفعل الملوك الظلمة وحكام الجور في الدنيا.

وقلنا إن الإسلام نفى هذه الشفاعة، وأثبت شفاعة أخرى بضوابط وشروط. فلماذا إصرار الدكتور على ذلك؟ ولماذا الإيمان ببعض الكتاب والإعراض عن البعض الآخر.

ثانياً: إن المعروف ، والمقطوع به عند أهل العلم المعتبرين أن السنة الصحيحة لا تعارض القرآن، ولا يمكن بأي حال أن يتناقضا لأنهما من وحي واحد ومشكاة واحدة فإن بدا تناقض في الظاهر – بين حديث وآية، فإن الحديث حينئذ سيكون غير صحيح، أو يكون فهمنا له غير مستقيم ، والعقل لم يصل إلى المعنى المراد ، أو يكون التناقض والتعارض في الأصل موهوماً لا حقيقياً.[1]

ثالثاً: إن استشهاد الدكتور بحديث أبي ذر ، وادعاؤه أنه يتعارض مع قوله تعالى: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) يدل على مدى جهله – هداه الله – أو على ما يسميه علماء الأصول بالجهل المركب، وهو تصور الشيء على خلاف ما هو به – فهذا جهل – ثم اعتقاد القائل بأنه على صواب في تصوره هذا – وهذا جهل آخر، فلذلك صار جهلاً مركباً.

وجهل الدكتور يتمثل في تصوره أن من زنا ومن سرق لا تشمله الشفاعة والآية تنطبق عليه، وهذا خطأ، فقد يزني المسلم، ويسرق ولكن لم يخرج عن ملة الإسلام. لأنه ليس منافقاً خالصاً ، وهو مرادنا هنا حيث قد تشمله الشفاعة أما المنافق الخالص فهو: الذي يستوي مع المشرك ويخرج عن التوحيد وملة الإسلام وهذا لا يقبل منه صرف ولا عدل وهو من المخلدين في النار[2] لأنه ينبذ التوحيد، ولم يقر به . يقول ابن كثير رحمه الله في هذه الآية (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) أي يوم القيامة جزاءً على كفرهم الغليظ[3]. ومن المعلوم أن المسلم الموحد قد تقع منه جريمة الزنى والعياذ بالله – والسرقة، والقتل إلخ ولم يكفر بشهادة الجميع طالما يردد لا إله إلا الله، وحسابه على الله عز وجل، ولا يخرج عن أهل الشفاعة لأنه من أمة محمد ﷺ.

---

(١) كتاب الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار نقلاً عن اكتساب المناعة ص ٣٠ ، ٣١

(٢) انظر المراجعات ص ٤٦ الشيخ الشريم

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٥٨

رابعاً : كذلك استشهاده بآية الفرقان: (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً). ليؤيد دعوى التعارض بين السنة والقرآن المزعومة كما توهم ذلك لأن الآية ليست واردة في حق المؤمنين – كما يقول المفسرون ، الذين لم يرجع لأقوالهم الدكتور وهم أهل التخصص بل هي جاءت في معرض شكواه ﷺ أمام ربه عز وجل من المشركين قومه ، وعشيرته الذين كانوا لا يصغون للقرآن ، ولا يستمعونه ، بل كانوا يدعون اتباعهم إلى عدم الاستماع للقرآن واللغو فيه ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾[1]. فكانوا إذا تلى عليهم أكثروا اللغط، والكلام في غيره حتى لا يسمعونه. فهذا من هجرانه، وأيضاً ترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره من هجرانه)[3]. نسأل الله لا يجعلنا من هؤلاء بل ممن يتدبرونه ويعملون به على الوجه الذي يرضيه سبحانه .

فأين التناقض بين أحاديث الشفاعة، والآية الكريمة ؟ إنه لا يوجد أي تناقض في الحقيقة إلا في ذهن الكاتب نفسه كما صور له خياله ذلك الوهم، أما القرآن والسنة الصحيحة، فلا يتناقضان ولا يتعارضان لأن المتناقضين كما هو معلوم عند المنطقيين هما ما لا يجتمعان ، ولا يرتفعان.

أما الكتاب والسنة فيجتمعان ولا تنافر بينهما لأنهما كما قلنا – من مشكاة واحدة ولذا نردد قول صاحب الكواشف الجليلة (إننا نشهد الله وملائكته أنه ليس في حديث رسول الله ﷺ ما يخالف القرآن ولا ما يخلف صريح العقل ، بل كلامه بيان للقرآن تفسير له ، وتفصيل لما أجمله)[4]

خامساً: أما استخفافه بالمسلمين ، وزعمه أن كلمة التوحيد التي يتلفظون بها لا تدخلهم الجنة، وأن التوحيد ليس كلمة تقال إنما حقيقة تملأ القلب، ويترجمها العمل..إلخ.

فإننا نوافقه في الجزء الأخير الداعي إلى العمل والسعي في الأرض، وأن يعمل الموحد ويتوكل ، ولا يتكل فالإسلام يدعو إلى التوكل وليس التواكل، كل هذا نوافقه عليه.

لكن استخفافه بالموحدين، وادعائه أن التوحيد لا ينجي المسلم، ولا يكون سبباً من أسباب الشفاعة، فإننا نرفضه بل ونضرب على يد من يدعيه، بحجة واضحة وجلية، وهي أن جماعة الموحدين لا يمكن أبداً أن يتساووا مع المشركين بالله والكافرين الذين كذبوا بآياته سبحانه، وجعلوا له أنداداً واستخفوا برسوله – عليه الصلاة والسلام – واتهموه بالسحر، والشعوذة، والجنون، لا يمكن أبداً أن يستوي الفريقان، قال تعالى﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾[4] .

---

(١) سورة فصلت آية ٢٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٢٢

(٣) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ص ٤٤٨ عبد العزيز المحمد السلمان ١٤٠٢هـ

(٤) سورة فاطر آيات ١٩ – ٢١

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[1].

والدكتور هو الذي كان يتحدث في أكثر من موضع في كتابه عن العدالة، ويطلبها، فهل من العدالة يا دكتور أن يستوي أبو جهل مع أبي بكر رضي الله عنه؟ وهل يستوي الوليد بن المغيرة، مع عمر بن الخطاب رضوان الله عليه؟ وهل يستوي أبو لهب ، وشيبة، وعتبة ابنا ربيعة مع أقل المؤمنين إيماناً، هل يستوي من شرح الله صدره الإسلام، وأقر لسانه بتوحيد الرحمن، حتى وإن عصى وارتكب كثيراً من المعاصي والذنوب وهو غير مستحل لها، هل يستوي مع هؤلاء الكفار الذين جحدوا بآيات الله، وأرادوا قتل رسوله؟ فأي الفرقين أحق بشيء من الإكرام؟ أليس الموحد المتلفظ لسانه بالتوحيد والمقر برسالة النبي الرحيم أقرب إلى كرم رب العالمين بأن يشمله بسبب ذلك بالشفاعة، هل هذا على الله ببعيد؟ خاصة بعدما ثبت في كتب الصحاح أن الموحدين الذين ماتوا على الإسلام ورجحت سيئاتهم على حسناتهم فإنهم يدخلون النار فيعذبون فيها بمقدار عملهم ثم يخرجون منها بالشفاعة، فليس الأمر على إطلاقه كما يتوهم الكاتب وليس باب الجنة (سبهللة) على تعبير الكاتب ، بل كل له حسابه وجزاؤه ثم يكرم بعد ذلك أهل التوحيد بالشفاعة.

فكيف إذن يسخر الكتب من أهل التوحيد ويزعم أن الأحاديث التي طمأنتهم بهذا الكرم من الله عز وجل تتضارب وتتعارض مع القرآن العظيم مع أن القرآن هو الذي جاء فيه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[3] فهل يعترض الكاتب على مشيئة الله عز وجل ؟!

سادساً : انتهى إلى القول بأن دعوى تعارض السنة مع القرآن ليس الدكتور هو مبتدعها، بل هو ناقل ومردد فقط. وللأسف دون فهم للعواقب التي ستبنى على عدم تمحيصه ونقله دون روية[2]، والذين نقل عنهم الدكتور هم المعتزلة فقد ركب هؤلاء كما يقول – صاحب كتاب المرجعية العليا متن الشطط حين اجترءوا على رد الأحاديث الصحيحة المستفيضة في إثبات الشفاعة في الآخرة للرسول ﷺ ولإخوانه الأنبياء والملائكة ، وصالحي المؤمنين في عصاة الموحدين ... والمعتزلة فعلوا ذلك لتغليبهم الوعد على الوعيد والعدل على الرحمة، والعقل على النقل فأعرضوا عن هذه الأحاديث مع قوة ثبوتها وشبهتهم أنها تعارض القرآن الذي نفى – في زعمهم – شفاعة الشافعين[4] .

---

(١) سورة غافر آية ٥٨

(٢) سورة النساء آية ٤٨

(٣) إنها تؤدي على إنكار السنة التي تجمع الأمة على قبولها

(٤) انظر المرجعية العليا في الإسلام ص ١٣١ ، ١٣٢ ، والشفاعة في الآخرة ص٤٥ ، ٤٧ ، وكيف نتعامل مع السنة النبوية د/ القرضاوي ص ٥٩

وتماماً فعل الدكتور محمود، وشبهته أنها تعارض القرآن الكريم الذي نفى شفاعة الشافعين، فالرجل نقل ولم يفكر ، وحكم ، ولم يتدبر، واعترض ولم يبرهن ، فهل يحق أن يوصف الدكتور – كما هو شائع الآن – أن يوصف بأنه مفكر إسلامي في هذه القضية، أم كحاطب ليل يجمع وينقل بدون رؤية ولا روية. إنني اترك الحكم للقارىء الكريم.

المطلب الثالث : زعمه عدم حفظ السنة ووجوب الاعتماد على القرآن وحده :

وفي ذلك يقول الدكتور : (وللأسف الشديد نحن نقرأ كتب السيرة بتسليم مطلق وكأنها قرآن منزل ، ومحفوظ ، والله لم يقل لنا إنه تولى حفظ هذه الكتب إلا القرآن، وكل ما عدا القرآن يجب أن يخضع للنقد)[1] .

ثم يقول في موضع آخر: (والعمدة المعتمد في جميع أمور الملة هو القرآن المجيد .. فهو وحده المحفوظ من رب العالمين .. وهو الكتاب الوحيد الموثوق به)[2] .

وللرد أقول :

⇦كتب السيرة ليست هي السنة : إن الكاتب في أكثر صفحات كتابه يردد القول بأن كتب السيرة هي السنة – أو الحديث – وهو كلام غير دقيق بالمرة، ولم يقل به أحد من العلماء المعتبرين بل المعروف لدى هؤلاء والمؤكد (أن السيرة جزء يسير من السنة)[3] وهي خاصة بأحوال النبي ﷺ وأيامه وغزواته ونحو ذلك، بينما السنة وكتب الحديث أعم من ذلك حيث تتضمن: الأقوال ، والأحكام من أوامر ، ونواهي ، والواجب والمستحب، والمحرم ، والمكروه، وكذلك ما أقره النبي ﷺ ، وما رفضه ...إلخ. إذن فليست السيرة هي كل السنة – ولا يقول قائل أن كتاب سيرة ابن هشام مثلاً هو: كتاب متخصص في السنة والأحاديث، بل هو ناقل من كتب الأحاديث بعض الحكايات عن غزوات وأيام النبي ... إلخ فقط – وليس في كتب السيرة الدقة والتمحيص الذي يوجد في كتب السنن الصحاح مثلاً. فتعبير الكاتب غير دقيق، وخوضه في الحكم على السنة غير موفق فمن يقحم نفسه في قضية مثل هذه لابد أن يكون على علم بها، لكن الرجل كما هو واضح لم يكن على علم حتى بالمصطلحات التي يطلقها، وخاض في المسألة بجسارة كما يخوض الغريب عن العلم (الغشيم) فيما لا يحسنه، فيخلط حابلاً بنابل، وحقاً بباطل، وكنا نود أن يتريث في الأحكام التي يطلقها بقلمه، أو على الأقل في معرفة المصطلحات.

⇦حفظ القرآن يتضمن حفظ السنة: وما حكم به الدكتور على السنة بأن الله لم يحفظها فلا يعتمد عليها – هو حكم جائر، وغير موافق للحقيقة فالله عز وجل حفظ القرآن حقاً – كما قال عز

---

(١) الشفاعة ص ٢٢ ، ٢٣

(٢) الشفاعة ص ٤٢

(٣) الشفاعة في الآخرة ص ٤٨ ، د/ القرضاوي ، والمراجعات ص ٦٤ الشيخ الشريم

وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [1] أي حافظون له من الشياطين أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه أو يبدلوه بغيره ... إلخ[2].

وهذا القرآن المحفوظ فيه القواعد وأصول الأحكام التي يقوم عليها بيان الدين في عقيدته، وشرائعه وهي تحتاج إلى من يوضحها ويفصلها ويبين مفرداتها للناس، والسنة هي التي تقوم بذلك ، فهي التي تخصص عموم القرآن، وتقيد مطلقه ... إلخ. والنبي ﷺ هو معلم السنة وهو المبين بأمر الله تعالى في القرآن العظيم . قال عز وجل : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [3] .

فلو لم نأخذ بأقواله في سنته وأفعاله ، وتقريراته فكيف يكون البيان، وهل هناك أقوال وأفعال وتقريرات تبين أحكام هذا الكتاب المحفوظ ، وتفصيلاته أفضل من أقوال المصطفى عليه الصلاة وأتم السلام ؟ .

ثم إن الله عز وجل هو الذي أمرنا بطاعة هذا الرسول الكريم واتباع أقواله. ألم يقل عز وجل: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ﴾ [4] وطاعة الرسول هي اتباع سنته [5].

كذلك ألم يأمرنا جل في علاه أن نرد كل شيء إلى الله ورسوله إذا اختلفنا في الأحكام حيث قال سبحانه: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [6].

فهل الرسول ﷺ موجود معنا الآن بجسده أم بسنته ؟ ، إن السنة هي الموجودة، ولذلك أجمع العلماء على أن الرد إلى الله يعني الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول يعني الرد إلى سنته – عليه الصلاة وأتم التسليم .

والسؤال الذي يطرح نفسه، علام تدلل هذه الأمور ؟

والجواب بسيط ، وهو أنها تدلل على أن الله عز وجل قد حفظ لنا سنته كما حفظ لنا كتابه، وهذا بديهي ومنطقي، لأن السنة إن لم تكن محفوظة، وثابتة، وموجودة، فكيف يمكن الاحتكام والرجوع إليها؟ أيأمرنا الله عز وجل بالاحتكام إلى شيء غير محفوظ.

ثم كيف يقول الحق تعالى لرسوله، بين للناس ما نزل إليك ، ويأمرنا بطاعة الرسول الكريم، واتباعه في هذا البيان ، ثم لا يحفظ هذا المبين وهو السنة ؟! .

---

(١) سورة الحجر آية ٩

(٢) وهناك رأي يقول الضمير في (له) يعود على محمد صلى الله عليه وسلم أي (إنا لمحمد لحافظون) لكن الأول أصح. راجع مختصر تفسير البغوي ج٢ ص ٤٧٨ وتفسير ابن كثير ج٢ ص ٥٦٦

(٣) سورة النحل آية ٤٤

(٤) سورة النور آية ٥٤

(٥) راجع تفسير الكريم الرحمن ص ٥٧٢ ، ٥٧٣

(٦) سورة النساء آية ٥٩

إن الثابت حقاً، وصدقاً ، ونقلاً، وعقلاً، أن الله عز وجل حفظ القرآن العظيم، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحفظه هذا يتضمن حفظ السنة الموضحة له. فآية الحفظ في سورة الحجر تدل على حفظ القرآن بدلالة المطابقة، وتدل على حفظ السنة المبينة للقرآن بدلالة التضمن وهذا هو ما أكد عليه العلماء.

يقول الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات : (إن حفظ القرآن يتضمن حفظ السنة لأنها بيان له ، وحفظ المبين يستلزم حفظ بيانه)[1].

ويشرح الدكتور القرضاوي مسألة الحفظ هذه فيقول : الحفظ له مظهران ، مظهر مادي وهو حفظ الألفاظ والعبارات أن تنسى أو تبدل .

ومظهر معنوي، وهو حفظ المعاني أن تحرف أو تمسخ أو تشوه والكتب السماوية السابقة لم يتكفل الله بحفظها، فتعرضت لنوعين من التحريف:

التحريف اللفظي بتبديل الألفاظ بأخرى أو إسقاطها، والتحريف المعنوي بتأويلها مما يبعدها عن مراد الله منها.

وقد حفظ الله القرآن من كلا التحريفين ، وكان البيان النبوي بالسنة من تمام حفظ الله تعالى لكتابه، وتصديقاً لوعده بذلك حين قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[2].

وقد أثبت التاريخ العلمي للمسلمين صدق ذلك ، وحفظ الله سنة نبيه، كما حفظ كتابه الكريم. فقام في كل عصر حراس أيقاظ يحملون علم النبوة، وميراث الرسالة، يورثونه للأجيال مشاعل تضيء ومعالم تهدي وسيظل ذلك – بمشيئة الله – إلى يوم القيامة.[3] إذن فقول الكاتب: إن السنة غير محفوظة قول باطل.

⇦ مسألة نقد السنة : أما قوله وكل شيء غير القرآن خاضع للنقد: وهو يقصد أن كتب السنة والسير لابد أن تخضع للنقد والتمحيص فإنني أرد عليه قائلاً:

ومن أنبأك أن كتب السنة والسيرة، وغيرها مما تناول حياته ﷺ بشتى جوانبها لم تخضع للنقد الصارم، والتمحيص القوي، وقد قاد هذا النقد والتمحيص علماء أهل السنة، وهم الذين وصفناهم من قبل بأنهم حراس أيقاظ، يحملون علم النبوة في كل عصر ... إلخ ، فهؤلاء لم يتركوا شاردة ، ولا واردة إلا دونوها ووضعوا قواعد وشروط أساسية لقبول الحديث. لم يسبقوا إليها من قبل عند أصحاب أي دين آخر وعملهم هذا هو وسيلة من وسائل الحفظ للسنة المطهرة حتى لا يعبث بها العابثون فوهب الله عز وجل لهذه الأمة هؤلاء الرجال الصالحين الأمناء الأتقياء لكي ينفوا عن السنة انتحال المبطلين ، وتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين.

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة ج٤ ص ١٩ ، ٢٠

(٢) سورة القيامة آية ١٩

(٣) انظر المرجعية العليا في الإسلام ص ٨٤ ، ٨٥ وكتاب كيف تتعامل مع السنة ص ٤٦، ٤٩ ، ٧٩

فمن ذكر سنة عن رسول الله ﷺ لا تقبل عندهم إلا بموازين علمية دقيقة وضعها هؤلاء وهي تشمل السند ، والمتن جميعاً، سواء أكانت السنة قولاً ، أو فعلاً ، أو تقريراً ، ويحدثنا صاحب كتاب كيف تتعامل مع السنة النبوية عن هؤلاء الرجال العظام قائلاً :

إن أي باحث لا يمكن أن يستغني عن الرجوع إليهم في هذا الشأن فهم صيارفة الحديث ، وهم الذين ميزوا بين صحيح الحديث من سقيمه، ومقبوله من مردوده ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[1] وقد أسس القوم للحديث علماً ثابت الجذور ، باسق الفروع، هو (علم أصول الحديث) أو (مصطلح الحديث) هو للحديث (بمنزلة علم أصول الفقه للفقه) وهو في الواقع مجموعة من العلوم بلغ بها العلامة ابن الصلاح في مقدمته الشهيرة (٦٥ نوعاً).

وزاد عليها من بعده حتى أوصلها الحافظ السيوطي في (تدريب الراوي على تقريب النواوي) إلى (٩٣ نوعاً)[2] ثم يستطرد قائلاً : ولا يظن ظان غريب عن العلم ، وأهله أن علماء الأمة كانوا يقبلون كل من هب ودب يأتيهم فيقول لهم عن فلان عن فلان عن رسول الله فيقولون له صدقت ، بل لابد أن يسألوا عنه:

في أي حلقة تخرج ؟

ومن شيوخه ؟

ومن زملاؤه في طلب العلم ؟

ومن تلاميذه الذين أخذوا منه ؟

وما حاله وسلوكه في نظر شيوخه ، ورفقائه ، وتلاميذه ؟

وهل يشهدون له بالصلاح ، والتقوى ؟

وهل يشهدون له بالحفظ والإتقان ؟

وهل استمر على ذلك طول عمره ؟

ومن أخذ عنه قبل تغيره ؟ ... إلخ ... إلخ[3] .

وهذه الأسئلة المتنوعة عن الراوي وكل ما يتصل بحياته تعني أمامنا أنه لابد أن يكون الراوي ثقة، ضابطاً ، حافظاً، غير مشكوك في عدالته، وإن كان كذلك في أكثر أيام حياته، ثم طرأ عليه شيء خالف به جماعة الثقاة فلابد أن يعرض حديثه وقصه حياته فوراً إلى محكمة النقد التي يترأسها علماء الحديث الكرام الذين علموا أن عليهم أمانة الحرص والتنقيح لسنة نبيهم ﷺ .

ويؤكد الشيخ أحمد شاكر – رحمه الله – على أن هؤلاء أدوا الأمانة على وجهها، واجتهدوا في رواية كل ما رواه الرواة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، واجتهدوا في التوثيق من صحة كل حديث ، وكل حرف رواه الرواة ، ونقدوا أحوالهم ورواياتهم، واحتاطوا أشد

(١) سورة فاطر آية ١٤

(٢) انظر كيف تتعامل مع السنة النبوية ص ٤٣ د/ القرضاوي

(٣) انظر المصدر السابق ص ٤٦

الاحتياط في النقل فكانوا يحكمون بضعف الحديث لأقل شبهة في سيرة الناقل الشخصية مما يؤثر في العدالة عند أهل العلم .

أما إذا اشتبهوا في صدقه ، وعلموا أنه كذب في شيء من كلامه فإنهم يرفضون روايته ، ويسمون حديثه (موضوعاً) أو (مكذوباً) وإن لم يعرف عنه الكذب في رواية الحديث مع علمهم بأنه يصدق الكذوب. وكذلك توثقوا في الحفظ فإن وجدوا أن حفظ الراوي غير جيد ضعفوا روايته، وإن كان لا مطعن عليه في شخصه ولا في صدقه ، خشية أن تكون روايته مما خانه فيه الحفظ ... وقد حرروا القواعد التي وضعوها لقبول الحديث ... وحققوها بأقصى ما في الوسع الإنساني احتياطاً لدينهم)[1] وهذه القواعد والضوابط هي التي عرفنا من خلالها الآن كتب الصحاح في السنة ومن اعتنى بجمعها.

وكذلك عرفنا الكتب التي تضم الأحاديث الموضوعة[2] وكيف أن العلماء حددوا إقامتها وحذروا الأمة منها وبينوا سلبياتها وانعكاساتها على تعاليم العقيدة .

كل ذلك يؤكد على أن علماء الأمة اهتموا بالجانب النقدي تجاه ما ينسب لنبيهم صلى الله عليه وسلم وشمّروا عن سواعدهم في هذا الشأن، وغربلوا كل ما وصلهم من أحاديث، وسير، عنه عليه الصلاة والسلام.

ومن ثم لا يصح للدكتور مصطفى محمود أن يقدم نصيحة بنقد كتب السنة في هذا العصر – فعلماؤنا عرفوا بها قبل أن يخلق كاتب هذه السطور ، أو يخلق الدكتور مصطفى محمود ، كما لا يصح له أن يهدم هذا الجهد الضخم في تنقية السنة – كما هو واضح في كتابه – فإنه بذلك يفتح أبواباً للفتن لا يعلمها إلا الله عز وجل، وقد سد العلماء من خلال جهودهم تجاه السنة هذه الأبواب، وجاءت إلينا أحاديث المصطفى الصحيحة غضة طرية، وكأننا نشاهده صلى الله عليه وسلم وهي تخرج من بين شفتيه، عليه الصلاة وأتم السلام.

لذا اردد قول الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3]

⇦ الاعتماد على القرآن وحده يخالف القرآن : أما دعوى الدكتور ونصيحته بعدم الاعتماد على السنة، وعلى المسلمين أن يعتمدوا على القرآن وحده فهو مخالف لمنهجه هو ، ومخالف أيضاً للقرآن الكريم .

---

(١) انظر الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ بن كثير المقدمة ص ١٤ ، ١٥ للشيخ شاكر عنى به الدكتور بدر مع السيد اللحام

(٢) ومن أراد التعرف على هذه الأحاديث الموضوعة فعليه على الأقل أن يطلع على كتاب اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي أو كتاب القواعد المجموعة للشوكاني وغيرهما كثير

(٣) سورة النور آية ٦٣

أـ أما كونه يخالف منهجه فلأنه : لم يجعل القرآن وحده عنده المصدر الأساسي بل جعل العقل مقدم على القرآن، فهو يدعو من أول صفحة يخطها بقلمه إلى هذا الأمر ويقول للقاريء عن الشفاعة التي أثبتها القرآن ، وتواترت بها أحاديث السنة يقول :

(ما أقدمه – في هذا الكتاب – هو محاولة لفهم واجتهاد قد يصيب وقد يخطيء ... ومن حق كل قاريء أن يفهم القضية على طريقته فقد أردنا ا الله أحراراً[1] ... إلخ.)

والقضية التي يدعوا القراء لفهمها كل على طريقته في الفهم هي: الشفاعة ، وفي آخر الكتاب تقريباً وبعد أن يضرب بآيات القرآن والأحاديث المطهرة في الشفاعة عرض الحائط ، وهاج عليه العلماء في كل مكان يقول للقراء: احتكموا إلى العقل في هذه المسألة – الشفاعة – وليختر كل منكم الفهم الذي يروق لعقله.[2]

إذن دعوته من أول الكتاب إلى آخره ليس التسليم بما جاء في القرآن، ولا الاعتماد على القرآن وحده باعتباره هو العمدة الموثوق به كما قال ، بل العمدة في الفهم عنده هو العقل، فهو الذي يستنبط ويقرر، ويحكم على عقيدة اعترف هو بأنها من أمور الغيب، وأمور الغيب يستحيل العقل أن يصل إليها بدون وحي على الإطلاق – كما أوضحنا – إذن فكيف بالرجل يريد أن يفهمنا بأنه لا يخضع إلا للقرآن وحده ، ولماذا لم يدعو القراء إلى أن يحتكموا للقرآن وهم أمة القرآن بدلاً من دعوته لهم إلى الاحتكام للعقل.

ب ـ أما زعمه بأنه يعتمد على القرآن وحده فهو مخالف أيضاً للقرآن الكريم مخالفة صريحة ، وقد ذكرنا من قبل أن الله تعالى أمرنا بطاعة الرسول بجوار طاعته سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[3].

ولو كانت طاعة الرسول تعني اتباع القرآن وحده لم يكن هناك معنى لعطف الأمر بطاعته على طاعة الله تعالى، إذ العطف يقتضي المغايرة، وقد طلب الطاعة – في غير موضع – لكل منهما وهذا يعني أن لكل منهما طاعة منفردة. وللعلامة ابن القيم كلام طيب في معنى هذه الآية الكريمة. فيقول : (أمر سبحانه في هذه الآية بطاعته ، وطاعة الرسول ، وأعاد الفعل (أطيعوا) إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم ضمن طاعة الرسول إيذاناً بأنهم يطاعون تبعاً لطاعة الرسول ، فمن أمر منهم بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة ..)[4] .

---

(١) الشفاعة ص ٧

(٢) انظر الشفاعة ص ٨٥

(٣) سورة النساء آية ٥٩

(٤) انظر إعلام الموقعين ج١ ص ٤٨ ، ٤٩

إذن فالاعتماد على القرآن وحده دون الرجوع للسنة مخالف لتعاليم القرآن لأنه فيه عدم طاعة لخير الأنام ﷺ والسنة مرجعها في الأساس إلى القرآن ، فمنزلتها منزلة بيان – كما أسلفنا الذكر في ذلك – والقرآن هو الأصل والسنة شارحته وموضحته ، ولا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً.

وماذا لو اتبعنا الدكتور في دعوته لهجر السنة ؟

ولو اتبعنا الدكتور في دعوته لهجر السنة والاعتماد على القرآن وحده لوقع المسلمون في مشاكل جمة، ومنهم الدكتور نفسه.

فمثلاً : القرآن أمرنا بالصلاة: فهل يدلنا الدكتور العزيز على آية كريمة، ومكانها في أي سورة تبين لنا كيف نصلي وما عدد ركعات كل صلاة، وكيف نعرف القصر ، والجمع في الصلاة، وما أوقاته ، ومتى يصلي المرء قاعداً ، أو مضجعاً ، أو بالإيماء، أو كيف نتعرف على النوافل وما يتعلق بها.

وفي القرآن أمر بالزكاة: فهل يدلنا الدكتور على مقدارها في القرآن الكريم، وفي أي سورة هو ، وما هي زكاة الزروع والثمار ، وغير ذلك.

والصيام أمر في القرآن به: فهل هناك دلالة مفصلة عن بدايته ، ونهايته ، ومتى يحق للمسافر الفطر، وهل الحبلى ، والمرضع تفطر أم لا ؟

وفي الحج : هل يوجد في القرآن الكريم أي تفصيل لشعائره ، وهل الدكتور يستطيع أن يدل الأمة على آية تبين لنا رمي الجمار مثلاً، وأعداد الجمرات ، والأوقات التي تلقى فيها ... إلخ.

إن السنة إذن هي المنهاج التفصيلي لحياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم، وهي تمثل – كما قلنا – القرآن مفسراً. والنبي ﷺ هو المبين، والموضح للإسلام بقوله وعمله وسيرته كلها، في الخلوة والجلوة، والحضر ، والسفر، واليقظة ، والنوم ، والحياة الخاصة ، والعامة ، والعلاقة مع الله ، والناس ، ومع الأقارب والأباعد ، والأولياء ، والأعداء ، في السلم ، وفي الحرب، وفي العافية والبلاء ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (١).

ثم لماذا هذه الدعوة إلى اتباع القرآن وهجر السنة : خاصة في هذا العصر الذي يتربص فيه أعداء الإسلام بكتاب الإسلام ورسول الإسلام ، وسنة نبي الإسلام، هل هناك فائدة تعود على المسلمين في ذلك ؟

لا نرى ذلك أبداً ، بل هي دعوة إلى بلبلة الأفكار وإضعاف روح الاعتقاد لدى المسلمين في دينهم ونبيهم بل وكتاب ربهم. فإذا ما اكتفى المسلمون بالقرآن – كما أشرت – وقعوا في مأزق عدم تفهم آياته الكريمة وتفصيلاتها المتعلقة بحياة المصطفى ﷺ .

(١) سورة آل عمران آية ٣١

لا حرج في الأخذ بالسنة : إنني لا أجد في سنة النبي ﷺ ما يحرج الناس حتى ندعو إلى هجرها، ولا يوجد فيها ما يرهقهم في دنياهم، بل نبينا ﷺ يقول عن نفسه : (إنما أنا رحمة مهداة)[1].

وقال عليه الصلاة والسلام : (إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً)[2].

وحينما بعث أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن أوصاهما بوصية موجزة جامعة فقال: (يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا)[3]. ويقول معلماً لأمته : (يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا)[4].

ولما بال الأعرابي في مسجده ﷺ ، ولم يعرف حكم ذلك وهاج عليه أصحاب المصطفى عليه الصلاة والسلام، قال لهم الرسول الأكرم ، صلوات ربي وسلامه عليه : (إنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين)[5] ، ويقول ﷺ عن رسالته : (إنما بعثت بحنيفية سمحة)[6].

وعن العبادة ، والاستطاعة فيها يقول عليه الصلاة والسلام : (يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا)[7].

إنه عليه الصلاة والسلام يسير في ضوء منهج القرآن متبعاً لقول الرحمن عز وجل:(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)[8].

كما يحذر أمته ﷺ من التنطع والغلو في الدين ودعاهم إلى الاستمتاع بالحياة وجمالها في اعتدال دون إفراط أو تفريط – أليس هو القائل – عليه الصلاة والسلام – : (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[9] ، وأليس الله هو القائل : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[10].

---

(١) سنن الترمزي عن أبي صالح مرسلاً، ورواه الحاكم عنه عن أبي هريرة موصولاً ، وصححه على شرط الشيخين.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الطلاق ص ١٤٨

(٣) اللؤلؤ والمرجان – متفق عليه ص١٣٠

(٤) اللؤلؤ والمرجان متفق عليه ص ١٣١

(٥) رواه البخاري والنسائي والترمزي في كتاب الطهارة ص ١١٣١

(٦) مجمع الزوائد ج٤ ص ٣٠٢

(٧) متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها ، صحيح الجامع الصغير ص ٧٨٨٧

(٨) سورة الحج آية ٧٨

(٩) رواه الترمزي والحاكم عن ابن عمرو وحسنه في صحيح الجامع ص ١٨٨٧ وللمزيد راجع كيف تتعامل مع السنة ص ٣٣ ، ٣٤

(١٠) سورة الأعراف آية ٣١

فهل وجدنا تنافراً أو اختلافاً أو عدم التقاء بين هذه الآية الكريمة وبين ما قاله المصطفى ﷺ في ذلك.

فلماذا إذن الاكتفاء بالقرآن وحده دون السنة التي يجب أن يأخذ بها الفقيه والمعلم والطالب ، والقائد، والمهندس وكل أطياف المجتمع الإسلامي في كل شئونهم وما ذاك إلا لأنها المصدر الثاني للتشريع في الإسلام وليس فيها ما يخالف القرآن، ومن يقل بغير ذلك عن السنة الثابتة، فقد خالف القرآن ، وهذا هو ما وقع فيه الدكتور مصطفى محمود كما رأينا .

المطلب الرابع : موقف الدكتور من كتابة السنة ، وتدوينها:

ومن ضمن مزاعم الدكتور تجاه السنة التي بين أيدينا الآن، والتي تضمنها كتب الصحاح ، وأوردت أقوال النبي ﷺ في ثبوت الشفاعة ، أن كتابة السنة ، وتدوينها في هذه الكتب هو مخالف لأوامر المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويثير شبهته في هذا الشأن قائلا :

(أما السنة القولية التي جمعها رواة الأحاديث عن الرسول الكريم فقد جمعها بشر مثلنا غير معصومين .... في سلسلة من العنصات عبر عشرات السنين ، ولم تدون الأحاديث إلا بعد زمن الخلفاء الراشدين على أيام سلاطين الملوك) [1] .

ثم يقول : (وقد أجمع رواة الأحاديث على أن النبي ﷺ نهي عن تدوين السنة)[2] ويذكر عدداً من الرواة ومنهم أبي سعيد الخدري ويقول : قد روي عن رسول الله حديثا متفق على تواتره جاء فيه : لا تكتبوا عني غير القرآن ومن كتب عني غير القرآن فليمحه. كما يستشهد بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويقول: إن الأول حرّق ما كتب من أحاديث والثاني – وهو عمر كتب إلى الأمصار لجمع ما كتب من السنة لأهل الكتاب ليتلفه ، وكان خوفه أن يحدث ما حدث لأهل الكتاب من تأليه الأنبياء وتقديس كلامهم .

ثم يعلق أخيرا قائلا ،: وإذا كان الشك والخوف عند هؤلاء الأكابر فمن الطبيعي أن يكون عندنا أضعاف هذا الخوف ، ولا نقبل من الأحاديث ما ناقض القرآن [3] .

وبالنظر إلى أقوال الدكتور هذه نلاحظ ما يلي :

١– اللمز والخداع للقارئ : حيث نراه يسخر من السند ، والرواة ،ويقول: هؤلاء غير معصومين ونقلوا إلينا عنعنات عبر عشرات السنين ،وهو لا يدرك هذه المهمة التي حملها أهل هذه العنعنات على حد تعبيره، فلولا أن الله سخرهم لهذه المهمة، ما وصلت إلينا السنة منقحة مصححة طاهرة، مطهرة من الدنس، وهذه العنعنات إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى الأمانة العملية،ومدى الدقة في النقل،ومدى التمحيص في النقد،ومدى الأخذ بالتثبت والتحري ،تلك السمات التي تحلى بها رواة العنعنات لم نجدها عند أصحاب أي دين آخر، وهذا السند المتصل برسول الله، الذي قدمه

---

(١) انظر الشفاعة ص ٩٠

(٢) نفسه ص ٩٢

(٣) نفسه ص ٩٢ ، ٩٣

إلينا هؤلاء نفخر به أمام العالم كله ، وإلا فليرنا الكاتب أين سند اليهود عن نبيهم موسى عليه السلام وبقيه أنبيائهم ، وأين سند النصارى عن نبيهم عيسى – الذي يزعمون أنه إلههم – بل أين سند بولس الرسول عندهم عمن أرسله في زعمهم ، وهو المسيح عليه السلام[1] .

هل عندهم أسانيد بهذه العنعنات . وهل يملكون في أوثق كتبهم لديهم سلسله متصلة روايتها كما هو عندنا. إن الدكتور يسميهم إخوة لنا وهو يتحدث عن إنكاره للشفاعة ويقول : إن الشفاعة في الإسلام تشبه فكره (المطهر)عند إخواننا المسيحيين[2] .

وبالرغم من الفرق الشاسع بين فكرة المطهر عندهم والشفاعة عندنا فهي كالفرق بين مياه زمزم ، ومياه المستنقعات وبالرغم من أنهم ليسوا إخواننا بنص القرآن القائل ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[3] والقائل ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ومواليكم ﴾[4] وبالرغم من أن الدكتور يقول دائما : أتمسك بالقرآن فهو المعتمد وحده ، والقرآن آياته لا توافقه على قوله هذا ، بالرغم من هذا كله أقو ل له : إسأل إخوانك هؤلاء هل عندكم عنعنات مثلنا ، وهل عندكم من الرواة والعلماء من وثق النصوص، وقاوم عوامل الكذب، والتدليس، وحمى روايتكم وقصصكم التي تمتلئ بها كتبكم من شرور الانتحال والتضليل كما فعل الرواة ، والعلماء عندنا، إنّ هذا العمل الذي يسخر منه الدكتور يعد مفخرة نعلى بها رؤوسنا ، ولا يصح أن يكون مجالا للسخرية والاستهزاء والاتهام كما فعل الكاتب – هدانا الله وإياه.

٢– أخذه ببعض الأحاديث دون البعض الآخر في مسألة الكتابة : وهذا واضح فيما ذهب إليه الكاتب ،حيث ادعى أن التدوين والكتابة للسنة كان في عصر السلاطين في محاولة منه لإلقاء الشبهة على الرواة ، وأنهم كانوا يكتبون لإرضاء السلاطين والملوك فقط.

ثم يدعي أن أبا سعيد الخدري روي حديثاً متفق على تواتره في نهي النبي عن الكتابة إذن فما قام به الرواة مخالف لأوامر النبي ﷺ ، ولنهيه عن ذلك . ثم استشهد بعمر رضي الله عنه ... إلخ .

وللرد أقول :

أ– إن هذا الحديث الذي أورده واستشهد به في النهي وهو عن أبي سعيد ، غير متفق عليه ، ولم يقل أحد بذلك على الإطلاق، لأن مصطلح متفق عليه، يعنى عند أصحاب هذا الفن:(أن الحديث

---

(١) لمزيد من التفصيل في مزاعم بولس وادعائه بأنه رسول راجع المسيحية بين التوحيد والتشكيك وموقف الإسلام منها للمؤلف طبعة العبيكان

(٢) الشفاعة ص ٣٣

(٣) سورة الحجرات آية ١٠

(٤) سورة التوبة آية ١١

رواه الشيخان) البخاري ، ومسلم عن صحابي واحد[1] ، والحديث هذا في النهى قد رواه مسلم فقط[2] أما البخاري فلم يروه لأنه كان يراه موقوفاً على أبي سعيد- أي من كلام أبي سعيد نفسه[3]. فكيف يقال بأنه متواتر، ومتفق على تواتره؟ إن هذا لم يقل به عالم.

ب ــ إن هذا الحديث وغيره من أحاديث النهى عن الكتابة، بجوارها أحاديث أخرى تبيح الكتابة، ولو كان الدكتور منصفا لذكر أحاديث الإباحة بجوار أحاديث النهى لكنه لم يذكر من الأحاديث إلا ما يريده هو فقط وما يقوى دعواه ، وهذا ليس إنصافاً ولا عدلا ، لأن تعامل المسلم مع السنة لا يصح أن يكون بهذه الطريقة الانتقائية ، والإقصائية ، بحيث ينتقي الكاتب ما يريد لدعواه ، ويبعد ما لا يريد لأنه يعلم أنه سيفسد مدعاة ، ولذلك قال العلماء :

(من اللازم لفهم السنة أن تجمع الأحاديث الصحيحة في الموضوع الواحد، بحيث يرد متشابها إلى محكمها ، ويحمل مطلقها على مقيدها ، ويفسر عامّها بخاصّها ، وينظر في أسبابها ، وملابساتها ومقاصدها ، وعلل النصوص ، وظروفها . وبهذا يتضح المعنى المراد منها ، ولا يضرب بعضها ببعض)[4] أما الاكتفاء بظاهر حديث واحد دون النظر في سائر الأحاديث الأخرى المتعلقة بالموضوع المطروح فإنه كثيرا ما يوقع في الخطأ ويبعد عن جادة الصواب والمقصود[5]، وهذا هو ما وقع فيه الدكتور نتيجة للعجلة ، والخطف للأحاديث بدون وعي ، وإلا فكان عليه أن يذكر أحاديث الإباحة بعد ذكره الأحاديث النهي ، لكنه لم يذكر حديثا واحدا من هذه الأحاديث .

أحاديث الإباحة : وسأذكر منها ما يلي:

١ــ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثا مني ، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب) [6] .

٢ــ وروي أبو داوود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول إني أسمع منك الشئ فأكتبه ، قال نعم قال: في الغضب والرخاء ؟ قال : نعم فإني لا أقول فيهما إلا حقا[7]. وفي رواية أخرى : أومأ النبي بإصبعه إلى فيه فقال : (اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق)[8] .

---

(١) وهناك اصطلاح آخر ليس بالمشهور وهو أن العبرة بالمتون وليس بالصحابة. انظر ص ٧ الجمع بين الصحيحين ياسر إبراهيم السلامة ، ر الوطن – الرياض.

(٢) مسلم – كتاب الزهد والرقائق باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم رقم ٣٠٠٤

(٣) انظر الشفاعة في الآخرة ص ٥٠

(٤) انظر – كيف تتعامل مع السنة النبوية ص١٢٣ ، ١٤٥ ، ١٥٠

(٥) انظر المرجعية العليا في الإسلام ص ٢٧٧ ، والمرجع السابق ص ١٢٨

(٦) صحيح البخاري كتاب العلم باب كتابة العلم ص ١١٣، والدارمي في المقدمة ص ٤٥٠

(٧) سنن أبي داود كتاب العلم باب في كتابة العلم ج٣ ص ٣١٧

(٨) الدارمي في المقدمة ص ٤٨٤ ، ومسند أحمد ج٣ ص ٣٩

٣- وروي الحاكم من حديث أنس – موقوفا : (قيدوا العلم بالكتابة)[١] .

٤- وعن عبد الله بن عمرو قال بينما نحن حول رسول اللهﷺ نكتب إذ سئل رسول الله- ﷺ أي المدينتين تفتح أولاً قسطنطينية أو رومية ؟ فقال: لا. بل مدينة هرقل أولاً[٢]. وغير ذلك كثير من أحاديث الإباحة.

أقوال العلماء في الجمع بين أحاديث النهى، والإباحة:

هذا ولما كان يبدو أن هناك تعارض ظاهري بين أحاديث النهى والإباحة جاءت أقوال العلماء للتوفيق بين هذه الأحاديث لبيان مقاصدها؛وعللها ؛والظروف التي سيقت فيها. وانتهوا إلى ما يلي:

١- رأى يقول : إن أحاديث النهى عن الكتابة إنما كان في أول الإسلام ؛ حين خيف اختلاط الأحاديث بالقران فلما أمن ذلك أذن بالكتابة فأحاديث النهى نسخت بأحاديث الكتابة[٣].

٢- وهناك رأى يقول: (لعل النبي ﷺ أذن بالكتابة لمن خشي عليه النسيان ولم يوثق بحفظه، والنهى كان في حق من وثق بحفظه مخافة الاتكال على الكتاب)[٤] .

٣- وهناك من يرى: (أن النهى عام ؛وخص بالسماح لمن كان قارئا كاتبا مجيدا لا يخطى في كتابته، ولا يخشى عليه الغلط كعبد الله بن عمرو، الذي أمن عليه ﷺ كل هذا فإذن له)[٥].

٤- وقيل: (النهي كان عن كتابة الحديث والقرآن في صحيفة واحدة خشية الالتباس وأحاديث الإباحة كانت تحث على الكتابة للحديث وحده في صحيفة)[٦].

تلك هي أبرز الأقوال في الجمع بين أحاديث النهي والإباحة ولا نجد هناك أي تعارض حقيقي بين الأحاديث فكل حديث أطلق كان له وقته ، وظروفه ، وملابساته ، وعلماء الإسلام فهموا ذلك لدرجة أنهم لما علموا لماذا كان النهي ولماذا كان الجواز ، ووضعوا المسألة على بساط البحث انتهوا إلى جواز الكتابة ، واستحبابها.

يقول ابن حجر – رحمه الله – : الأمر استقر ، والإجماع انعقد على جواز كتابة العلم بل على استحبابه ، بل لا يبعد وجوبه على من خشي النسيان ممن يتعين عليه تبليغ العلم)[٧].

ويقول ابن الصلاح في مقدمته (تم أنه زال ذلك الخلاف وأجمع المصلحون على تسويغ ذلك وإباحته ، ولولا تدوينه في الكتب لدرس في الأعصر الأخيرة)[٨] .

---

(١) المستدرك – كتاب العلم ج ١ ص ١٠٦

(٢) الدارمي في المقدمة ص ٤٨٦

(٣) انظر شرح النووي على صحيح مسلم ص ١٧٦

(٤) انظر السنة حجة على جميع الأمة ص ٥٣ د/ محمد بكار زكريا

(٥) انظر أصول الحديث ص ١٥٠ د/ محمد عجاج الخطيب واكتساب المناعة ص ١٢١

(٦) انظر السنة حجة على جميع الأمة ص ٥٣ والشفاعة ثبوتها ، ضوابطها ، شروطها ص ٢٢ أحمد أحمد جاد

(٧) فتح الباري ج ١ ص ٢٤٦

(٨) مقدمة ابن الصلاح ص ٨٨

وبهذا نرى أن ما حكم به الدكتور عن نهي النبي عن الكتابة حكم يقوم على غير علم ببقية الأحاديث الأخرى التي تبيح الكتابة .

استشهاده بتخوف عمر – رضي الله عنه في غيره في موضعه . أما استشهاده بما أورده عن عمر – رضي الله عنه وادعاؤه بأنه كان يتخوف من كتابة الأحاديث خوفا من أن يحدث للمسلين ما حدث لأهل الكتاب من تأليه للأنبياء ... إلخ .

فهو استشهاد باطل ، وفي غير موضعه ولا نعتقد أن ما ادعاه الكاتب كان يدور بخلد عمر – رضي الله عنه – فعمر يعلم أن المسلمين لا يمكن في يوم ما أن يقبلوا على تأليه رسول الله ﷺ لأنهم ما قرءوا آية توحي بذلك ولا حديثا يدعو لذلك بل آيات القرآن تؤكد على بشرية رسولنا ﷺ وتحكي ذلك على لسانه عليه الصلاة والسلام ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [1] ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [2] ، ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [3] . فلا يمكن في يوم ما أن يقدم المسلمون على تأليه النبي ﷺ كما فعل النصارى مع نبيهم عيسى – عليه السلام .

وعمر يعلم ذلك جيدا ، وفي نفس الوقت يعلم أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع وبضياعها ضياع الدين . لذلك فكر عمر في أن يجمع الأحاديث من الرقاع والعظام ، والصحف ، ومما حفظه الصحابة الكرام فتكون مرجعا للجميع، واستشار في ذلك أصحاب الرسول ﷺ كما يذكر الشيخ محمد أبو شهبة – فأشاروا عليه أن يكتبها ، فاتفق وفكر في ذلك شهرا يستخير الله، غير أنه أثر في النهاية عدم الإقدام قائلا : (إني كنت أردت أن اكتب – أي أدون السنة ، وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتباً فاكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشئ أبداً)[4] فعمر رضي الله عنه – ترك ما أقدم عليه ليس من أجل ما ذكر الكاتب ، ولكن خوفا من أن ينشغل الناس بما سوي القرآن أو لعله خاف أن يصبح ما يدون معولا عليه وحده ، وقد تفرق الصحابة في بعض الأمصار ، وعندهم الكثير من المعرفة بأقوال النبي ﷺ ، وأفعاله ، وتقريراته ومهما يكن الأمر (فالصحابة رضوان الله عليهم لما استشارهم عمر على الكتابة والتدوين وافق جمهورهم على ذلك ، كما يقول صاحب كتاب الوسيط – وأن من تيسرت له الكتابة منهم كانوا يكتبون ، فقد شاعت الكتابة والقراءة في هذا العصر عن ذي قبل ، وما كانت تحدث مثل هذه القصة دون أن يكون لها أثر في حفز نفوس الكثيرين إلى كتابة السنة)[5] وظل الأمر بعد توقف عمر عن الكتابة الرسمية قاصرا على الإفراد إلى وقت ولاية عمر بن عبد العزيز

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠

(٢) سورة الإسراء آية ٩٣

(٣) سورة فاطر آية ٢٣

(٤) انظر الوسيط في علوم ومصطلح الحديث ص ٥٩ للشيخ محمد أبو شهبة

(٥) انظر الوسيط في علوم ومصطلح الحديث ص ٥٩ للشيخ محمد أبو شهبة

للحكم (٩٩ – ١٠١هـ) فأمر بتدوين السنة على مستوى الدولة – أي بصفة رسمية – خوفا من ضياع العلم، وموت أهله وبذل في سبيل ذلك جهدا كبيرا كما يحكي المؤرخون.[١] .

وهذه الفكرة التنظيمية لتدوين السنة ، والتي تشرف عليها الدولة قد أخذها عمر بن عبد العزيز من جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه – فهو الذي على يديه ولدت الفكرة لكنها لم تترجم إلى واقع في الدولة آنذاك ، للأسباب التي ذكرناها ، بالإضافة إلى اهتمامه رضي الله عنه بالفتوحات ونشر الإسلام في أنحاء العالم، فلما جاء حفيده ورأي أن ظروف عصره تتطلب ذلك ، ووسائل التدوين متوفرة أكثر والدولة لا بد أن تتحمل مسئوليتها في هذا الأمر، عزم على تحقيق فكرة جده ؛بالإضافة إلى خوفه على سنة رسوله ﷺ ، وموت الرواة ، وكثرة المبتدعة (فأمر أبا بكر بن حزم بأن يتولى هذا العمل ويقوم بجمع الحديث)[٢] .

وعليه فما ذهب إليه الدكتور مصطفى محمود من ادعاء بأن بداية التدوين للسنة لم تكن إلا في عصر السلاطين هو قول غير دقيق ، إذ إن هذا التدوين كما يقول الدكتور محمد الدسوقي كان موجودا قبل المائة الأولى .أي قبل عمر عبد العزيز والآثار الصحيحة تدل على ذلك[٣] .

وهذا يؤكد لدينا أن الكاتب لم يستطيع أن يفرق بين التدوين الرسمي الذي تتشرف عليه الدولة ؛وبين التدوين غير الرسمي، وهو تدوين الأفراد، إذ الأخير كان موجودا عند الصحابة ؛ والتابعين حيث كانوا يقيدون العلم وكل ما جاء عن رسول الله ﷺ في الصحائف والرقاع وغيرها، وعمر بن الخطاب كان عنده علم بذلك ؛ففكر في الأمر –كما أسلفنا – ونفد الفكرة، ابن عبد العزيز وعدم تفريق. الدكتور بين التدوين الرسمي، والتدوين الفردي أوقعة في هذا الخطأ العلمي، والتاريخي الواضح – كما رأينا ، وإلا فماذا عساه أن يقول الكاتب عن تلك الكتابات الكثيرة التي وجدت في العصر النبوي.

مثال ذلك : تلك الصحيفة التي عدت بمثابة دستور لآهل المدينة وكتب الصدقات، ورسائل المصطفى ﷺ إلى الملوك والأمراء والتي حملها رسله عليه السلام إلى مختلف الأماكن في العالم .

بل ماذا يقول في قول النبي ﷺ لأصحابه حينما جاءه رجل من أهل اليمن ؛قائلا له : اكتب لي يا رسول الله، فقال: اكتبوا لأبي فلان وفي رواية أخرى اكتبوا لأبي شاه[٤] وما قول الدكتور عن صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التي كتبها من أقوال الرسول ﷺ كانت تسمى الصحيفة الصادقة والتي وصفت بأنها أصدق وثيقة تاريخية تثبت كتابة الحديث وتدوينه على عهد النبي ﷺ .

---

(١) انظر منهج البحث في العلوم الإسلامية ص ٢٣٥ د/ محمد الدسوقي

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٥ ، ٢٣٦

(٣) انظر نفس السابق ص ٢٣٥ ، ٢٣٦

(٤) البخاري كتاب العلم ، باب كتابة العلم رقم ١١٢ ، وكتاب اللفظة باب كيف تعرف لفظة أهل مكة / ٢٤٣٤ عن أبي هريرة

أما في عهد الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي استشهد به الكاتب كان الصحابة لا ينكر بعضهم على بعض التدوين ، بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان لديه اهتمام بذلك ، وكان يدعو إليه . وقد ورد عنه قوله (قيدوا العلم بالكتاب)[1] .

وإن كان لم يدون السنة للعلل السابقة – كما أسلفنا وعليه فلا تقبل استشهادات الدكتور ولا ادعاءاته في تدوين السنة لأنها غير قائمة على أصل أصيل وبعيدة عن الحقائق والوقائع التاريخية ، والعلمية.

المطلب الخامس : الرد على زعم الدكتور محمود بأنه لم ينكر الشفاعة ولا السنة :

من غرائب ما يلحظه القاريء على الدكتور مصطفى محمود، في كتابه الشفاعة – وما أكثر غرائبه في هذا الكتاب – زعمه بعد كل ما تقدم أنه لا ينكر الشفاعة ولا السنة.

وهاك قوله في الشفاعة: (ونحن ما أنكرنا الشفاعة ، وإنما حاولنا أن نفهمها في الإطار الذي يليق بالألوهية، وحاولنا أن خرجها من المفهوم السوقي الذي يشيع في الشفاعات والوساطات الدنيوية)[2].

أما عن السنة فيقول: (وما نقوله الآن في كتاباتنا هو السنة بعينها، وليس إنكاراً للسنة ... ونحن ما أنكرنا سنة، وما أثرنا فتنة، وما خرجنا على إجماع)[3].

هكذا بكل بساطة يستخف الدكتور محمود بعقل القاريء ويحاول أن يفهمه بأن ما قاله ليس إنكاراً للشفاعة ولا للسنة التي تواترت أحاديثها في إثبات الشفاعة ويملأ فيه بعبارة (وما أنكرنا الشفاعة) ويرددها في صفحة أخرى (وما أنكرنا السنة).

وما أدري أهذه التقول التي ذكرناها من قبل في إنكاره للشفاعة والسنة، كذب أم هذيان أم أحلام نائم، أم خرف يقظات. أم الرجل يتخيل أمامه أنه يكلم أشباحاً لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون ، هل الدكتور وصل به الاستخفاف بالقراء إلى هذه الدرجة، أليس هو القائل : (إن الشفاعة التي تدخل الناس الجنة هي تشبه فوضى الوسايط الدنيوية، ولا وجود لها في الآخرة)[4].

---

(١) انظر الدارمي في المقدمة ١ / ١٢٧ ، ١٢٨ والخطيب في تقيد العلم ص ٨٧ ، ٨٨ وابن عبد البر في جامع بيان العلم ٨٦/١ – المطبعة السفلية بالمدينة المنورة

(٢) الشفاعة ص ٨٤

(٣) الشفاعة ص ٩٦

(٤) الشفاعة ص ١٩

أليس هو القائل : (إن الاعتقاد بالشفاعة سيؤدي إلى التسيب والانحلال وفتح باب الجنة (سبهللة) للكل، لأن الشفيع – يقصد المصطفى ﷺ يسجد عند قدم العرش وقال لا أبرح حتى تدخل كل أمتي الجنة)[1].

أليس هو القائل : (إن القرآن ينفي إمكانية خروج من يدخل النار في الكثير من آياته من الكفار ومن المسلمين أيضاً)[2] أي أن المسلم المذنب إذا دخل النار، لا يخرج منها أبداً حتى بعد انقضاء ما عليه من العذاب من وجهة نظر الدكتور، ويتساوى مع الكافر الذي لم ينطق بالتوحيد طوال حياته، لأنه لا اعتبار بالتوحيد في هذه المسألة عند الدكتور !! ثم أليس هو القائل: (بأن شفاعة الملائكة في القرآن أشبه بالبشارة)[3].

(وأن المقام المحمود المذكور في القرآن لا يعلم أحد من الموعود به ، ولا حدوده، وهو سر من أسرار الله... ولو ثبت للرسول – كما يقول المفسرون – فإن الرسول سيكون بذلك منافساً لله، والله لا يجوز أن يكون له منافس ... إلخ ...إلخ)[4]. إلى غير ذلك من كلمات الإنكار للشفاعة التي تفضل الله تعالى بها على هذه الأمة ، وفضل بها نبيها ﷺ وقد رددنا عليه في موضعه لكن الدكتور يقول بعد هذا كله – أنا ما أنكرت الشفاعة إنما أردت أن أخرج بها من المفهوم السوقي الذي يشيع في الشفاعات والوساطات ولكن الذي يخفى على الكاتب أن الآخرة لا يوجد فيها مفاهيم سوقية، ولا ما يشبه الأعمال والوساطات الدنيوية فما في الدنيا يختلف تماماً عما في الآخرة، حتى الأرض تكون غير الأرض والسماوات، وفي جنة الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

وقد صح ذلك عن رسول الله ﷺ وهو يصف الجنة ويقول : (يقول الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[5].

فليس المسلمون في حاجة إلى إخراجهم من مفاهيم سوقية على حد تعبير الدكتور، إلى مفاهيم شرعية، يعرفون أنها من عند الله، فالمؤمنون إذاً سمعوا مصطلحات شرعية وردت عن رسول الله، يتلقونها بكل اطمئنان ويقولون : (آمنا به كل من عند ربنا) وعليه فقد ثبت أن الدكتور لا يرى شفاعة الآخرة بالرؤية الشرعية الحقيقية بل بعقله وفكره فقط، فكيف به يزعم أنه لم ينكر الشفاعة وإذا لم يكن ما ذكره هو الإنكار فماذا يكون الإنكار إذن ؟! .

---

(١) الشفاعة ص ٢٤

(٢) الشفاعة ص ٣١

(٣) الشفاعة ص ٣٥

(٤) الشفاعة ص ٣٩ ، ٤٠

(٥) البخاري كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة حديث رقم ٣٢٤٤ وكتاب التفسير حديث رقم ٤٧٧٩ ، ومسلم ٢٨٢٥

أما السنة فقد صرح الدكتور بإنكار ما ورد فيها تجاه الشفاعة: وهو الآن يقول ما أنكرت السنة، وقد نقلنا أقواله أيضاً التي تثبت هذا الإنكار، ومنها: زعمه أن السنة التي تواترت أحاديثها بإثبات الشفاعة هي في الأصل تخالف القرآن وتعارضه[1]. بل قال صراحة (كل ما جاء بهذا المعنى في الأحاديث النبوية مشكوك في سنده ، ومصدره)[2].

وقال : (لا تستخفنكم الروايات، والأحاديث التي تدخلكم الجنة بغير حساب لمجرد أنكم تلفظتم بكلمة التوحيد)[3]. وقال: (إن هذه الأحاديث موضوعة، ولا أساس لها من الصحة، ولا يمكن أن تكون صدرت من النبي)[4]. إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة الأخرى التي يدعو فيها إلى الأخذ بالقرآن وحده وترك السنة بزعم أن من نقلها بشر وهما إسرائيليات[5]... إلخ، وقد رددنا عليها أيضاً لكن نفاجأ هنا بأن الرجل بكل بساطة يقول أنا ما أنكرت السنة. !

وكاتب هذه السطور يزعم بكل ثقة أن الدكتور لم يقتصر على إنكار سنة واحدة فقط، بل أنكر ستناً كثيرة وأحاديث وفيرة جاءت في غير الشفاعة اتفقت على صحتها الأمة، وتقبلها المسلمون بقبول حسن منذ أربعة عشر قرناً من الزمان وجاء الدكتور الآن لينكرها، ويشكك فيها.

والملفت للنظر أنه ساقها في كتابه، وأنكرها بينما هي بعيدة عن موضوعه، ولا علاقة لها البتة بموضوع الشفاعة، ومع ذلك عمل لها محضر استدعاء، وأتى بها وفتح معها تحقيقاً ، وحكم عليها بالوضع والتزييف.

وما ذاك إلا ليظهر، ويتضح أمام الجميع بأن المقصود حقاً ليس إنكار أحاديث الشفاعة فقط بل إنكار السنة الصحيحة، ومحاولة إيهام القراء بأن ما بناه السابقون لا يصح التسليم به، وما بذله علماء الأمة من جهد في جمع السنة ، وضبطها، وتنقيحها، منذ عهد الصحابة إلى يومنا هذا هو مجرد عبث ولابد من التجديد، والاجتهاد، وباسم التجديد يمكن هدم ما بناه السابقون، ويأتي كل من هب ، ودب ، ليقل ما يشاء وينفي ما يشاء، ويبقي ما يشاء ، فيما وصل إليه من السنة أو بتعبير الدكتور(ليختر كل إنسان ما يروق لعقله من هذه الباقة). والمقصود بالباقة هذه ، هي تلك الأفكار التي يقولها المجددون تجاه السنة وعلى رأسهم صاحبنا الذي أراد هدم كل ما قبل ، وثبت عن رسول الله في الشفاعة كما رأينا.

أما الأحاديث في غير الشفاعة ، والتي فكر فيها ، وحكم ، وقدر ، بعد ما عمل لها استدعاء كما ذكرت. فهناك أمثلة لها.

---

(١) الشفاعة ص ١٦ ، ١٧

(٢) الشفاعة ص ١٩

(٣) الشفاعة ٢٦

(٤) الشفاعة ص ٣٤

(٥) انظر الشفاعة ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤

أمثلة لأحاديث أخرى في غير الشفاعة أنكرها الدكتور محمود :

⇦الأحاديث الواردة عن سحر النبي ﷺ :

وهاك ما قاله فيها ليكون لها نصيباً من التشكيك : (والإسرائيليات تملأ كتب السيرة وقد دسوا علينا أن الرسول سُحر، وأن جبريل استخرج لفافة السحر من البئر، وهو كذب صراح بشهادة القرآن نفسه ، بما روى على لسان الكفار اتهاماً للنبي عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[1] .

ثم يفسر الآية ويقول : فالقرآن ينسب أمثال هذا الاتهام للظالمين من الكفار الذين يريدون تشويه صورة النبي بما لا يليق، وبما ليس فيه ، والآية تكذيب ضمني لهذه الحكايات التي ذكرها كتاب السيرة... ثم يعلل قائلاً: إن هذا الكلام خطير يطعن في دور النبي ﷺ كمبلغ عن الله وكرسول، والقرآن صريح في التأكيد على عصمة النبي ، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[2] ، ويختم بقوله: (فهذه المرويات كلها أكاذيب)[3] ثم يكمل حديثه عن الشفاعة بعد ذلك .

والملاحظ : أن هذا القول تجاه هذه الأحاديث هو الكذب بعينه، وليست المرويات في هذا الشأن أكاذيب كما ذكر الكاتب ، لأن هذه الأحاديث مجمع على صحتها ، عند كل العلماء المعتبرين ، والمتخصصين في علوم السنة ، وقد رويت عند الشيخين في صحيحيهما، وعند أحمد وابن ماجة ، والنسائي وهي في أعلى درجات الصحة السبع كما يقول الشيخ الشنقيطي – رحمه الله – لاتفاق الشيخين وغيرهما على ما ورد عن سحره ﷺ[4] ولا يماري في ذلك إلا طاعن وها أنا ذا أنقل رواية عائشة رضي الله عنها عن قصة سحره ﷺ والتي سجلها البخاري ومسلم حيث قالت : (سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ، وما فعله ، لكنه دعا ، ودعا ، ثم قال : (يا عائشة – شعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه :

ما وجع الرجل ؟

فقال مطبوب[5] .

قال من طبه ؟

---

(١) سورة الإسراء آية ٤٧

(٢) سورة المائدة آية ٦٧

(٣) الشفاعة ص ٢٣ ، ٢٤

(٤) أنظر أضواء البيان ج ٤ ، ص ٣٩٩ محمد الأمين الشنقيطي

(٥) أي مسحور

قال لبيد بن الأعصم : ففي أي شيء ؟

قال : في مُشط ، ومُشاطة ، وجُف[1] طَلع نخلة ذكر.

قال : وأين هو ؟

قال: في بئر ذَروان[2] .

فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء[3] وكأن رؤوس نخلها ، رؤوس الشياطين .

قالت: يا رسول الله أفلا استخرجته ؟

قال: قد عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً فأمر بها فدفنت)[4].

فالحديث صحيح ، ولا مجال للشك فيه والذي قص الرواية هنا ، عائشة – رضي الله عنها – ، وهي أقرب الناس لرسول الله ﷺ وأعلم بحالته من غيره، والنبي – عليه الصلاة والسلام، حكى لها وهو عندها. في بيتها ، ولم تشر عائشة أن هذا السحر قد كان له الأثر على عقل رسول الله ﷺ بل كل المسألة أنه كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، وهذا التخيل مختص بالبصر فقط، وليس بالعقل ولا بالرسالة، وإذا ظن الدكتور أن هذا سيؤثر في رسالة النبي ﷺ وتبليغه كما قال، فقد أخطأ في قوله، لأنه لا يوجد عالم قال بمثل قوله، وإذا كان الدكتور يظهر غيرة على رسالة النبي ﷺ ودعوته كما يوحي للقاريء في كتابه، فعلماء هذه الأمة هم أغير الناس على هذه الرسالة الغراء، وغيرتهم ثابتة بإحقاق الحق وإبطل الاطل ، وتنقيح ، وضبط ، وتوثيق كل ما ورد عن النبي ﷺ والحكم على الصحيح بالصحة، وعلى الضعيف بالضعف ... إلخ.

ولم ينكروا ما ثبت صحته، وعلت في الصحة درجته كما فعل الدكتور ، من خلال ما مر علينا، ولو اقترب الدكتور منهم وعايش أقوالهم ، وعرض أمامه آرائهم في مسألة سحر النبي ﷺ لعلم أن ما ذهب إليه في هذه الشأن خطأ، وإنكاره باطل، وادعاؤه لا محل له من الإعراب، وكتب الصحاح لم يدس فيه باطل كما توهم ، وهاك :

أقوال العلماء في مسألة السحر هذه :

١ــ يقول ابن القيم – رحمه الله – في زاد المعاد : (قد أنكر هذا طائفة من الناس ، وقالوا : لا يجوز هذا عليه وظنوه نقصاً ، وعيباً، وليس الأمر كما زعموا، بل هو من جنس ما كان يعتريه ﷺ من الأسقام ، والأوجاع وهو مرض من الأمراض ، وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما)[5] .

---

(١) وفي رواية مسلم جُب بدلاً من جُف وهو وعاء طلع النخل.

(٢) في رواية مسلم بئر أروان

(٣) أي لون الماء تغير كلون الماء الذي ينقع فيه الحناء بسبب طول إقامته أو لمخالتطه للأشياء التي تلقى فيه

(٤) أي خشي على المسلمين أن يثير عليهم ضرراً من تذكر السحر وتعلمه ...إلخ البخاري كتاب الطب ، باب السحر ومسلم كتاب السلام باب السحر واللفظ للبخاري

(٥) زاد المعاد لابن القيم الجوزية ج٣ ص ١٥٧

فابن القيم – رحمه الله – يريد أن يقول للدكتور وأمثاله ممن ينكرون القصة على اعتبار أن ثبوتها قد يقدح في نبوته – كما يزعمون – أن ما ذهبتم إليه ، وهم ، وخيال ، ألم تقرءوا معنا أن النبي بشر ﷺ وهل هناك من ينكر ذلك، وبشريته ﷺ تجعله يصاب بما يصاب به البشر من أوجاع وأمراض ، والسحر مرض كسائر الأمراض ، فما المانع أن يصاب النبي بذلك عليه الصلاة والسلام، ألم تعتريه الحمى ، ألم يصاب بالسم من اليهود ، فهل ذلك يقدح في رسالته ؟

كذلك إصابته بالسحر لا تخل بعقله ، ولا بما أوحى به إليه ﷺ .

٢ــ ويؤكد على ذلك القاضي عياض قائلاً : (فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده ، وظواهر جوارحه ، لا على تميزه ، ومعتقده)[١].

٣ــ وينقل الإمام ابن كثير – رحمه الله –: الروايات التي نقلت قصة سحره ﷺ من البخاري ، ومسلم وأحمد – رحمهم الله ، وغيرهم وينتهي إلى القول بأن ما أصاب الرسول ﷺ من سحر اليهودي ابن أعصم هو بمثابة مرض شفاه الله منه ، بعد أن جاءه جبريل فقال اشتكيت يا محمد ؟ فقال نعم . فقال: بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك ، ومن شر كل حاسد ، وعين ، الله يشفيك فرد الله كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم ، وفضحهم ، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوماً من الدهر ، بل كفى الله ، وشفى ، وعافى.

ثم بين ابن كثير من خلال الروايات نوعية المرض الذي نجم عن السحر قائلاً: أنه ﷺ كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن[٢] ، ومن المعلوم أن هذا الأمر متعلق بشأن دنيوي لا ديني ، ولا يحرج رسالته ﷺ البتة.

٤ــ وقد أكد ذلك المازري – رحمه الله – أيضاً فيما نقله عنه ابن حجر في الفتح قائلاً : إن المبتدعة أنكروا حديث السحر ، وزعموا أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها وزعموا أن تجويز ذلك، يعدم الثقة بالشرع ، إذ يحتمل على هذا أنه يخيل إليه أنه يرى جبريل ، وليس ثم ، وأنه يوحى إليه ، ولم يوح إليه، وهذا مردود، لأن الدليل قام على صدق النبي ﷺ فيما بلغه عن ربه عن الله تعالى ، وعلى عصمته في التبليغ ثم المعجزات شهدت بتصديقه ، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل.

ثم يقول : أما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها ، ولا كانت الرسالة من أجلها ، فهو في ذلك عرضة لما يعترض البشر، كالأمراض ، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر الدنيا ما لا حقيقة له ، مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدنيا)[٣].

---

(١) فتح الباري ١٠ / ٢٣٧

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، والروايات التي نقلها ج٤ ص ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧

(٣) انظر فتح الباري ج١٠ ص ٢٣٧

تلك هي أشهر أقوال العلماء في هذا الشأن وكنا نود أن يجهد الدكتور نفسه قليلاً للاطلاع عليها والتوقف أمامها ولو لبضع لحظات ، ليدرك مدى حكمه على إنكار هذه الواقعة ، ومدى خطورة ما ذهب إليه على السنة مجملة ، وليس على هذه فقط، ومع ذلك يدعي أنه لم ينكر !!

أما الآيات التي استشهد بها في هذا السياق : فهي تبرهن على مدى خفة الوزن العلمي في هذا المجال عند الكاتب ، وأنه يلقي الأحكام جزافاً، وأنه يحاول أن يجمع بين وقائع ، وآيات ، وأحاديث لا رابط بينها أصلاً ، فآية سورة الإسراء (إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) لا تتصادم مع الأحاديث الصحيحة في إثبات السحر كما يدعي – إذ الصحيح لا يتعارض ، ولا يتصادم مع الصحيح، ولو اطلع الكاتب على سبب نزول الآية، ومكان نزولها لما قال ما قال. فالآية كما يقول المفسرون – نزلت في كفار مكة من أمثال أبي جهل ، والأخنس بن شريق ، والوليد بن المغيرة وغيرهم حيث اتهموا النبي ﷺ بالجنون فكانوا يقولون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً: أي مجنوناً ، فهو كقولهم (إن هو إلا رجل مجنون).

ولم يكتفوا بهذا بل منهم من قال عنه : كاهن ، ومنهم من قال عنه: شاعر ، ومنهم من قال: ساحر ، ومنهم من قال: إنه ينقل أساطير الأولين إلى غير ذلك[1]. فكفار مكة هم المعنيون بذلك ، وإليهم ينسب القول الذي جاء في الآية الكريمة ومكانهم مكة ، والآية نزلت في مكة ، والسورة التي ذكرت فيها الآية مكية، بينما واقعة السحر حدثت للنبي ﷺ في المدينة ، والذي قام بعمل السحر أحد رجال اليهود بالمدينة، إذن فلا رابط بين الآية المذكورة وواقعة مرضه ﷺ بالسحر ، وليس في الآية ما يدل على عدم سحره – عليه الصلاة والسلام – كما ليس بينها وبين الأحاديث الواردة في ذلك أي تعارض أو تناقض على الإطلاق كما توهم الكاتب.

كذلك الأمر بالنسبة لاستشهاده بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[2]. حيث ظن أنها تنفي سحره ﷺ وينكر من خلالها أحاديث سحره – عليه الصلاة والسلام – وهذا وهم ، وخلط مركب ، وجهل بالمراد ، إذ المراد : أن الله يعصمك من الناس في التبليغ ، لأن مطلع الآية جاء فيه: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) يقول الشيخ السعدي – رحمه الله –: (في الآية حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس فهو يقول له : إنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم ، والتبليغ ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين ، فإن نواصيهم بيد الله ، وقد تكفل بعصمتك فأنت إنما عليك البلاغ المبين)[3].

ويقول الإمام البغوي – رحمه الله – (إن لم تبلغ الجميع – أي بما أنزل إليك – وتركت بعضه ، فما بلغت شيئاً... وقيل (بلغ ما أنزل إليك) أي : أظهر تبليغه .. (والله يعصمك من

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص ٤٦ ، ٤٧ ومختصر تفسير البغوي ج٢ ص ٥١٥

(٢) سورة المائدة آية ٦٧

(٣) تفسير الكريم الرحمن ص ٢٣٩ للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

الناس) أي: يحفظك ويمنعك من القتل فلا يصلون إلى قتلك)[1]. أي لا يستطيعون أن يصلوا إلى هذه المرحلة البتة.

أما الاعتداءات فقد تعرض لها ﷺ (وثبت أنه ألقي عليه سلا جذور ، وجذبه الأعرابي ببردته ، وكسرت رباعيته ، وشج ، ورمي بالحجارة ﷺ[2] كما مرض وسحر – عليه الصلاة والسلام – .

وعليه، فاستشهاد الكاتب بالآية غير موفق لأنها لا تؤيده في إنكار أحاديث السحر – كما رأينا – وكان من الأفضل له أن يطلع على كتب المفسرين قبل أن يقدم على هذا الاستشهاد لكن الملفت في كل صفحات الكتاب أن الكاتب يفسر على هواه ما يريد تفسيره، ويتصرف في القرآن وآياته بطريقة عجيبة وغريبة ، دون أن يرجع أو يثبت للقارىء أنه اطلع على كتاب تفسير واحد ، لا من قريب ، ولا من بعيد ، وقد تبين لنا سبب ذلك بوضوح ، إذ لو فعل هذا الأمر ، لافتضح مراده ، لأنه لا يجد كتاباً واحداً يؤيده.

ب ــ حديث رهن الدرع ، وإنكار الدكتور له : وتتواصل حملة الدكتور مصطفى محمود على السنة ، وإنكار صحيحها مع أنه يقول (أنا لم أنكر السنة – فتعالوا لنرى ماذا قال في حديث الدرع الذي رهنه النبي ﷺ ليهودي قبل موته – هل حقاً لم ينكره ؟

يقول الدكتور : (وقرأنا في أكثر من كتاب من كتب السيرة أن النبي ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي وهو كذب ، وافتراء لا يعقل).

ثم يعلل لإنكاره هذا الخبر ويقول : (كيف يكون ذلك ، والغنائم وخيرات البلاد كانت تجبى إليه من كل مكان ، وله الخمس بحكم القرآن ، وعثمان بن عفان الذي مول غزوة تبوك من ماله إلى جواره، فما حاجته إلى رهن درعه عند يهودي إلا أن تكون فرية نكراء من افتراءات اليهود دسوها على كتاب الحديث). والقرآن يقول لرسوله: (ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغني).

ثم يعلق: (الله يقول أغنى رسوله فما حكاية الدرع إلا أن تكون إسرائيليات مدسوسة، وغيرها كثير)[3].

وهكذا لم يشكك الدكتور في هذا الحديث فقط بل في الكثير من أمثاله ، أي السنة إجمالاً وعلى كلٍ فلنا على كلامه الملحوظات التالية :

أولاً : من ناحية ا لتعبير – نراه يعبر عن كتب الحديث بأنها هي كتب السيرة وقد نبهت على ذلك من قبل ، ولكنه كررها كثيراً في أكثر من موضع في كتابه[4] وهذا غير دقيق فكتب السيرة خاصة

(١) انظر مختصر تفسير البغوي ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١

(٢) انظر المراجعات ص ٥٤ الشيخ الشريم

(٣) الشفاعة ص ٤١ ، ٤٢

(٤) انظر الشفاعة ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٧ ، ٧٢

بمغازيه وأحواله ﷺ بينما كتب الحديث أعم. لكن الدكتور لم ينتبه لذلك وخلط الأمور، لأنه قليل البضاعة في هذا العلم.

ثانيا: إنه يقول : والرسول له الخمس بحكم القرآن، والأولى أن يقول بحكم الله لأن القرآن كلام الله عز وجل فيه أحكامه سبحانه. وكذلك قوله : والقرآن يقول لرسوله، والأصح والله يقول لرسوله لأن القرآن لم يرسل الرسول بل منزل القرآن – تبارك وتعالى – هو المرسل للرسول ﷺ ولكن الكاتب لتسرعه في الأحكام على السنة – ينسى أو يغفل عن التدقيق في العبارات التي يكتبها مع أنه يجب أن يكون دقيقاً، لأنه ليس في صدد كتابة رواية أو قصة بل في صدد الحديث عن معتقدات شرعية عند المسلمين. وفرق شاع بين الموضوعين.

ثالثاً: ونأتي بعد ذلك إلى مسألة إنكاره للحديث وادعائه بأنه من وضع اليهود ودسائسهم، وهذا لا دليل عليه لأن الحديث في الصحيحين وغيرهما ، وقد أجمع جمهور أهل السنة على صحته، وروته عائشة رضي الله عنها قائلة: (إن النبي ﷺ اشترى من يهودي طعاماً إلى أجل ورهنه درعاً له من حديد)[1]. (وقد فك أبو بكر – رضي الله عنه – الدرع بعد النبي ﷺ)[2].

ولم يقل أحد من علماء الأمة أن كتابي البخاري ومسلم قد وضع اليهود فيهما أحاديث ، ودسوها للمسلمين كما ذكر الدكتور (بل أجمع أهل صنعة الحديث – كما يقول صاحب كتاب فتح المغيث – على أن الأخبار التي اشتمل عليها الصحيحان مقطوع بصحة أصولها، ومتونها ، ولا يحصل الخلاف فيها بحال وإذا حصل فذاك اختلاف في طرقها ، ورواتها)[3] .

إذن فالادعاء بأن اليهود دسوا هذا الحديث، وهم، لأن اليهود ليس لهم قدرة ، وشوكة ، في عصور رواية الحديث ، وتدوينها حتى يتمكنوا من اختراق أهم مرجعين، بعد كتاب الله ، وهما صحيحا البخاري ومسلم لأنهم على مر العصور كانوا يعيشون عيشة دنية، ولم يكن لهم تلك الشوكة ، والشكيمة إلا في العصر الذي نعيشه الآن، ووآسفاه)[4].

رابعاً: كما أن هذا الحديث الذي نظر إليه الدكتور، قد نظر إليه فقهاء المسلمين قبله واستنبطوا منه أحكاماً عدة منها :

- جواز التعامل مع غير المسلمين ، ولاسيما أهل الكتاب.
- جواز التعامل مع من يشوب ماله بعض الحرام مثل اليهود.
- جواز الرهن في الحضر وفي القرآن جاء ذكر الرهن في السفر.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الرهن باب من رهن درعه ، الفتح ١٥١/٨ وصحيح مسلم في كتاب البيوع باب الرهن وجوازه في الحضر والسفر وانظر الجمع بين الصحيحين ص ٢٦١ – كتاب البيوع ، وانظر الترمذي عن ابن عباس برقم ١٢١٤

(٢) فتح الباري ج٥ / ١٦٩

(٣) فتح المغيث للسخاوي ج١ / ٥٢

(٤) انظر المراجعات .. ص ٦٦ الشيخ الشريم

وجود بعض اليهود في المدينة – قبيل وفاة النبي ﷺ إلى غير ذلك من الأحكام[1] .

فلو علم هؤلاء الفقهاء أن هذا الحديث مدسوس لما اعتمدوا عليه، ولما جازت هذه الأحكام ، فهل الكاتب أعلم ، وأفقه من فقهاء هذه الأمة الأجلاء، وكيف يكتشف ما لم يكتشفه هؤلاء الأفاضل ، وكذلك أهل صنعة علم الحديث ، – سبحان الله – .

خامساً: كما أن استدلال الدكتور على إنكاره للحديث بدعوى أن النبي ﷺ كانت تجبى إليه الغنائم من كل مكان ، وله الخمس فيها. يكشف عن عدم معرفته بسيرة رسوله ﷺ المعرفة الحقة. فالنبي ﷺ كان من أزهد الناس في متاع الدنيا، وكان يمر على بيته الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيان رسول الله ﷺ نارٌ)[2]. حكت ذلك زوجته عائشة رضي الله عنها إلى ابن أختها ابن الزبير – رضي الله عنه – ، بدون خجل من هذه المعيشة الضنكة التي لا تقبلها الكثيرات من الزوجات في زماننا ، ولا تقبل أن تحكيها لغيرها، لكن عائشة – رضي الله عنها – تعلم أن بيت النبوة يجب أن يطلع على ما فيه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، حتى إذا ما ألم بالبعض الضيق في المعيشة في يوم ما، يتذكروا ما كان عليه بيت النبوة من قبل فتهدأ نفوسهم، وترضي قلوبهم بما قسم الله لهم، ثم وضحت أكثر لما قال لها ابن أختها: (يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت الأسودان التمر ، والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه)[3].

وللنظر لم تقل عائشة كان طعامنا – الفطيرة ، والبسبوسة مثلاً وكان شرابنا – أرقى أنواع المرطبات – إنما قالت الحقيقة التي خفيت عن الدكتور، وظن أن بيت النبوة مثل أبيات الملوك، والرؤساء، والقياصرة في العالم ، يأكلون ويشربون مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

إن الطعام صنف واحد وهو التمر فقط ، والشراب هو الماء لا غير. فلينظر ويتأمل كاتبنا في أطعمة أهل البيت الذي يقول عن صاحبه ﷺ أنه كانت تجبى إليه الغنائم، ويأخذ الخمس ، فكيف يرهن درعه . لأنه تخيل أن هذا مثل بيوت أهل الدنيا المترفين الذين يأخذون الغنائم، والثروات، ويأكلون ويمرحون كما تأكل الأنعام، وينسون الفقراء، والمساكين .

إن الخمس الذي يتحدث عنه الكاتب كان يصرف في مصالح الأمة وما كان – عليه الصلاة والسلام– يدخره ، أو يرسله إلى بنوك سويسرا وإنجلترا كما يفعل الآخرون الآن، وظل كذلك إلى أن توفى فقيراً، ودرعه مرهونة . تقول عائشة – رضي الله عنها – في حديث آخر تتحدث فيه عن ثروته التي تركها، بعد وفاته ﷺ ، كم مقدارها ، وفي أي البنوك وضعها ، وما نصيبها من ذلك .

---

(١) انظر الشفاعة في الآخرة ص ٥٢ د/ القرضاوي.

(٢) الجمع بين الصحيحين – برواية الإمام مسلم ص ٥١٧ ح/١٤٨٩ جمع ياسر السلامة

(٣) السابق نفسه

انظر ماذا قالت ؟ قالت : (توفي رسول الله ﷺ وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعيرة في رفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال عليّ فكِلْتُه ففنِيَ)[1] ، وتقول أيضاً (ما شبع آل محمد ﷺ يومين من خبز بر إلا وأحدهما تمر)[2].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – كان يقول: والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا)[3].

هذا هو بيت النبوة ، وهذا هو طعام النبي وآل بيته الأطهار ، وهذه شهادة أبي هريرة بعد اطلاعه بنفسه على المؤن والإمدادات التي تصل إلى هذا البيت الكريم الذي يعد اشرف بيت على وجه الأرض، فهل علم الدكتور بذلك ، وهل أخبره أحد بالثلاجات والفريزرات – وبقية المبردات، التي كانت تصطف في مطبخ عائشة، وبقية نسائه ﷺ . هذا عن ثروته الداخلية ، أما عن ثروته الخارجية التي تبعته بعد أخذه الخمس، فيحدثنا عنها عمر بن الحارث – رضى الله عنه – قال: (ما ترك رسول الله ديناراً ، ولا درهماً ، ولا عبداً ، ولا أمةً إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة)[4].

هذه هي ثروة رسول الله ﷺ التي تركها بغلة وسلاح وأرض صدقة لابن السبيل. فأين ما ادخره من الخمس، إنه لم يدخر شيئاً بل كان ينفق إنفاق من لا يخشى الفاقة، لأن هدفه ليس الادخار ولا الاستثمار الدنيوي إنما هدفه تبليغ رسالة ربه للعالم كله ، فلا مانع إذن من أن يأخذ الخمس، ولا مانع أن يأتي وقت ينفذ فيه الشعير الذي يتخذون منه الخبز.

سادسا : أما استدلاله من سورة الضحى بقوله تعالى: (ووجدك عائلاً فأغنى) وظنه أن هذا يؤيد دعواه في إنكار حديث رهن الدرع، فهو استدلال غير موفق إذ المراد: لم يكن غنياً عن كثرة المال ولكن الله أرضاه بما آتاه، وذلك حقيقة الغنى)[5].

أو المراد : كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمن سواه فجمع له بين مقامي الفقير الصابر ، والغني الشاكر، صلوات ربي وسلامه عليه)[6].

أو تفسير الآية ن خلال قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه عنه أبو هريرة – رضي الله عنه – أنه – عليه الصلاة والسلام – قال : (ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس، وهو القائل عليه الصلاة والسلام : قد أفلح من أسلم ورُزِق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه)[7].

---

(١) السابق ٥١٨ ح/١٤٩٠ متفق عليه

(٢) السابق ٥١٧ ح/١٤٨٨ متفق عليه

(٣) السابق ٥١٨ ح/١٤٩٢

(٤) البخاري – كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته الفتح ٨ /١٤٨

(٥) مختصر تفسير البغوي ج٢ ص ١٠٢٢

(٦) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٥٣٨ لابن كثير

(٧) السابق ج٤ ص ٥٣٨

هذا ما نقله المفسرون وبينوه تجاه هذه الآية الكريمة من سورة الضحى ، وهو بعيد جداً عما يريده الدكتور ، هذا بالإضافة إلى أن رهن الدرع كان بالمدينة وفي أواخر أيام رسول الله ﷺ بينما سورة الضحى بكل آياتها نزلت في مكة ، بل هي من أوائل ما نزل من القرآن ، وفيها قوله تعالى (ووجدك عائلاً فأغنى). ومع ذلك جاءت أيام على الرسول المصطفى ﷺ كان يشد فيها الحجر على بطنه من شدة الجوع ، وأيام أخر أكل فيها هو وأصحابه أوراق الشجر بعد الحصار الكامل الذي فرضه عليه كفار مكة والذي استمر ثلاث سنوات حسوماً، وذلك مشهور في السيرة النبوية)[1]. فهل راجع الدكتور ذلك ووقف عليه ليعلم أن استدلاله بآية سورة الضحى في غير محله ، وأن إنكاره لهذا الحديث المتفق على صحته، والذي يفخر به المسلم في كل مكان في العالم لأنه يكشف عن سيرة رجل من أعظم الرجال وصفوتهم عبر الأزمنة والقرون ، وقد مات وهو مدان بدراهم معدودة لم يأخذها ليمتع بها في الدنيا. بل ليقتات بها وليطعم أهله، وهو الذي كان بإمكانه أن يعيش وسط القصور وينام على الحرير ، ولكنه ﷺ رفض ذلك وكان يُذكّر بتعمير القبور لا القصور ويفضل الحصير على الحرير، صلوات ربي وسلامه عليه.

سابعاً: أما قوله : (كيف يرهن درعه ليهودي ، وبجواره عثمان بن عفان – رضي الله عنه – الموسر، الذي مول غزوة تبوك ، فما حاجته أن يرهن درعه عند يهودي – انتهى) .

هذا جوابه عند العلماء واضح إذ يقولون فيه : (إن الحكمة في عدوله ﷺ عن معاملة مياسير الصحابة إلى معاملة اليهود إما لبيان الجواز ، أو لأنهم لم يكن عندهم إذ ذاك طعام فاضل عن حاجة غيرهم، أو خشي المصطفى ﷺ أنهم لا يأخذون منه ثمناً – أو عوضاً فلم يرد التضييق عليهم)[2].

وهذا الجواب مقنع ، وواقعي لأنه يكشف عن مدى العفة التي كان يتمتع بها النبي ﷺ تجاه أصحابه ، وتحرجه منهم ، والواقع اليومي للناس يشهد بإثبات ذلك ولا مانع ، فكثير من الناس يحتاج الواحد منهم إلى الشيء ، فلا يطلبه من أقربائه ولا حتى من أولاده ، بل يذهب إلى جاره ، ويستقرض منه أو إلى الغريب البعيد ، ويقضي منه ما يريد.

فما المانع من رهن درعه ﷺ لجاره اليهودي دون غيره من المسلمين ، ولماذا التشكيك في أحاديث ثبتت صحتها ، وأجمعت على ذلك الأمة ؟

الحقيقة : أن الدكتور نقل هذا للتشكيك بكامله من أعداء الإسلام ، وقدمه لنا باعتباره مجدداً ومفكراً، تجاه قضايا إسلامية ، وظن أن العلماء في غفلة من معرفة ذلك وأنهم لم يقفوا على شبهات الأعداء ويردوا عليها ، ولكنهم وقفوا ، وصدوا ، ودافعوا ، وجاهدوا في هذه الأمور حق الجهاد، وها هو ابن قتيبة – رحمه الله – في كتابه تأويل مختلف الحديث ينقل هذه الشبهة بكامل حذافيرها من فم الأعداء تجاه هذا الحديث الذي يستنكره الدكتور .

---

(١) راجع كتاب محمد ﷺ القرية العالمية د/ محمد الهاشمي ص ١١٠ إلى ص ١١٧ -- مراكز الراية – جدة

(٢) فتح الباري ج٥ /١٦٨

ويرد عليها يقول ابن قيبة: وقالوا : (أما كان في المسلمين رأس ولا موثر ، ولا مقرض ، وقد أكثر الله عز وجل الخير، وفتح عليهم البلاد – وقالوا بهذا الحديث – وهو كذب ، وصاحبه أراد مدح النبي ﷺ بالزهد والفقر، وليس هكذا تمدح الرسل، وكيف يجوع من يجهز الجيوش، ومن يسوق المئين من البدن ، وله مما أفاء الله عليه مثل فداك ، وغيرها ؟)[1] أ–هـ .

وإنني بدوري أدعو القاريء الكريم إلى أن يتأمل هذا النص جيداً، ويرجع إلى ما كتبه الدكتور، ونقلناه عنه حرفياً وناقشناه فيه، ويعقد مقارنة بين النصين ، فإنه سيجد المطابقة التامة بين القولين، وسيتعرف على المصدر الحقيقي لأقوال الدكتور، ولا تعليق – والله المستعان .

ج – إنكار الدكتور للحديث الوارد في موسى عليه السلام ، وملك الموت · وعن هذا الحديث يقول الدكتور أيضاً : (ونقف أمام الحديث الذي رواه البخاري عن سيدنا موسى حينما قضى عليه الموت، وأرسل له ملك الموت ليقبض روحه، ماذا قال لنا البخاري؟ قال : إن موسى رفض أن يموت ، وضرب ملك الموت على عينه ففقأها ، فرجع ملك الموت إلى ربه فرد له بصره.

ثم يعلق قائلاً : (كيف يجوز هذا الكلام ، والقرآن يقول في قطع لا لبس فيه: (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ....) [نوح/٤] فأين موسى من كل هذا ، وكيف يضرب الملك على عينه ويرفض أن يموت، ثم يختم بقوله: إن الحديث واضح الزيف ، ومثله كثير في البخاري)[2].

انظر أخي القاريء الكريم إلى تسرع الكاتب في الحكم وإلى إطلاق لسانه وقلمه على الإمام البخاري واتهامه بأنه مزيف ، وملفق ، ليس لهذا الحديث فحسب، بل لأحاديث أخرى كثيرة في كتابه وما ذاك إلا لأن الحديث لم يتقبله عقل الدكتور فقط أما كون الأمة وعلماء الأمة قد تقبلوا هذا الحديث فهذا لا يهم الكاتب بشيء !!

فمعيار القبول عند الكاتب هو استحسان العقل لهذا الحديث، أو عدم استحسانه، ولذا رأي أنه غير مستحسن فأنكره بملأ فيه، وبدون تردد، وصرح أن مثله كثير وسينكره. وعلى كلٍ ، فالدكتور له مواقف معادية كثيرة للإمام البخاري بدون وجه حق، ولنا معه مواقف بعد قليل نرد فيها أيضاً على مزاعمه تجاه هذا العَلَمْ الفذ التقي الورع ، ونعود هنا إلى ما نحن بصدد مناقشته في دعواه القائل فيها: (ما أنكرنا السنة) ! وها هو الحديث الذي بين أيدينا – الأنموذج الثالث – من سلسلة الأحاديث التي ينكرها مع أنها ليست من أحاديث الشفاعة التي صب جام غضبه عليها، بل هي أحاديث متنوعة المواضيع، وموضوع الحديث الذي بين أيدينا لا يتقبله الكاتب ويستغربه ، وكذلك نحن لم يفاجئنا الكاتب بإنكاره ، واستغرابه لهذا الحديث، فقد نبهنا علماؤنا الأجلاء إلى أن أعداء السنة قديماً قد رفضوا هذا الحديث، وبنفس المنطق ، والأسلوب ، ذكر ذلك ابن خزيمة

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٣٨ ، وانظر اكتساب المناعة ص ٩٦

(٢) الشفاعة ص ١٠٦ ، ١٠٧

رحمه الله – قائلاً: (أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وقالوا : إن كان موسى عرفه – أي ملك الموت – فقد استخف به ، وإن كان لم يعرفه فكيف لم يقتص له من فقء عينه)[1].

وذكر المازري نفس القول ولكن بلفظ : (أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكروا تصوره ، وقالوا كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت)[2].

إذن فقول الدكتور – هذا لا يجوز إلخ – هو نفس قول من سبقه وإنكاره هنا هو نفس إنكار من سبقه تماماً بتمام ، وهذا يثبت أن الدكتور متلبس بين أيدينا الآن بإحياء أقوال المبتدعة ، والملاحدة ، ولا أعتقد أن ما قاله هنا هو توارد أفكار ، أو مجرد تشابه بين الأفكار !!

لا ، بل يبدو أن الأمر أكبر من ذلك ، لأنه لا يعقل أن تتطابق الأفكار كل مرة ، فقد ضبطناه متلبساً بمثل هذا في الحديث السابق – كما أسلفنا وبيّنا – وتحامل الدكتور على البخاري الذي أورد الحديث ، وعلى مضمون الحديث ذاته تحامل غير منطقي بالمرة لما يلي :

أولاً : لأن الإمام البخاري ليس وحده الذي أورد الحديث بل رواه معه مسلم في صحيحه ، وهاك ذكرٌ للروايتين بنصيهما ، وذلك لأن الكاتب ذكر مضمون الرواية من البخاري ، وتصرف فيها بأسلوبه الساخر – كما رأينا – وحذف وقدم وأخر العبارات بطريقته هو ، ثم نسبها للبخاري رحمه الله – بدون أي إشارة إلى موضع النص في البخاري ، ولا رقمه، ولا من الذي روى الحديث من الصحابة الكرام وهل هو مرفوع[3] أم لا ... إلخ ، كل ذلك لم يذكره الكاتب ، وهو منافي لأبسط قواعد الحديث العلمي – خاصة في الأمور الصحيحة.

أ - رواية البخاري : روى البخاري بسنده من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : (أرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني على عبد لا يريد الموت قال: ارجع فقل له: أن يضع يده على متن ثور فله بما غطى يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت. قال : فالآن، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر) قال أبو هريرة – رضي الله عنه – فقال رسول الله ﷺ لو كنت ثم لأريتكم قبره من جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر) .

---

(١) انظر فتح الباري ج٧ ص ١٠٤

(٢) انظر فتح الباري ج٧ ص ١٠٤

(٣) الحديث المرفوع هو ما أضيف إلى النبي ﷺ قولاً أو فعلاً ، وسواء كان متصلاً أو منقطعاً أو مرسلاً ، ونفى الخطيب أن يكون مرسلاً فقال : هو ما أخبر فيه الصحابي عن رسول الله ﷺ انظر الباعث الحثيث ص٥٤

قال : – أي البخاري – وأخبرنا مَعْمَرٌ عن همام قال: حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ نحوه[1]. ومثله في مسلم.

ب) رواية مسلم : وفي مسلم عن أبي هريرة – رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربك، قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى ، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، قال فرد الله إليه عينه ، وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما توارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة ، قال: ثم مه ، قال: تموت، قال : فالآن من قريب ربي أمتني من الأرض المقدسة رمية بحجر).

قال رسول الله ﷺ (والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر)[2]. هاتان هما الروايتان ، ذكرهما البخاري ومعه مسلم

وليس البخاري فقط بل بجوار البخاري ومسلم روى الحديث أيضاً الإمام أحمد في مسنده[3] والنسائي في سننه[4] وغيرهما.

والكاتب ، لم يذكر سوى البخاري ، وذكر كما قلت الحديث بأسلوبه هو ، لا بالأسلوب الذي وردت به الرواية في البخاري – كما يرى القارىء – بل كذب على البخاري ، وقال : (ماذا قال لنا البخاري ؟... إلخ)

بينما البخاري لم يقل ، إنما الذي قال هو رسول الله ﷺ والذي نقل عن رسول الله – عليه الصلاة والسلام – هو أبو هريرة – رضي الله عنه، ثم عن أبي هريرة الثقات إلى أن وصل الأمر للإمام البخاري ، فنقله بكل أمانة ، وسجله في كتابه، بعد أن تأكد من أن الرواية توافرت في قبولها عنده جميع الشروط والمعايير التي وضعها لذلك، وهي شروط لم يختلف على استحسانها – علماء أهل السنة على الإطلاق[5] فكيف ينسب الدكتور للبخاري ما لم يقله، أو يتقوله ، بل الرجل نقل ما وصل إليه فقط وأثبت السند فقط.

---

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب وفاة موسى رقم ٣٤٠٧

(٢) الجامع بين الصحيحين – برواية مسلم كتاب الفضائل ح رقم / ١١٧٥ د/ ياسر السلامة

(٣) مسند أحمد ١٣ / ٨٤ ، ٥٠٦

(٤) سنن النسائي ج٤ / ١١٨

(٥) انظر في ذلك الباعث الحثيث ص ٣٤ ، ٣٥

ثانياً: نأتي إلى اعتراض الدكتور في أن الواقعة لا تجوز ، لأن القرآن يقول – حسب تعبيره – (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون).

وإنني ألفت نظر القارىء إلى عدم دقة الكاتب في اختيار العبارات ، مرة أخرى ، فالقرآن لا يقول يا دكتور إنما الله عز وجل هو الذي يقول، والقرآن هو كلامه سبحانه فهو مقول القول، وهو كلام الباريء فلينتبه القارىء، ثم إن الآية لا علاقة لها بالحديث ولا تصلح لتكون دليلاً على إبطاله لأن الآية صحيحة ، والحديث صحيح ، والصحيح لا يعارض الصحيح، والمفسرون قالوا في معناها: أي بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر الله تعالى بكون ذلك لا يرد، ولا يمانع فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات[1].

فهي دعوة للثبات على الطاعة والإيمان وهي موجهة من نوح عليه السلام آنذاك إلى قومه، وكذلك إلى جميع الخلائق[2].

ثالثاً: وإذا كانت الآية لها علاقة بانتهاء الآجال، وهي كذلك حقاً ومن ضمنها أجل موسى عليه السلام ، فهل يستطيع أن يثبت لنا الدكتور أن موسى عليه السلام كان يعلم أن من يقف أمامه ، هو ملك، ولذلك امتنع عن أن يسلمه نفسه ، وصكه ، وفقأ عينه ، لأنه لا يريد الموت، هل يستطيع الدكتور أن يثبت ذلك ؟؟!

بالطبع لا لأن الحديث لم يذكر أنه كان يعرفه فكيف إذن ينكر الحديث بدعوى أنه لا يمكن أن يلطم موسى الملك، ولا يمكن أن يمتنع عن قبض روحه ولا يسلم بقضاء الله، ويقول بملأ فيه إن هذا لا يجوز.

وأقول معه: نعم لا يجوز ، إذا كان الحديث الذي تقرأه من البخاري فيه أن موسى علم أن من أمامه هو ملك الموت ، وجاء ليقبضه بأمر الله، لكن الواقع كما رأينا أن الحديث ليس فيه هذا الأمر فماذا تقول بعد ذلك ؟ .

لقد وددت أن يكون الكاتب قد اطلع على ما كتبه العلماء في هذا رداً منهم على المبتدعة الذين اطلع على أقوالهم فقط، ولم يجهد نفسه في الاطلاع غلى ردود أهل العلم .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤

(٢) انظر مختصر تفسير البغوي ج٢ ص ٩٦٩

يقول العلماء في الرد : إن الله لم يبعث ملك الموت لموسى وهو يريد قبض روحه حينئذ وإنما بعثه إليه اختياراً ، وإنما لطم موسى ملك الموت لأنه رأي آدمياً دخل داره بغير إذنه ، ولم يعلم أنه ملك الموت ، وقد أباح الشارع فقء عين الناظر في دار المسلم بغير إذنه ...)[1] وهذا القول حق ، وقد اختاره المازري ، والقاضي عياض.

وقال الخطابي : إن موسى دفعه عن نفسه لما ركب فيه من الحدة ، وأن الله رد عين ملك الموت، ليعلم موسى أنه جاءه من عند الله فلهذا استسلم حينئذٍ[2] إلى غير ذلك من الأقوال وكلها تفيد بأن موسى عليه السلام لم يعرف أن الذي أمامه هو ملك الموت، لأنه قد جاءه في صورة آدمي، وفاجأه وظن موسى أنه رجل يريد إيذاءه فدافعه عن نفسه فأدت المدافعة القوية من موسى – عليه السلام – إلى فقء عينه ولا يوجد في الحديث تصريح بأن موسى تعمد فقء عينه، وهذا هو ما أردنا من الدكتور إثباته، حتى يكون لديه مستند قوي في رده لهذا الحديث الصحيح.

ثم إن قال الدكتور أو خطر بذهنه أن موسى – عليه السلام – كان نبياً، والذي جاءه ملك فكيف لا يعلم أنه ملك، وإن كان قد جاءه في أي صورة، لو خطر بذهنه ذلك، حتى لا نبقي لديه أي خاطرة لم نجب عليها.

فإنا نقول له : ماذا تقول في إبراهيم – عليه السلام – حينما جاءه الملائكة يبشرونه بإسحاق وقدم إليهم مأكول، هل كان يعلم أنهم ملائكة ؟ لو كان يعلم ما قدم إليهم الأكل لأن الملائكة لا تأكل ولا تشرب كالآدميين، وهو نبي ، فكيف لا يعرفهم؟ وماذا تقول في لوط – عليه السلام – لما جاءه الملائكة ، وخاف عليهم من قومه؟ فلو عرف أنهم ملائكة ما خاف عليهم، كذلك موسى – عليه السلام – ما علم أن من أمامه ملك الموت فوقع منه ما وقع، إذن فلا حاجة إلى رد الحديث وإنكاره، كما حصل من الدكتور الذي قال: أنا لم أنكر السنة.

وأكرر وأقول : كما قلت من قبل إذا لم يكن قولك هذا هو الإنكار فما هو الإنكار عندك ، إننا للإجابة لمنتظرون...

ونأتي بعد ذلك إلى مناقشة موقف الدكتور من الإمام البخاري ، وادعائه بعد ذلك أن العلماء يؤيدونه فيما ذهب إليه في الشفاعة وفي السنة.

---

(١) انظر فتح الباري ج٦ ص ٥١٠

(٢) انظر السابق ، وصحيح مسلم بشرح النووي ج٨ / ١٤٣

المبحث الثالث
مناقشة موقف الدكتور مصطفى محمود
من الإمام البخاري – رضي الله عنه

منذ قليل رأينا كيف تهجم الدكتور مصطفى محمود على الإمام البخاري رضي الله عنه واتهامه بأنه مزيف ، ومختلق للأحاديث ، ومن قبل ذكرت عنواناً كاملاً يحوي استهزاؤه ، وسخريته من روايته ، لأحاديث الشفاعة ، وزعمه بأن كتابه الصحيح . ملئ بالأحاديث الموضوعة والمدسوسة من قبل اليهود ، وهنا أود أن يقف معي القارئ قليلاً لعله يطلع معي على الجانب النفسي لشخصية الكاتب وهو يمسك بقلمه ليقذف الإمام البخاري ، بتلك العبارات اللاذعة التي لا يصح أن تصدر من باحث عن الحق – كما يزعم – أو يقذف بها عالم من علماء المسلمين فضلاً عن كونه الإمام البخاري .

وهل يستحق هذا الإمام الذي أوقف حياته ، لخدمة الدين ، وسنة سيد المرسلين أن تناله وتجرح شخصه الكريم ، تلك العبارات التي أصدرها الكاتب؟ فتعالوا لنرى ماذا يقول ، وكيف يناقض نفسه تجاه البخاري .

شخصية مضطربة :

هذا العنوان أقصد به شخص الكاتب ، ولم أر له بديلاً أخف وطأة منه ، وأنا أقرأ كلامه تجاه أمير المؤمنين في الحديث ، ففي الوقت الذي أطلق فيه عباراته السابقة تجاه شخص البخاري ، وجلل دوره في روايته لأحاديث الشفاعة ، زاد هنا وقال : (إن رب العالمين لم يقل لنا إنه حفظ كتاب البخاري ، أو غيره من كتب السيرة ، وما يقوله البخاري مناقضاً للقرآن ، يُسأل عنه البخاري يوم القيامة ، ولا نسأل نحن فيه)[1]

في الوقت الذي يقول فيه هذه العبارات الجارحة ، والتي تنزل من قدر صاحبها عند أي قارئ ، نراه يقول في السطر التالي بعد الفقرة السابقة مباشرة :

(ولم يكن البخاري رضي الله عنه ، وأرضاه ، هو الوحيد الذي خاض في موضوع السيرة النبوية ، ولكن كتاب السيرة كثيرون تناقضوا ، واختلفوا ... وامتلأت كتبهم بالموضوع)[2] إلخ انتهى .

وهنا السؤال : كيف يتهم الكاتب إمامنا الجليل بأنه كذب على الله ورسوله ، وأنه أتى بأحاديث مناقضة ، ومخالفة للقرآن الكريم . في الشفاعة ، وأن الله عز وجل ، سيسأله ويحاسبه عن ذلك يوم القيامة . ثم يترضى عليه ، ويقول : (البخاري رضي الله عنه) وهل يصح التراضي على الكذاب .

---

(١) الشفاعة ص (٤١)

(٢) نفسه

إن الكاتب يزعم أن الإمام كذاب ، وكذبه ليس هيناً لأنه يكذب على الله ورسوله – كما يدعى وأنه أفسد الدين بذكره لأحاديث مختلقة في الشفاعة ، وغيرها ، وأن هذه الأحاديث يقول عنها في صفحة تالية : (لم تأت بالمسلم الأفضل ، بل جاءت بالمسلم الأضعف المتواكل)[1] .

فهل من يفعل ذلك يصح الترضي عليه ؟!

إنه لم يقل رحمه الله فقط ، بل يعطيه درجة عظيمة ، وهي درجة الترضي التي لا تكن إلا للأولياء، والصالحين ، والمخلصين من الناس، ليس هذا فحسب ، بل نراه يقول في موضع آخر ما نصه : (لسنا ضد البخاري ، ولا ضد رواة الأحاديث إنهم على رؤوسنا جميعاً)[2] .

ثم يقول بعد ثلاث صفحات من فقرته هذه : (إن البخاري مزيف ، وكتابه ملئ بالكثير من الأحاديث المزيفة)[3]

قلت: إن هذا لشيء عجاب ، إن الرجل ليس ضد البخاري ولا ضد غيره ، وقد رأينا من قبل كيف اتهمَ غيره من الرواة بأنهم كتبوا أحاديث ليرضوا الحكام والسلاطين ، ومع ذلك يقول الآن : وهم جميعاً فوق رأسي بما فيهم البخاري . ولكنه مزيف !!

البخاري عنده مزيف ، وهو فوق رأسه ! وكذاب ، وهو فوق رأسه ! ومختلق للأحاديث التي تناقض القرآن ، في الشفاعة ، وغيرها ، ومع ذلك يرفعه الدكتور ، هو وبقية الرواة الذين على نهجه يسيرون فوق رأسه .!!

ما أغرب تواضعك ، وعملك ، وقولك أيها الدكتور ؟! إنني حقيقة في حيرة من هذا التصرف العجيب المضطرب وهو إن دل فإنما يدل على أن الكاتب إما جاهل جهلاً مركباً في معلوماته عن البخاري، وإما مريض مرضاً نفسياً معضلاً يحتاج منا أن نذهب به إلى أقرب مصحة نفسية (مستشفى العباسية) ليدخل ركن (عنبر رقم ٤) أحوال مستعصية .

ما هذا التخبط في الكلمات ، والعبارات المتناقضة ، وهل يملك أحد منا قاموساً نستطيع من خلاله حل رموز التناقض الذي نراه لدى الكاتب ؟! حقيقة كنت لا أود أن أرى الدكتور بهذه الحالة وما كنت أظن به إلا خيراً ، ومازلت على ذلك من باب حسن الظن بالآخرين ، ولإعجابي ببرنامجه العلم والإيمان ، والذي استفاد منه الكثيرون ، وكذلك لردوده على الملحدين بعد أن هداه الله ، وأبعده عنهم ، لكن ما كتبه في شخص البخاري ، وتشكيكه في روايته ، لأنها لا تلتقي مع عقلية الكاتب ، يبعث على الأسى ، ولا يستفيد منه إلا خصوم الإسلام ، لذا سأعطي فكرة سريعة عن البخاري ، وأخلاقياته الحقيقية ، وورعه الذي لم يطلع عليه الكاتب ، وأقوال العلماء فيه ليتبين الفرق بين البخاري الحقيقي الذي يعرفه علماء الإسلام ، وبين البخاري الذي يتخيله الكاتب ، ويقدمه للقراء في كل مكان .

---

(١) الشفاعة ص (١٠٣)

(٢) انظر نفس الصفحة

(٣) الشفاعة ص (١٠٧)

إطلالة سريعة على السيرة الذاتية للإمام البخاري ، رضي الله عنه :

١ – اسمه ، ونسبه ، ونشأته العلمية : هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبه الجعفي – مولاهم – البخاري . نسبة إلى بخاري[١] ، وهي مدينة مشهورة من أعظم مدن ما وراء النهر ، (كثيرة البساتين ، واسعة الفواكه)[٢] وهي الآن تحت الاحتلال الروسي .

كان جده بردزبه فارسياً على دين المجوسية ، ومات على ذلك، أما أباه المغيرة فقد أسلم على يد اليمان الجعفي ، والي بخاري، وإليه ينسب البخاري فيقال له الجعفي ولاء إسلام (عملاً بمذهب من يرى أن من أسلم على يد شخص كان ولاؤه، له أما جد البخاري إبراهيم فقد قال ابن حجر : (لم نقف على شئ من أخباره)[٣] .

أما والده أبو الحسن إسماعيل فقد كان عالماً جليلاً ، سمع من حماد بن زيد شيخ العراق في عصره، ومن الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، وأحد أئمة المذاهب الفقهية الأربعة ، وروى عنه العراقيون. وترجم له ابن حبان في كتابه الثقات وقال عنه في الطبعة الرابعة[٤] وقد عمل بالتجارة وترك مالاً كثيراً.

وسيرته تدل على أنه كان ورعاً تقياً ، ومن الصالحين[٥] فقد روى عنه أنه قال عند موته : (لا أعلم من مالي درهماً من حرام ، ولا درهماً من شبهة)[٦] ترك ابنه وهو طفل صغير فاحتضنته أمه وعملت على تنشئته تنشئة صالحة ، وكانت هي أيضاً صالحة زاهدة عابدة ، مستجابة الدعاء ، ولها في ذلك قصة مشهورة ذكرها كثير من المؤرخين :

مضمونها : أن ابنها محمد بن إسماعيل – صاحبنا – ذهبت عيناه في صغره فأخذت تدعو له ، وذات ليلة رأت الخليل إبراهيم في المنام فقال لها : يا هذه قد رد الله على ابنك بصره بكثرة دعائك له فأصبحت ، وقد رد الله عليه بصره ، وقد حكى البخاري رحمه الله – قصة ذهاب بصره هذه ، في صغره وصبره ، واحتسابه حتى أنعم الله عليه بهذه النعمة مرة أخرى ، فتبدل حزنه وحزن أمه سروراً وقد ذهب إلى الحج مع أمه ، وأخيه أحمد ، وكان أسن منه[٧] ، تلك هي أسرة البخاري الصغيرة ، وبيته الذي نشأ فيه ، وهو بيت علم ، وعبادة، ودين ، وصلاح ، وورع – فلا عجب أن يرث الطفل هذه الثروة ، وتظهر على شخصه فيما بعد – كما سنرى . ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾[٢] .

---

(١) وفيها ولد سنة ١٩٤هـ ونشأ وتوفي سنة ٢٥٦هـ ودفن بخرتنك وهي قرية بالقرب من سمرقند. انظر تاريخ بغداد ج٢ ص٣٤

(٢) انظر معجم البلدان ج١ ص ٤١٩

(٣) انظر مقدمة فتح الباري ص (٤٧٧)

(٤) السابق ص (٤٧٧) والثقات ج٨ ص ٩٨

(٥) الثقات ج٨ ص ٩٨

(٦) انظر مقدمة الفتح ص ٤٧٩ وتهذيب التهذيب ج١ ص ٢٧٤

(٧) انظر خلق أفعال العباد ج١ ص ٢٥ د/ فهد الفهيد، الإمام البخاري إمام الحفاظ والمحدثين ص ٢٢، ٢٣ تقي الدين الندوي

[٢] سورة الأعراف آية ٥٨

٢- طلبه العلم ونبوغه المبكر : قبيل سن العاشرة رأت أمه ملامح النبوغ في وجه طفلها فأسرعت به إلى الكتاب، وهناك ظهر نبوغه، وتميز عن أقرانه ، حيث رزقه الله سبحانه في هذه السن المبكرة قلباً واعياً ، وحافظة قوية ، وذهناً وقاداً ، فألهم حفظ الحديث ، وأخذ منه بحظ وافر ، ولم يبلغ العاشرة من عمره ، ثم صار يختلف إلى علماء عصره وأئمة بلده آنذاك فأخذ يراجعهم ، ويناقشهم وما أن بلغ السادسة عشر من عمره حتى حفظ كتب عدد من الأئمة ، وعرف كلام أهل الرأي . وأصولهم، ومذاهبهم ، ولندع البخاري نفسه – يسلط الضوء على هذه الحقبة المبكرة من حياته . ويحكي لنا بنفسه هذه التطورات .

يقول رحمه الله : ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب .. وقد أتى على عشر سنين : أو أقل ، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر فجعلت اختلف إلى الداخلي (أحد شيوخه) وغيره . فقال يوماً فيما كان يقرأ للناس :

سفيان عن أبي الزبَير عن إبراهيم .

فقلت له : إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم !

فانتهرني .

فقلت له ارجع إلى الأصل .

فدخل فنظر فيه ، ثم خرج فقال لي :

كيف هو يا غلام ؟

قلت : هو الزبير بن عدي عن إبراهيم ،

فأخذ القلم مني ، وأحكم كتابه ، وقال : صدقت .

فقيل للبخاري : ابن كم حين رددت ؟

قال : ابن إحدى عشرة سنة .

قال : فلما طعنت في ست عشرة سنة ، كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ، ووكيع ، وعرفت كلام هؤلاء – يعني أصحاب الرأي ، ثم خرجت مع أمي وأخي إلى مكة فلما حججت رجع أخي وتخلفت في طلب الحديث.[1]

ويحكي أيضاً عن تلقيه العلم في صباه قائلاً : (وكنت اختلف إلى الفقهاء بمرو[2] ، وأنا صبي ، فإذا جئت استحي أن أسلم عليهم ، فقال لي مؤدب من أهلها كم كتبت اليوم فقلت : اثنين . وأردت حديثين فضحك من حضر المجلس ، فقال شيخ منهم : لا تضحكوا فلعله يضحك منكم يوماً)[3] .

---

(١) مقدمة فتح الباري ص (٤٧١) ، وانظر تاريخ بغداد ج٢ ص ٧ وسير أعلام النبلاء ج ١٢ ص ٣٩٣

(٢) وهي بلدة بخرسان

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ج ١٢ ص ٤٠١

فهذا الشيخ فطن من خلال رؤيته لحال البخاري أن هذا الطفل سيكون له قدم راسخة في العلم ، وقد أثبتت الأيام صدق فطنته في هذا النابغة الشيخ الصغير .

شواهد ودلائل تثبت سعة حفظ البخاري ورسوخه في العلم :

نذكر من هذه الدلائل والشواهد ما يلي :

١- ما حكاه وراق البخاري محمد بن أبي حاتم من أنه سمع حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان : إن البخاري وهو غلام كان يختلف معهما إلى السماع – من المشائخ – ولا يكتب ، وهما يكتبان فالحاً عليه في ذلك أياماً ، فقال لهما : (إنكما قد أكثرتما عليَّ ، فأعرضا عليَّ ما كتبتما فقالا : أخرجنا إليه ما كان عندنا . فزاد على خمسة عشر ألف حديث فقرأها كلها على ظهر قلب ، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه .

ثم قال : أترون أني اختلف هدراً ، وأضيع أيامي ، فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد .

قالا : فكان أهل المعرفة يَعْدُون خلفه في طلب الحديث، وهو شاب ، حتى يغلبوه على نفسه ويجلسوه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه، وكان شاباً ، لم يخرج وجهه[1] .

٢- ويحكى ابن أبي حاتم قصة أخرى يقول فيها : سمعت سليم بن مجاهد يقول : كنت عند محمد بن سلام البيكندي فقال لي : لو جئت قبل لرأيت صبياً يحفظ سبعين ألف حديث ، قال : فخرجت في طلبه ، فلقيته ، فقلت : أنت الذي تقول : أنا أحفظ سبعين ألف حديث ؟

قال نعم وأكثر ، ولا أجيئك بحديث عن الصحابة ، أو التابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ، ووفاتهم، ومساكنهم ، ولست أروى حديثاً من حديث الصحابة والتابعين إلا ولي في ذلك أصل أحفظه عن كتاب الله ، أو سنة رسوله ﷺ[2] .

٣- ويذكر المؤرخون أن شيخه الفريابي – محمد بن يوسف المتوفي سنة ٢١٢ هـ – وهو شيخ أهل زمانه ذكر حديثاً في يوم ما أمام الحاضرين ومنهم البخاري قال فيه : (حدثنا سفيان عن أبي عروة عن أبي الخطاب عن أبي حمزة) أن النبي ﷺ كان يطوف على نسائه في غسل واحد فلم يعرف أحد في المجلس أبا عروة ، ولا أبا الخطاب ، ولا أبا حمزة ، فوقف البخاري – على البديهة – واقل: أما أبا عروة فهو معمر بن راشد ، وأما أبو الخطاب فقتادة ، وأما أبو حمزة فأنس بن مالك وكان الثوري فعولاً لذلك ، يعني يكنِّي المشهورين)[3] .

٤-امتحانه بسمرقند : ومن الدلائل على سعة علم البخاري وحفظه أيضاً واقعة امتحانه في سمرقند : حيث يذكر محمد بن أبي حاتم بسنده عن أبي الأزهر: أنه اجتمع بسمرقند أربعمائة ممن يطلبون الحديث ، ودام اجتماعهم سبعة أيام – وأحبوا مغالطة البخاري – فماذا فعلوا ؟

---

(١) انظر مقدمة الفتح ص (٤٧٨) ، وتاريخ بغداد ج٢ ص ١٤-١٥

(٢) انظر طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢١٨

(٣) مقدمة الفتح ص (٤٧٨)،والإمام البخاري إمام الحفاظ والمحدثين ص (٤٨) د/ تقي الدين الندوي المظاهري

أدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق ، وأدخلوا إسناد العراق في إسناد الشام وأدخلوا إسناد الحرم في إسناد اليمن وعرضوها عليه ، فرد كل إسناد إلى أصله. وما استطاعوا أن يتعلقوا عليه بسقطة لا في الإسناد ولا في المتن[1] .

٥ـ امتحانه في بغداد ، وحكاية الكبش النطاح : ومن سمرقند إلى بغداد حيث تعقد لجنة امتحان أخرى لأمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري وينقل إلينا وقائع الامتحان: الخطيب البغدادي بسنده عن أبي أحمد بن عدي قال: سمعت عدة مشائخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري لما قدم بغداد سمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها ، وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوا إلى عشرة أنفس كل رجل عشرة أحاديث ليلقوها على البخاري في المجلس امتحاناً، فاجتمع الناس، فقام أحدهم ، وسأله عن حديث من تلك العشرة المقلوبة ، فقال لا أعرفه ، فسأله عن آخر ، فقال لا أعرفه ، فما زال حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول لا أعرفه ، فكان الفهماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون : الرجل منهم – ومن كان منهم غير ذلك ، يقضي على البخاري بالعجز ، والتقصير ، وقلة الفهم ، ثم انتدب رجل آخر من العشرة – فسأله كسابقة عن حديث مقلوب ، والبخاري يقول لا أعرفه، فلم يزل يلقي عليه واحداً تلو الآخر حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول لا أعرفه .

ثم انتدب إليه الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة ، والبخاري لا يزيدهم على: لا أعرفه فلما علم أنهم قد فرغوا ، التفت البخاري إلى الأول منهم فقال : أما حديثك الأول فأنت قلت كذا ، وصوابه كذا، وأما حديثك الثاني فقلت كذا ، وصوابه كذا، حتى أتى على تمام العشرة ... فعل بالآخرين مثل ذلك، ورد متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها ، وأسانيدها إلى متونها.

فأقر له الناس بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل ، فكان ابن صاعد إذا ذكره يقول : الكبش النطاح.[2]

ذلكم هو البخاري ، يعقد له اختبار تلوا اختبار ، فيجتاز كل الاختبارات بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف – إن صح التعبير، ومن المعلوم عند العلماء أن قلب أسانيد الأحاديث ، ومتونها عمل محرم شرعاً – كما يقول ابن كثير إلا إذا قصد منه الاختبار، فهو ينتهي بانتهاء حاجته[3] وهذا هو ما كان من علماء الحديث مع البخاري – كما رأينا وكان نجاحه مبعث أعجاب العلماء ، والباحثين ، يقول الحافظ العراقي ، كلما ذكر هذا الاختبار: (ليس العجب من رد البخاري الخطأ

---

(١) انظر الإمام البخاري إمام الحفاظ والمحدثين ص (٤٨ ، ٤٩)

(٢) انظر تاريخ بغداد ج ٢ ص ٢٠ –٢١ ، وسير أعلام النبلاء ج١٢ ص ٤٠٨–٤٠٩ والباعث الحثيث لابن كثير ص (٩٢ ، ٩٣)

(٣) الباعث الحثيث ص (٩٣)

إلى الصواب ، فإنه كان حافظاً ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة)[1] .

٦- ارتحال البخاري ، للوقوف على أحاديث الرسول ﷺ من المشائخ الثقات : لقد تفانى البخاري - رحمه الله - في حب أحاديث الحبيب المصطفى ﷺ وجاهد في جمعها من منابعها ومصادرها الصحيحة ، جهاداً كبيراً ، برهنت على ذلك رحلاته ، وجولاته الكثيرة في البلاد ليلتقى مع العلماء والموثوق بهم ويأخذ ما عندهم من أحاديث .

يقول رحمه الله : (دخلت إلى الشام ، ومصر ، والجزيرة مرتين ، وإلى البصرة أربع مرات وأقمت بالحجاز ستة أعوام ولا أحصى كم دخلت الكوفه ، ... أما بغداد فقد دخلتها ثمان مرات ، وكنت في كل مرة أجالس أحمد بن حنبل فقال لي آخر ما ودعته: يا أبا عبد الله تترك العلم للناس وتصير إلى خُرسان، فأنا الآن أذكر قول أحمد)[2] .

أي أن الإمام أحمد رحمه الله كان يحثه على الإقامة في بغداد ، ويلومه على كثرة الإقامة بخرسان وكان رحمه الله في كل بلد يترل بها يزاحم مجالس علمائها ويستفيد منهم، شريطة أن يثبت لديه أمانة المحدث والثقة به - فقد روى عنه أنه قال (كتبت عن ألف ، وثمانيين ليس فيهم إلا صاحب حديث وقال أيضاً : لم أكتب إلا عمن قال : الإيمان قول وعمل)[3] وإذا تبين له - رحمه الله - أن هناك من تدور حوله أي شبهة - أياً كانت - فإنه يرفض حديثه فوراً ، بل ويرد ما كان قد نقله عنه من قبل مهما كان عددها يقول رحمه الله لرجل سأله مرة عن خبر حديث: يا فلان : تراني أدلس؟ تركت عشرة آلاف حديث لرجل لي فيه نظر وتركت مثله أو أكثر منه لغيره فيه نظر [4]، ولذلك جعل لشيوخه الذين تلقى عنهم من خلال رحلاته وأسفاره طبقات ، وحصرها في خمس :

الأولى : من حدثه عن التابعيين يعنى (أتباع التابعين)

والثانية : من كان في عصر هؤلاء ، ولكن لم يسمع من ثقات التابعين .

والثالثة : وهى الوسطى من مشايخه وهم من لم يلق التابعين بل أخذ من كبار تبع التابعين .

والرابعة : رفقائه في الطلب ، ومن سمع قبله قليلاً .

والخامسة : قوم في عداد طلبته في السن والإسناد سمع منهم للفائدة ، وروى عنهم أشياء يسيرة. [5]

---

(١) انظر النكت على ابن الصلاح ج ٢ ص ٨٦٩-٨٧٠ ، والإمام البخاري إمام الحفاظ والمحدثين ص (٥٠)، وخلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل ج١ ص ٣٣ دراسة وتحقيق د/ فهد بن سليمان الفهيد

(٢) انظر طبقات الشافعية ج٢ ص ٢١٧

(٣) انظر تحفة الإخباري بترجمة البخاري لابن ناصر الدين ص ١٨٥

(٤) تاريخ بغداد ج٢ ص ٢٥

(٥) انظر الإمام البخاري إمام الحفاظ والمحدثين ص (٤٢)

وما روي عنهم إلا لما ثبت لديه أن عثمان بن أبي شيبة روى عن وكيع – بن الجراح – أنه قال : (لا يكون الرجل عالماً حتى يحدث عمن هو فوقه ، وعمن هو مثله ، وعمن هو دونه)[1] .

وعلى هذا النهج سار البخاري رحمه الله . ولقد تحدث الإمام النووي رحمه الله عن شيوخ البخاري باسهاب ، وقال هذا باب واسع جداً لا يمكن اسقصاؤه ، لأن هناك ، مشائخ من كل إقليم وبلد ، وبهذا يستدل على اتساع رحلاته وكثرة رواياته ، وعظيم عنايته ثم أورد جملة من شيوخه في مكة ، والمدينة، والشام ، وبخاري ، وبلخ ، وهراة والري ، وواسط ، والكوفة ، ومصر والجزيرة.[2] ولا تسأل عن الجهد والتعب والنصب الذي لاقاه في الوصول إلى هذه البلاد[3] ، والالتقاء بمشايخها الثقات ، ليقدم للأمة أحاديث النبي ﷺ خالية من كل الشبه والأوهام ، عليه من الله رحمة ورضوان .

٧–زهده وورعه وأخلاقه ، وعبادته : اشتهر البخاري رحمه الله بالزهد ، والتقوى ، والورع والعبادة وهذه من سمات العلماء فما بالنا إن كان الحديث عن الإمام البخاري – رضي الله عنه .

⇦ ففي الزهد : جاءت الحكايات عنه وفيرة ، إذ يقص وراقه : (أنه ورث من أبيه مالاً وفيراً ، وكان يعطيه مضاربة ، فقطع له غريم خمسة وعشرين ألفاً فقيل له استعن بكتاب الوالي .

فقال : إن أخذت منهم كتاباً طمعوا ، ولن أبيع ديني بدنياي ، ثم صالح غريمه على أن يعطيه كل شهر عشرة دراهم – وذهب ذلك المال كله[4] .

وذات يوم جاءته بضاعة فاجتمع بعض التجارية ، وطلبوها بربح خمسة آلاف درهم فقال انصرفوا الليلة فجاءٍ من الغد تجار آخرون ، فطلبوها منه بربح عشرة آلاف درهم ، فردهم وقال : إني نويت البارحة أن أدفعها إلى الأولين، فدفعها إليهم وقال: لا أحب أن أنقض نيتي[5] .

---

(١) خلق أفعال العباد ج١ ص٤٢ تحقيق د/ فهد الفهيد ، والإمام البخاري إمام الحفاظ ص (١ ، ٤٢ ، ٤٣)

(٢) انظر شرح النووي ص (٣٣ – ٣٦)

(٣) انظر خلق أفعال العباد ص (٣٤) د/ فهد الفهيد

(٤) انظر طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٢٦ – ٢٢٧

(٥) نفسه ، وانظر الإمام البخاري إمام الحفاظ ص (٦٣)

وقد ورد عنه – رحمة الله – أنه لم يتوالى شراء شئ بنفسه قط ، ولا بيعه ، بل كان يأمر إنساناً فيشترى له أو يبيع، فقيل له : ولم ؟

قال : لما فيه من الزيادة ، والنقصان ، والتخليط [1].

⇦ أما ورعه : فحدث عنه ولا حرج فقد كان يخشى الله ويتقه ، ويخاف يوم الحساب . يقول رحمه الله : ما اغتبت أحداً قط منذ أن علمت أن الغيبة حرام .

وكان يقول : إني لأرجو أن ألقى الله ، ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً ، وأتمنى ألا يكون لي خصم يوم القيامة[2] .

ومن ورعه أنه ذات يوم ركب إلى الرمي فأصاب سهمه وتد قنطرة ، فضاق صدره فطلب إبلاغ صاحب القنطرة . إما إقامة بدل الوتد أو يأخذ ثمنه ، ويجعله في حل مما كان منه فلما قيل لصاحب القنطرة ذلك قال : أبلغ أبا عبد الله السلام ، وقل له : أنت في حل مما كان منك ، فإن جميع ملكي لك الفداء .

فلما بلغ ذلك البخاري ، تهلل وجهه ، وأظهر سروراً عظيماً ، وقرأ ذلك اليوم للغرباء ، خمسمائة حديث وتصدق بثلاثمائة درهم[3] وهاهو ذا يقف رحمه الله أمام أبي معشر الضرير فيقول : يا اجعلني في حل يا أبا معشر .

فقال : من أي شئ ؟

قال : رويت حديثاً يوماً فنظرت إليك ، وقد أعجبت به ، وأنت تحرك رأسك ، ويديك ، فتبسمت من ذلك قال أنت في حل يرحمك الله يا أبا عبد الله [4].

وأنا أقول أيضاً ، يرحمك الله يا أبا عبد الله فأين نحن وأين أنت ، إننا في زمان عجيب غريب لا يصلحه والله إلا ما صلحت به أنت ، ومن سبقك من الصالحين وليت قومي بورعك هذا يعلمون .

أما أخلاقه العالية : فهي من غير شك نابغه ، من زهده وورعه ، وخوفه من الله ، وها هو محمد بن منصور ينقل إلينا مشهداً من مشاهد أخلاقه العالية فيقول : (كنت في مجلس البخاري ، فرفع إنسان من لحيته قذاة وطرحها على الأرض .

---

(١) انظر مقدمة الفتح ص (٤٧٩)

(٢) انظر السابق ص (٤٨٠) وسير أعلام النبلاء ج١٢ ص ٣٤٩

(٣) انظر خلق أفعال العباد ج١ ص ٣٨ – ٣٩ تحقيق د/ فهد الفهيد ، والإمام البخاري ص (١٤)

(٤) خلق أفعال العباد ج ١ ص ٣٩

فرأيت محمد بن إسماعيل ينظر إليها ، وإلى الناس ، فلما غفل الناس مديده فرفع القذاة من الأرض وأدخلها في كمه ، فلما خرج من المسجد ، رأيته أخرجها ، وطرحها على الأرض فكأنه صان المسجد عما تصان عنه لحيته)[1] .

ومشهد آخر يكشف عنه وراقه محمد بن أبي حاتم قائلاً : طلبت من محمد ابن إسماعيل أن يوقظني في الليل لأعينه في الكتابة فقال لي: إنك شاب ، ولا أحب أن أفسد عليك نومك[2].

ليس هذا فحسب بل بلغ من سمو أخلاقه أنه كان يكره التصريح باسم المخالف المبتدع إلا من اشتهر عند أهل العلم فانه يذكره محذراً، كالجعد بن درهم ، والجهم بن صفوان، وبشر المريسي، ونحوهم.

أما من كان دون ذلك فانه يكنى عنه بقوله : (زعم بعضهم) أو (جاهل لا يترفع) ونحو ذلك ، وهكذا طريقته في الرواه الشديد ضعفهم، فابلغ لفظ يقوله فيهم :(تركوه) [3] .

ومن الملاحظ أن الجانب الأخلاقي عند البخاري رحمه الله، أورثه عزة النفس واحترام العلم والعلماء فبالرغم مما وقع بينه وبين الدهلى شيخه الذى وجد عليه وجداً شديداً ،وتسبب ذلك في وقوع محنة للبخاري . من المحن الكثيرة التي وقعت له [4]ـــ لم يترك التحديث عن شيخه هذا ،بل روى عنه بعد المحنة ،على خلاف ما كان من الأمام مسلم فانه على إثر ما حصل ترك التحديث عن الدهلى[5] .

وأرسل إليه أمير بخاري أن يحمل إليه كتاب الجامع ،والتاريخ ليسمعهما منه فقال لرسوله : أنا لا أذل العلم ،ولا أحمله إلى أبواب الناس فان كانت لك إلى شئ منه حاجه فأحضر إلى مسجدي أو في داري، وفي رواية أنه طلب منه أن يقرأ هذه الكتب علي أولاده فأمتنع تقديراً للعلم

---

(١) تاريخ بغداد ج٢ ص ١٣ ، ومقدمة الفتح ص (٤٨١) والسابق ص (٤٠)

(٢) تاريخ بغداد ص (٢ ، ١٤) ، وتهذيب الكمال ج ٦ ص ٢٣٢

(٢) انظر السابق ص (٥٢) ، وشرح ألفية الحديث للعراقي ج ٢ ص ١٢٠– ١٢٥ وتدريب الراوي ج١ ص ٣٤٩

(٤) للمزيد يراجع سير أعلام النبلاء ج١٢ ص ٤٦٤ ، وتاريخ بغداد ومقدمة الفتح ص (٤٦٥) والإمام البخاري ص ٦٧، ٦٨

(٥) خلق أفعال العباد ج١ ص ٧٥

وجرياً علي طريقة السلف في أن العلم يؤتي إليه ،فراسله الوالي أن يعقد مجلساً لأولاده، فأمتنع ، وقال : لاأخص أحداً[1].

⇦ أما عبادته : فيترجمها : شغفه العظيم بالقرآن ، حيث كان رحمه الله ، بجوار حبه للسنة المطهرة يعشق القرآن العظيم ويجله ، (وإذا كان أول ليله من رمضان يجتمع إليه أصحابه فيصلي بهم ،ويقرأ في كل ركعة عشرين آيه ،وهكذا إلي أن يختم القرآن . وكان يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال،وكان يختم بالنهار في كل يوم ختمه ، ويكون ختمه عند الإفطار في كل ليلة ، ويقول : عند كل ختمه دعوة مستجابة[2].

وكان في صلاته ينسي كل شئ من أمور الدنيا ، ويخشع خشوع المؤمنين، يشير إلى ذلك بكر بن منير فيقول: كان محمد بن إسماعيل يصلي ذات يوم فلسعه الزنبور سبع عشرة مره ،فلما قضي صلاته قال : أنظروا أليس هذا الذي آذاني في صلاتي ، فنظروا إليه فإذا الزنبور قد ورمه في سبعة عشر موضعاً، ولم يقطع صلاته ، فسئل لماذا لم تقطع صلاتك ؟ قال : كنت في سورة أحببت أن أتمها[3].

٨ – مصنفات البخاري رحمه الله : للإمام البخاري مصنفات سارت مسير الشمس ،وتحركت في البلدان ، وفضلها لأبناء الأمة معروف ، ومن أشهرها، وأجلها :

١–الجامع الصحيح ، ٢– الأدب المفرد ،٣– رفع اليدين في الصلاة ، ٤– القراءة خلف الامام ، ٥– بر الوالدين ، ٦–التاريخ الكبير ، ٧–التاريخ الصغير ،٨– خلق أفعال العباد ،٩–الضعفاء ، ١٠–المند الكبير ،١١– التفسير الكبير، ١٢–الأشربه، ١٣– الأوسط ، ١٤– الهبة ،١٥– أسامي الصحابة، ١٦– الوحدان ،١٧–المبسوط ،١٨– العلل ، ١٩– الكنى، ٢٠–الفوائد، ٢١– قضايا الصحابة[4] .

ويهمنا أن تعطني فكرة واضحة وموجزه عن أول هذه الكتب ، وأجلها وهو كتاب الجامع الصحيح .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٣٣ ، وسير أعلام النبلاء ج ١٢ ص ٤٦٤

(٢) مقدمة الفتح ص ٤٨١

(٣) تاريخ بغداد ج٣ ، ١٢ ، وطبقات الحنابلة ج١ ص ٢٧٦ ، ومقدمة الفتح ص ٤٨٠

(٤) انظر للمزيد في كتاب خلق أفعال العباد تحقيق د/ فهد الفهيد ج١ ص ٤٣ – ٤٦

المطلب الثاني
كتاب الجامع الصحيح ومكانته عند المسلمين

إنني أركز في الاختيار علي هذا الكتاب لأن الدكتور مصطفي محمود ركز عليه في إلقاء شبيهته، وادعى أن كاتبه مزيف ،وأن هذا الكتاب ملئ بالأحاديث المزيفة، فتعالوا لنرى الحقيقة التي لم يدركها الكاتب .

أ ـ تأليف الكتاب:

كانت كتب الحديث قبل عصر البخاري – رحمه الله ، ممزوجاً فيها الصحيح بغيره ، بحيث لا يتعين للناظر فيها درجة الحديث من الصحة إلا بعد البحث عن أحوال رواته ،وغير ذلك مما هو معروف عند أهل الحديث ، فان لم يكن له وقوف علي ذلك اضطر أن يسأل أئمة الحديث عنه ، فإن لم يتيسر له ذلك بقي ذلك الحديث مجهول الحال عنده ، فلما جاء البخاري ووقف علي معرفة الرواة ،وفاق أهل عصره في الحفظ ، والعلم والإدراك أراد أن يجرد الصحيح ، ويجعله في كتاب واحد ، فجمع ما استطاع منه ،ووضعه في كتاب أسماه (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) .

يقول الشيخ الجزائري : فعلم من قوله (الجامع) أنه لم يخص بصنف دون صنف ، ولهذا أورد فيه الأحكام ،والفضائل والأخبار الماضية ،والآتية ،وغير ذلك من الآداب ،والرقاق –وفي قوله (الصحيح) أنه ليس فيه ضعيف عنده ، وإن كان فيه مواضع قد انتقدها غيره فقد أجيب عنها ، وقد صح عنه أنه قال :ما أدخلت في الجامع إلا ما صح ، وقوله (المسند) أن مقصودة الأصلي: تخريج الأحاديث التي أتصل إسنادها ببعض الصحابة ، عن النبي ﷺ سواء كانت من قوله ،أو فعله ،أو تقريره ، وأن ما وقع في الكتاب من غير ذلك ،فإنما وقع عرضاً ،وتبعاً ،لا أصلاً ، ولا مقصوداً ... وقد اقتفي أثر البخاري في ذلك الإمام مسلم بن الحجاج – رحمه الله– وكان من الآخذين عنه ،والمستفيدين منه فألف كتابه المشهور ولقب الكتابان بالصحيحين ،ثم ألفت بعدهما كتب لا تحصى[1].

ب ـ الباعث على تأليف الكتاب:

روي المؤرخون أن من بواعث تأليف الإمام البخاري لكتابه الصحيح ما سمعه من أستاذه أمير المؤمنين في الحديث والفقه إسحاق بن راهوية ، الذي قال: لو جمعتم كتاباً مختصراً في الصحيح من سنة رسول الله ﷺ ، قال البخاري فوقع ذلك في قلبي ، فأخذت في جمع الصحيح، وهناك

(١) الإمام البخاري إمام الحفاظ والمحدثين ص ٨٣ ، ٨٤ .

رواية أخري بإسناد ثابت عن البخاري يقول فيها . رأيت النبي ﷺ في المنام وكأني واقف بين يديه ، وبيدي مروحة أذب بها عنه فسألت بعض المعبرين فقال : أنت تذب عنه الكذب فهو الذي حملني على إخراج مع الجامع الصحيح.

ج ـ مدة تصنيف الكتاب ،وطريقة البخاري فيه:

يقول النووي–رحمه الله– وروينا من جهات عن البخاري– رحمه الله تعالى –قال : صنفت كتاب الصحيح لست عشرة سنه وخرجته من ستمائة ألف حديث، وجعلته حجة بيني وبين الله عز وجل[1].

وورد عن البخاري قوله : ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك، وقال أيضاً ما أدخلت فيه حديثا حتى استخرت الله تعالي أو صليت ركعتين ،وتيقنت صحته[2]. وورد أنه ابتدأ تصنيف الكتاب و ترتيبه في المسجد الحرام . ثم كان يخرج الأحاديث بعد ذلك في بلده وغيرها من البلاد التي يسافر إليها، ومنها: مدينة رسول الله ﷺ [3].

وقد بدأ التأليف لهذا الكتاب وهو بن ثلاث وعشرين سنه وكان يعرض ما يؤلفه علي مشائخه ومنهم يحي بن معين، وعلي بن المديني ،وأحمد بن حنبل ، . رحمهم الله جميعاً[4] وعدد الأحاديث في صحيح البخاري كما أورد بن الصلاح سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثا، بالأحاديث المكررة وكلها صحيحة[5].

د ـ فضل الكتاب ،ومنزلته عند علماء المسلمين:

يقر علماء المسلمين على أن مؤلف البخاري –الصحيح –من أعظم وأنفع مؤلفاته . رحمه الله ومنه قد استفاد المسلمون في كل الأزمنة والعصور ، ووقفوا من خلاله على صحيح القول الذى تلفظ به رسول اللهﷺ وكذلك العمل، وهاك أقوال العلماء في فضل هذا الكتاب.

١– يقول القسطلاني – رحمه الله – : أما فضله فهو أصح الكتب المؤلفة في هذا الشأن ،والمتلقي بالقبول من العلماء في كل أوان ، فقد فاق أمثاله في جميع الفنون ،والأقسام ، وخص بمزايا بين دواوين الإسلام شهد له بالبراعة ، والتقدم الصناديد العظام، والأفاضل الكرام، و فوائده أكثر من أن تحصى . وأغزر من أن تستقصي.

٢–ويقول الذهبي – رحمه الله– : وأما جامع الصحيح فأجل كتب الإسلام ،وأفضلها بعد كتاب الله. وهو أعلى في وقتنا هذا إسناداً للناس.

---

(١) شرح النووي ص ٤١ ومقدمة الفتح ص ٤٩٠

(٢) انظر شرح النووي ص ٤١ ، وتاريخ بغداد ج٢ ص ٩

(٣) الإمام البخاري ص ٨٥

(٤) نفسه ص ٨٦ ، ٨٧

(٥) نفسه ص ١٠١

٣-وقال أبو يزيد المروزي : كنت نائماً بين الركن ،والمقام ،فرأيت رسول الله ﷺ في المنام ، فقال لي: يا أبا زيد إلى متى تدرس كتاب الشافعي ، وما تدرس كتابي ؟ فقلت: يا رسول الله ،وما كتابك قال : جامع محمد بن إسماعيل البخاري .

٤-وقال النسائي : أجود هذه الكتب :كتاب البخاري.

٥- وقال الحافظ بن كثير: وكتاب البخاري الصحيح ،يستسقي بقراءته الغمام ،وأجمع على قبوله، وصحة ما فيه أهل الإسلام .

٦- أما شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول ليس تحت أديم السماء كتاب أصح من البخاري،ومسلم بعد القرآن[١] . إلى غير ذلك من الأقوال التي صدرت من علماء الأمة وهي تجمع على علو مكانة هذا الكتاب ،وفضلة، ومدى حاجة الناس إليه في كل زمان ومكان ،لذا طبع هذا الكتاب طبعات، كثيرة ،وتم الاعتناء به عناية وفيرة، وله شروح عظيمة، وعديدة،من أفضلها، وأحسنها :شرح الحافظ بن حجر العسقلاني رحمه الله-والمسمى -فتح الباري. هذا المؤلف ومكانته .

أما المُؤَلفُ ، ومنزلته عند العلماء : فإنني اقتطف بعض الأقوال التي تفوه بها العلماء على مر العصور وهي تظهر للقارئ شخصية البخاري الحقيقية التي غفل عنها الدكتور - مصطفي محمود : وهاك بعضاً منها:

١- يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أخرجت خرسان مثل محمد بن إسماعيل[٢] .

٢- ويقول محمد بن بشار - لما قدم البخاري البصرة- : قدم اليوم سيد الفقهاء ، وقال أيضاً: ما قدم علينا مثل محمد بن إسماعيل ، وأنا أفتخر به منذ سنين[٣]

٣- ويقول سليمان بن حرب وهو ينظر إلى البخاري ذات يوم : هذا سيكون له حديث.

٤- ويقول البخاري ، كنت إذا دخلت على سليمان بن حرب يقول: بين لنا غلط شعبة.[٤]

٥- وقال عمرو بن علي الفلاس: حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث[٥].

٦- وقال محمد بن سلام البيكندي للبخاري : انظر في كتبي فما وجدت فيها فاضرب عليه، فقال له بعض أصحابه من هذا الفتى؟ فقال: هذا الذي ليس مثله.

وكان يقول : كلما دخل عليَّ البخاري تحيرت ، ولا أزال خائفاً منه - يعني خشية أن يخطيء في حضرته[٦].

---

(١) انظر الإمام البخاري ص ٨٨ ، ٨٩ ، وخلق أفعال العباد ج١ ص ٤٤

(٢) مقدمة فتح الباري ص ٤٨٢

(٣) نفسه ص ٤٨٢

(٤) مقدمة الفتح ص ٤٨٥

(٥) نفسه ص ٤٨٥

(٦) نفسه

٧- وقال أبو عمرو الخفاف النيسابوري : لم أر مثله - يعني البخاري - وهو أعلم بالحديث من أحمد ، وإسحاق ، وغيرهما بعشرين درجة ، ومن قال فيه شيئاً فعليه مني ألف لعنة ، .. ولو دخل عليَّ من الباب وأنا أتحدث لملئت منه رعباً[١].

٨- وقال قتيبة بن سعيد شيخ البخاري : لو كان محمد بن إسماعيل في الصحابة لكان آية[٢].

٩- وشهد البخاري إمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة فقال : ما تحت أديم السماء أعلم من محمد بن إسماعيل.[٣]

١٠- وقال الإمام الترمزي : لم أر أعلم بالعلل، والأسانيد من محمد بن إسماعيل البخاري[٤].

١١- أما الإمام مسلم - صاحب الصحيح - فقد روى أنه جاء إلى البخاري فقبله بين عينيه، وقال: دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين ، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك[٥].

وهكذا نرى الكثير من علماء عصر البخاري يطلقون عبارات الثناء عليه، وهناك قوافل العلماء الذي جاءوا بعده وأصدروا عبارات الثناء والفضل والإجلال للإمام البخاري - صاحب الجامع الصحيح - ويكفينا الآن قول الحافظ بن حجر الذي قال فيه : (ولو فتحت باب الثناء عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس، ونفدت الأنفاس، فذلك بحر لا ساحل له[٦].

وأقول في النهاية : للدكتور مصطفى محمود أيضاً: قولكم هو البخاري البحر الذي لا ساحل له يا دكتور لم تقف على شاطيء حياته، ولم تعرف عبق علمه ولم تدر قيمة مؤلفه، فقدمت إلينا: شخصية غريبة وعجيبة، ومريبة ، مزيفة، وكاذبة ، وغير واعية وادعيت أنها شخصية البخاري، وما هي كذلك - كما رأينا، وقرأنا ، ووعينا ، فهل يليق بكاتب ومفكر - كما يسمى أن يكون على هذه الدرجة من الجهل بسيرة شخصية إسلامية، عظيمة انتفع بها المسلمون، وبمؤلفها الباحثون عبر الأزمنة والقرون، مثل البخاري، وهل يليق بالدكتور الذي عرَّض نفسه لمسألة ما

(١) الإمام البخاري ص ٥٣

(٢) نفسه ص ٥٣

(٣) مقدمة الفتح ص ٤٨٥

(٤) نفسه ص ٤٨٥

(٥) السابق نفسه ص ٤٨٥ ، والإمام البخاري ص ٥٤

(٦) المصدرين السابقين نفس الصفحات

كان ينبغي لمثله أن يتعرض لها– لأنه ليس من أهل التخصص فيها (وهي معتقد الشفاعة) هل يليق أن يقف على معرفة واسعة بسيرة الزنادقة، والملحدين ، مثل هتلر ، وموسوليني ، وفرانكوا ، وسالازار ، ولينين ، وستالين، وميلوسوفيتش، وميلادنش، وكارادتس، وغيرهم من السفاحين، ومردة الشياطين الذي عَرّف بهم في كتابه – الشفاعة – وحشر أسماءهم حشراً في صفحات الكتاب[1] مع أنه لا داعي لذكرهم مطلقاً فيه ولا علاقة لهم بالموضوع – إلا أن الكاتب ذكرهم وتحدث عنهم بإفاضة ، ليوحي لقرائه أنه واسع الاطلاع ، والمعرفة.

هل يليق أن يعلم بسيرة هؤلاء – ولا يعلم بسيرة أمير المؤمنين في الحديث – البخاري رحمه الله. وطالما الكاتب جاهل، بسيرة هذا العلم الجهبذ ، وجهل ، وجهول بما في كتابه، وقيمة كتابه، ومنزلة كتابه، فكيف به يلفق ، ويقذف وينشر كلمات، وعبارات لا علاقة لها بالبخاري – يرحمه الله – ولا بكتابه – إنني أدعو الكاتب مرة أخرى أن يقرأ ما ذكره العلماء في أمير المؤمنين وسيد فقهاء عصره، البخاري وآمل أن ينتبه القاريء لهذا التدليس ، وتلك المراوغة التي يستعملها الكاتب في الكتاب. وأسوق إليه شواهد قليلة أختم بها حديثي عنه وعن كتابه في الشفاعة.

إنه يزعم أن ما قاله في البخاري وأحاديث الشفاعة، والتنكر لها هو عين الحق، ويدعي أن العلماء معه، ويذكر أمثلة على دعواه ويستشهد بأسماء العلماء قديماً، وحديثاً لكي يضفي صفة الشرعية على ما يكتب وهاك ما قال .

---

(١) انظر ما كتبه عن هؤلاء ص(٥٣ – ٥٧) الشفاعة

المبحث الرابع
دعوى الكاتب أن العلماء يؤيدونه
في إنكار الشفاعة والرد عليها

بعد كل ما قدمنا من أدلة صريحة ، في أن الدكتور مصطفى محمود ينكر الشفاعة، ويكذب على البخاري، وينكر السنة الصحيحة التي أثبتت الشفاعة، ويدعي أن كتابها، ورواتها مجموعة من الكاذبين المزيفين – ومنهم البخاري كما رأينا – يأتي في الصفحات الأخيرة من كتابه ليناور ويراوغ ، ويدعي: أن الذي حفزه على هذه الكتابات والأقوال في الرواة والشفاعة (هو حديث رسول الله الذي قال فيه من يترك العمل، ويتكل على الشفاعة يورد نفسه المهالك ويحرم من رحمة الله)[1] هكذا يقدم نفسه للقراء بأنه تابع للسنة ومستشهد بالسنة، وأن ما نقلناه عنه من إنكار للسنة – هو نقل غير صحيح!

ثم يتحرك الكاتب أكثر ليجد له قدم صدق عن قارئه فيدعي أن موقفه من الشفاعة، وآرائه التي ذكرها فيها – والمتمثلة في النكران لها – والتحذير من الاعتقاد بثبوتها. يقول الكاتب (قد وقفها معي الشيخ المراغي ، شيخ الأزهر السابق والشيخ محمد عبده ، وشيخ الإسلام ابن تيمية)[2] .

وهكذا بكل بساطة يقحم نفسه في زمرة العلماء ويدعي عليهم ما يدعيه، لا ليصل إلى الحق، أو يرشد إلى الصواب، بل ليدعم ما يراه، بما يشاء من أدلة، وأقوال ، حتى وإن لم ينطق بها أصحابها، فواعجباً لهذا الصنيع، الذي لا ينبغي أن يفعله باحث فضلاً عن كونه مسلماً لأنه خطأ جثيم، وعمل غير أمين .

ولي معه فيما قال هنا وقفات :

أولاً : الحديث الذي ذكره: وقال أنه الحفز له على الكتابة في موضوع الشفاعة، لم يذكر لنا الكاتب سند الحديث، ولا مصدره، ولا من الذي رواه ، ولا في أي كتاب هو، مع أنه حديث ينسب قولاً لرسول الله ﷺ ، والكاتب يدعي أنه يدافع عن سنة رسول الله، ولا يثبت من أي كتب السنة جاء بهذا الحديث، وهذا التثبت للمصدر من أبسط ما يجب أن يذهب إليه أي باحث مبتديء ويلتزم به.

---

(١) الشفاعة ص ٦٩

(٢) الشفاعة ص ٩٤ ، ٩٥

ثانياً : إن هذا الحديث لم نجده بهذه الصيغة التي أوردها على الإطلاق ، بل هناك حديث شبيه له عن أم سلمة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ قال لها: (يا أم سلمة: اعملي ، ولا تتكلي فإن شفاعتي للهالكين من أمتي)[1] .

وهذا الحديث قال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد[2] فيه عمرو بن مخزوم، وهو ضعيف، وعده ابن عدي من مناكير أحاديث عمرو بن مخزوم.

إذن الحديث ضعيف، ومع ذلك الدكتور تخيره وراق له، واستشهد به لأنه يتفق ، وهواه ،، دون النظر إلى صحة الحديث أو ضعفه، وهو الذي رفض الصحيح من السنة من قبل، وادعى أن كتب الصحاح فيها التزييف واضح، والتدليس ظاهر، وأنكر ما فيها ، وحطم أنوف رجالها، هذا الذي فعل هذا يستدعي هنا حديثاً ضعيفاً بشهادة أهل التخصص، ويجعله دافعاً له في الكتابة عن الشفاعة. مع أن ضعفه ظاهر للعيان بل هو منكر.

ثالثاً : ولو فرضنا صحة الحديث الذي ذكره فإنه يثبت أن الدكتور – لم يكن في حاله طبيعية من التركيز في فهم الحديث الذي أورده، فالدكتور ينكر الشفاعة بينما الحديث يثبت الشفاعة (فهي للهالكين من أمة محمد) ﷺ إذن هناك شفاعة، والدكتور لا يقر بذلك، إذن ما أورده هو عليه، وليس له، لأنه فيه إثبات للشفاعة ولكنه ينهى عن التواكل فكيف يحتج بما لم يؤيده !

رابعاً : أما دعواه أن العلماء متفقون معه فيما أورده فهي دعوى غريبة أيضاً، بل وأغرب من سابقتها، إذ الرجل يستشهد بشيخ الأزهر المراغي ، ومحمد عبده، وابن تيمية، وإنهم له مؤيدون ، ويقول (وقفها معي هؤلاء) وكأنه هو سابق على هؤلاء وهم له من المؤيدين ، ليس هذا فحسب بل يقدم الشيخ المراغي، ومحمد عبده على ابن تيمية في الترتيب مع أن ابن تيمية يتقدم على الجميع في الزمان ، والعلم أيضاً، وهذا يعني أن الدكتور لم يرهق نفسه حتى في اختيار العبارات ، ووضع الأمور في نصابها.

ثم ننظر هل حقاً أيده هؤلاء ووقفوا وقفته وقالوا أقواله الغريبة في الشفاعة والتي منها قوله: (إن الشفاعة .. تعني فوضى الوسايط ولا وجود لها في الآخرة)[3].

وقوله : (أن القرآن يثبت أنه لا وجود للشفاعة ، وإن ما ورد من السنة في الشفاعة أحاديث موضوعة وإن لفظ الشفاعة في القرآن بمثابة البشارة فقط ولا شفاعة)[4] إلى غير ذلك مما أوردناه عنه .

---

(١) رواه العدي في الكامل ج ٥ ص ١٨٠١ ، والطبراني في المعجم الكبير ج٢٢ ص ٢٦٩

(٢) ج ١ ص ٣٧٨٠

(٣) الشفاعة ص ١٩

(٤) الشفاعة ص ٣٤ ، ٣٦

إن واقع ما كتبه هؤلاء في كتبهم لا يلتقي أبداً مع ما قاله الكاتب، فمثلاً الإمام محمد عبده يقول: (وقد ثبت في وحي القرآن أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه بالشفاعة ... ، وأن هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة لا يشفعون إلا لمن كان الله تعالى راضياً عنه بإيمانه وعمله الصالح)[1].

ونفس الكلام قاله الشيخ المراغي في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾[2] فقال : (ليس لأحد منها شيء إلا بإذنه لمن ارتضى ... فلا تطمعوا في شفاعة أحد لكم بغير رضا الله .. وثبت في الصحيح أن الملائكة يشفعون في الدار الآخرة قال قتادة: أي لأهل التوحيد)[3] .

ومؤدى هذا القول وسابقه أن الشفاعة في الآخرة ثابتة، وموجودة ولكن لها شروط الرضا، والإذن ... إلخ، ثم مؤدى ذلك أن ما جاء في السنة من شفاعة في الآخرة من الملائكة لا غبار عليه، ولا إنكار له، فهل هذا يلتقي مع ما قاله الدكتور في الشفاعة حقاً؟ وأين ما قاله الإمامان مما قاله الدكتور في إنكار شفاعة الملائكة وغيرهم.

ثم الطامة الكبرى دعواه أن ابن تيمية معه على خط الإنكار، بينما ابن تيمية لم يلتقي معه في حرف واحد مما كتب، ولم ينكر الشفاعة، ولم ينكر السنة ولم يقل إنّ البخاري مزيف، ولم يسخر بالرواة، ويرد الأحاديث الصحيحة، المتواترة في الشفاعة. بل الدكتور في واد ، وابن تيمية في وادٍ آخر.

وهاك بعض ما كتبه ابن تيمية بنفسه في الشفاعة :

١ــ يقول : (ثبت بالسنة المستفيضة ، بل المتواترة واتفاق الأمة أن نبينا ﷺ الشافع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد)[4]. فهل يلتقي هذا ، وقول الدكتور : (إنه لا يمكن لأحد أن يخرج من النار بعد دخولها، بل تتأبد إقامته سواء أكانوا كفاراً أم مسلمين)[5].

٢ــ ويقول ابن تيمية أيضاً عن رسول الله ﷺ (إنه شفيع الخلائق، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وهو أعظم الشفعاء قدراً، وأعلاهم جاهاً عند الله)[6].

بينما يقول الدكتور مصطفى محمود : (إنه لا يعرف أحد ما هو المقام المحمود، ولا من الموعود به في القرآن ... ولا موجباته، ولا حدوده ، وهو سر من أسرار الله، وما يقوله المفسرون تخرصات، وأكاذيب)[6]. فأين نقاط الاتفاق المزعومة ؟

---

(١) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ج١١ ص ٢٩٦ الشيخ محمد رشيد رضا

(٢) سورة الزمر آية (٤٤)

(٣) انظر تفسير المراغي (ص ١٧ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ١٤)

(٤) مجموع الفتاوى ص (١ ، ١٠٨)

(٥) انظر الشفاعة ص (٣٢ ، ٣٣)

(٦) مجموع الفتاوى ص (١، ١٤٣)

(٧) انظر ص (٢٥ ، ٤١ ، ٤٣) من كتاب الشفاعة

٣ــ ويقول ابن تيمية: (وأما شفاعته ﷺ لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة، والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين الأربعة، وغيرهم ، وأنكرها كثير من أهل البدع ، والخوارج، والمعتزلة ، والزيدية)[١].

فلينظر الدكتور مع من يتفق مع الصحابة، والتابعين والأئمة الأربعة وسائر المسلمين، أم مع الطرف الآخر المبتدع، وأي الفريقين أحق بالصدق والتصديق عند كاتب من كتاب المسلمين.

٤ــ ثم ليسمع أخيراً ما قاله شيخ الإسلام والذي يدعي الدكتور أنه من مناصريه، ليسمع الدكتور هذا القول الأخير له في عبارة قاطعة لكل ادعاء أثيم: (فمن أنكر شفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر فهو مبتدع ضال ، .... ومن قال إن مخلوقاً يشفع عند الله بغير إذنه فقد خالف إجماع المسلمين ونصوص القرآن العظيم)[٢].

هذا هو ما ذكره ابن تيمية، وهذا رأيه الذي حاول الكاتب أن يلقى عليه ثوب التعتيم، وأن يفهم القارىء أنه لم يبتدع ما ذكره من إنكار للشفاعة ، وأن علماء الأمة أيدوه في قوله، وآرائه الغريبة، ولم يقدم الكاتب لقارئه نصاً واحداً يستشهد به من ابن تيمية ، أو غيره ليكون برهان صدق على زعمه، ولو قدم وكان ابن تيمية أو غيره أخطأ لقلنا له أخطأت، لأن كلامك غير موافق لما عليه أهل السنة والجماعة، أهل الحق ، وأن القرآن ة والسنة أوثق عندنا مما سواهما وليس لنا أن نأخذ برأي أحد كائناً من كان مهما علا كعبه في العلم طالما أن رأيه يناقض الكتاب والسنة الثابتة، فالحق لا يعرف عندنا بالرجال ولكن يعرف الرجال بالحق ، وابن تيمية هو من رجال الحق، لأنهم قالوا الحق، وما خالفوه، وأعلنوا ما ثبت لديهم من الكتاب والسنة، وما أخفوه ، وكذلك كل علماء أهل السنة قالوا قولتهم في الشفاعة وما أنكروها فها هو :

١ــ اللآلكائي: يذكر بسنده عن سفيان بن عينيه – رحمه الله – أنه قال : (السنة عشرة ، فمن كن فيه فقد اكتمل السنة، ومن ترك منها شيئاً فقد ترك السنة .. وعد منها الشفاعة)[٣].

٢ــ والإمام أحمد بن حنبل: رحمه الله قال: (الإيمان بشفاعة النبي ﷺ ... إنما هو من باب الإيمان به والتصديق به)[٤].

٣ــ والإمام النووي: نقل عن القاضي عياض – رحمهما الله – أنه قال: (أجمع السلف ، والخلق ومن بعدهم من أهل السنة على ثبوت الشفاعة)[٥].

٤ــ والإمام السفاريني: رحمه الله يقول: (شفاعة النبي ﷺ نوع من السمعيات وردت بها الآثار حتى بلغت مبلغ التواتر المعنوي)[٦].

---

(١) مجموع الفتاوى ج١ ص ١٤٣

(٢) مجموع الفتاوى ج ١ ص ١٤٨

(٣) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج٢ ص ١٥٥

(٤) السابق ج٢ ص ١٥٨

(٥) شرح النووي لمسلم ج٣ ٣٥

(٧)-اللوامع ج٢٨ ص ٢٠٨

٥ــ وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله (أجمعوا على أن شفاعة النبي لأهل الكبائر من أمته ، وعلى أنه يخرج من النار قوماً من أمته بعد ما صاروا حميماً)[١].

٦ــ وقال الآجري : (بطلت حجة من كذّب بالشفاعة، الويل له إن لم يتب، وقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: من كذب بالشفاعة فليس له نصيب فيها)[٢].

وبعد :

فهذا القول الأخير أرسله على جناح السرعة للدكتور مصطفى محمود ، لعله يفيق عما سيطر على فكره من سوساوس الشياطين، ويرجع إلى أقوال علماء السنة والجماعة والتي لا تخرج عن تعاليم الكتاب العزيزة والسنة المطهرة. وأدعوه ألا يكذّب بالشفاعة ، وثبوتها ، فهي ليست منحة من أحد إنما هي فضل من الله على أمة الإسلام، وتكريم لخير الأنام محمد ﷺ والفرق بينها وبين وساطات الدنيا ، أمر معروف لكل مسلم ، وإنني أربأ بالدكتور أن يردد ما قاله أعداء السنة من دعاوى ينكرون من خلالها الشفاعة[٣] ليقضوا عل معتقد أجمع عليه المسلمون ، وهو من الأمور التي تحملهم على عدم اليأس من الحياة، والبشارة بفضل الله ، وتجديد شكرهم كل يوم على من منحهم هذا الفضل ، وتكبيره وحمده على كثرة نعمه، ومداومة الصلاة والسلام على الشفيع الرؤوف الرحيم ، الذي يدعو ربه ألا يبقي أحد من أمته في النار ، ولا يتساوى الموحد أبداً مع من لم يوحد ، لا يتساوى أبو جهل مع أبي بكر، ولا الوليد بن المغيرة مع عمر وسلمان ، ولا علي وعثمان ، مع أبن أبيٍّ وكل أعداء الرحمن، رضي الله تبارك وتعالى عن صحابة رسول الله، وآل بيته الأطهار، والأئمة الأعلام ، وكل من وحد الله وتمسك بدينه، ولم ينكر سنة نبيه ولا شفاعته، عليه الصلاة والسلام، يوم الزحام. وأن يجعل لنا نصيباً من هذه الشفاعة على يد خير الأنام وأن يسقينا بيده الشريفة شربة ماء لا نظمأ بعدها أبداً، ويحشرنا في زمرته، ﷺ وكل الصحابة الكرام.

اللهم اجعل منتهى مطالبنا رضاك، وأقصى مقاصدنا ما يعدنا لأن نلقاك، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[٤] .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د/ عبد المنعم فؤاد محمود عثمان

---

(١) رسالة أصول أهل السنة والجماعة ص (٩٠)

(٢) الشريعة ص (٣٣٧) ، وفتح الباري ص (١١ ، ٤٣٤)

(٣) لعل الدكتور اطلع على ما كتبه أبو رية في تجاه السنة ورد عليه علماء الإسلام ، فليته يطلع على ذلك الرد وخاصة ما كتبه الشيخ مصطفى السباعي فإن فيه ما يشفي مرض الدكتور وأمثاله

(٤) سورة آل عمران آية ٨

أهم المصادر والمراجع

١ــ القرآن الكريم جل من أنزله

٢ــ أصول الحديث وعلومه ، مصطلحه. د/ محمد عجاج الخطيب، دار الفكر ١٤٠٩هـ .

٢ــأصول التشريع الإسلامي. للشيخ علي حسب الله ، دار المعارف ١٣٩١هـ .

٣ــ أضواء البيان. د/ محمد الأمين الشنقيطي مكتبة ابن تيمية القاهرة ١٩٨٨م .

٤ــ إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية، ت/ عصام الدين الصيابطي دار الحديث ١٤١٧هـ، و ط دار الفكر بيروت . ت/ محمد محي الدين الخطيب.

٥ــ اكتساب المناعة في إثبات الشفاعة . أمير فتوح عبد العليم شيشي، مكتبة البلد الأمين القاهرة ط ١٤٢٠هـ .

٦ــ الإمام البخاري – رضي الله عنه – إمام الحفاظ والمحدثين ، تقي الدين النووي الظاهري ط٤ دار القلم دمشق ١٤١٥هـ .

٧ــ الباطنية وموقف الإسلام منهم . د/ جميل أبو العلا د الأمانة – القاهرة .

٨ ــ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث . للحافظ بن كثير ت/ أحمد محمد شاكر دار فيحاء دمشق ، دار السلام الرياض ط ١٤١٤هـ

٩ــ التاريخ الكبير. للبخاري ط مصوره عن الطبعة الهندية دار الفكر – بيروت

١٠ــ تاريخ بغداد. أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي . دار الكتاب العربي ، ودار الفكر – القاهرة

١١ــ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة. للقرطبي ت/ أبو عبد الله سيد توفيق ط ١٤١٨هـ .

١٢ــ تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار للشيخ رشيد رضا دار المنار بمصر ط ١٣٤٦هـ

١٣ــ تفسير القرآن العظيم . للإمام ابن كثير، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط ١٤١٨هـ .

١٤ــ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان . للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي . ت/ عبد الرحمن اللويحق ، مؤسسة الرسالة بيروت . لبنان ط١ ١٤٢٣هـ .

١٥ــ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني . ط مصورة عن الطبعة الهندية . صورتها دار الكتاب الإسلامي .

١٦ــ تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي . ت/ بشار عواد معروف ، الرسالة . ط ١٤١٨هـ ودار المأمون للتراث .

١٧ــ الثقات لابن حبان . ط مصورة عن الطبعة الهندية ١٣٩٣هـ .

١٨ــ الجامع لأحكام القرآن (الشهير بتفسير القرطبي) أبو عبد الله القرطبي ، دار إحياء التراث العربي . بيروت ، ودار الشعب ، ودار الريان ؟

١٩ــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري . ط الحلبي ، مصر.
٢٠ــ جامع بيان العلم لابن عبد البر . ط السلفية ، المدينة المنورة .
٢١ــ الجمع بين الصحيحين – صحيح البخاري وصحيح مسلم برواية مسلم . جمع / ياسر السلامة ، ودار إبراهيم اللاحم ، دار الوطن – الرياض ١٤١٩هـ .
٢٢ــ خلق أفعال العباد، والرد على الجهمية، وأصحاب التعطيل. الإمام محمد بن إسماعيل البخاري . دراسة وتحقيق د/ فهد بن سلمان الفهيد، دار أطلس . الخضراء ط١ ١٤٢٥هـ .
٢٣ــ رؤية الله بين المعتزلة، وأهل السنة . د/ عبد المنعم فؤاد، دار الثقافة الدينية، مصر . ط ١٤٢٦هـ .
٢٤ــ زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية محمد بن أبي بكرالزرعي الدمشقي . دار الرسالة بيروت ١٤١٤هـ .
٢٥ــ السنة حجة على جميع الأمة . د/ محمد بكار زكريا، دار البشائر الإسلامية بيروت لبنان ١٤٢١هـ .
٢٦ــ السنن الكبرى للإمام النسائي . ت/ عبد الغفار البنداري – وسيد كردي درا الكتب العلمية بيروت.
٢٧ــ السنن الكبرى للبيهقي . ط مصورة عن دار المعرفة بيروت .
٢٨ــ سنن ابن ماجة . ت/ صدقي جميل العطار ، دار الفكر بيروت١٤١٤هـ .
٢٩ــ سنن الدارمي . ت/ فوزان الأحمد وطارق السبع . دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ .
٣٠ــ سنن أب داوود . ت/ صدقي العطار دار الفكر بيروت ١٤١٤هـ .
٣١ــ سير أعلام النبلاء . مجموعة من الباحثين، إشراف شعيب الأرناؤوط . مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ .
٣٢ــ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للألكائي . ت/ أحمد سعد حمدان ، دار طيبة ط ١٤٠٩هـ
٣٣ــ شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار أحمد . ت/ د/ عبد الكريم عثمان مكتبة وهبة ط ١٣٨٤هـ .
٣٤ــ شرح صحيح مسلم للنووي . ط مصورة دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .
٣٥ــ شرح النووي على البخاري المطبوع باسم ما تسمى إليه حاجة القاريء من صحيح البخاري. ت/ علي حسن عبد الحميد دار الباز ، مكة المكرمة .
٣٦ــ شرح العقيدة الطحاوية لابن العز الدمشقي ت/د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ، وشعيب الأرناؤو . ط مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ .
٣٧ــ الشريعة ، للآجري . ت/ محمد حامد الفقي، ط مصورة دار الكتب العلمية . بيروت، ودار الوطن الرياض ١٤٢٠هـ .

٣٨ــ الشفاعة عن أهل السنة، والرد علا المخالفين فيها. د/ ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع دار أطلس . ط٢ ١٤٢٢هـ الرياض .
٣٩ــ الشفاعة في الآخرة بين النقل والعقل . د/ يوسف القرضاوي ، دار النهضة – مصر .
٤٠ــ الشفاعة، ثبوتها، ضوابطها، شروطها، أنواعها أحمد أحمد جاد ، دار الدعوة الإسكندرية ١٤٢٠هـ .
٤١ــ الشفاعة محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين، والمعارضين . د/ مصطفى محمود ، دار أخبرا اليوم القاهرة ١٩٩٩م .
٤٢ــ الشوقيات: لأمير الشعراء أحمد شوقي. مراجعة يوسف الشيخ البقاعي دار الكتاب العربي . القاهرة.
٤٣ــ صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري . المكتبة الإسلامية استنبول
٤٤ــ صحيح مسلم للإمام/ أب الحسين مسلم بن الحجاج القشيري . دار الحديث – القاهرة .
٤٥ــ الطبقات الكبرى لابن سعد . دار صادر بيروت .
٤٦ــ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ت/ عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي . دار إحياء الكتب العربية .
٤٧ــ طبقات الحنابلة لابن أبي يعلي . دار المعرفة بيروت .
٤٨ــ عقيدة المسلم للشيخ/ محمد الغزالي دار الكتب الإسلامية ١٤٠٠هـ القاهرة .
٤٩ــ علم أصول الفقه . أحمد إبراهيم بك ، دار الأنصار – القاهرة .
٥٠ــ قضية التأويل بين الشيعة وأهل السنة. عرض وتقويم د/ عبد المنعم فؤاد . دار المنار – القاهرة، ومكتبة الرشيد – الرياض .
٥١ــ كيف نتعامل مع السنة النبوية . د/ يوسف القرضاوي، دار الشروق القاهرة . ط٢ / ١٤٢٣هـ .
٥٢ــ لمعة الاعتقاد لابن المقدسي . شرح الشيخ ابن عثيمين .
٥٣ــ لسان العرب . لابن منظور المصري ط١ دار صادر بيروت ١٤١٠هـ .
٥٣ــ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ، وابنه محمد . بدون طبع وتازيخ .
٥٤ــ مختار الصحاح . محمد بن أبي بكر الرازي ، مكتبة لبنان ١٩٨٩م .
٥٥ــ مختصر تفسير البغوي: المسمى معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسن بن سعود البغوي، . اختصار د/ عبد الله أحمد الزيد ، مكتبة المعارف . الرياض ط ١٤١٦هـ .

٥٦ـ مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح . للإمام زين الدين الزبيدي ط٢ ، دار المؤيد . الرياض ١٤٢٣هـ .

٥٧ـ المراجعات حول إنكار مصطفى محمود لأحاديث الشفاعات . للشيخ/ سعود بن إبراهيم الشريم دار الوطن ، الرياض ١٤٢١هـ .

٥٨ـ المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة د/ يوسف القرضاوي مكتبة وهبة ط٢ / ١٤٢٢هـ .

٥٩ـ المسند للإمام أحمد بن حنبل . ت/ أحمد محمد شاكر وحمزة الزين ط١ . دار الحديث ، القاهرة ١١٦هـ .

٦٠ـ المسيحية بين التوحيد ، والتثليث، وموقف الإسلام منها . د/ عبد المنعم فؤاد ط١ العبيكان الرياض .

٦١ـ المعجم الكبير للطبراني . ت/ حمدي عبد المجيد السلفي . دار الكتب العلمية بيروت .

٦٢ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس .ت/ عبد السلام محمد هارون ط٢ الحلبي . ١٣٨٩هـ القاهرة .

٦٣ـ معجم البلدان لياقوت الحموي . دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠هـ .

٦٤ـ مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية . مكتبة الحياة ، بيروت .

٦٥ـ مكانة السنة في الإسلام .د/ صالح بن فوزان الفوزان . مطابع الجريد ، الرياض ١٤٢٥هـ

٦٦ـ منهج البحث في العلوم الإسلامية . د/ محمد الدسوقي دار الأوزاعي ط١ ١٤٠٤هـ

٦٧ـ الموافقات في أصول الشريعة للإمام الشاطبي . ت/ محمد حسنين مخلوف ١٤١١هـ دار إحياء الكتب العربية ، ط دار الكتب العلمية ط ١٤١١هـ . شرح عبد الله دراز .

٦٨ـ النكت الطراف على الأشراف لابن حجر العسقلاني مطبوع مع تحفة الأشراف . ت/ عبد الصمد شرف الدين .

٦٩ـ الوسيط في علوم مصطلح الحديث . للشيخ/ محمد محمد أبو شهبة ، عالم المعرفة . جدة ١٤٠٣هـ السعودية .